كالفهد في الشّمس

لاورا ريستريبو

رواية

ترجمة :
مارك جمال

t.me/qurssan

كالفَهْد في الشمس

لاورا ريستريبو

رواية

ترجمها عن الإسبانية:

مارك جمال

كالفَهْد في الشمس - رواية Leopardo al sol

تأليف: لاورا ريستريبو Laura Restrepo

ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978 - 9933 - 641 - 21 - 4

الطبعة الأولى: 2020

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 +961
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com/Sard.Publishing
twitter.com/SardPublishing

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 +963
جوال: 557195187 +971
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com/Adwan.Publishing.House
twitter.com/AdwanPH

© Laura Restrepo 1993

جميع حقوق الترجمة محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا

t.me/qurssan

الأهداء

إلى إيبان ، من أجل كلّ هذه البهجة ،

في زمنٍ كاسر .

«ودونهم صحراء صفراء،

مُرقّطة بظلال الصخور،

حيث الموت جاثمٌ كالفهد في الشمس».

لورد دانسني (Lord Dunsany)

t.me/qurssan

كالفَهْد في الشمس

ها هو ذا، الجالس مع الشقراء. إنه ناندو بارّاغان.

وسط الغبش المُخيّم على الحانة تسري الشائعة. إنه هو. ناندو بارّاغان. مئة عين ترنو إليه خلسةً، وخمسون فماً تهمس باسمه بصوت خافت.

- «ها هو ذا: إنه واحد منهم».

حيثما ذهب آل بارّاغان تسري الهمهمة في إثرهم. إنها اللعنة المكتومة، الإعجاب الخفيّ، الضغائن الدفينة. يعيشون خلف واجهة. فهم ليسوا ما هم عليه، بل ما يحكيه الناس، ويرتؤونه، ويتخيّلونه. إنهم خرافة حيّة، أسطورة حاضرة. بل إنهم، من فرط الأكاذيب التي رُوِيَت عنهم، صاروا تلالاً من الكلمات. حياتهم ليسَت لهم، بل إنها ملكية عامة. يمقتهم الناس، يتملّقونهم، يجحدونهم، يقلّدونهم. كلُّ امرئٍ وشأنه. ولكن ما اتّفقوا عليه، بالإجماع، هو مخافةُ آل بارّاغان.

- «الجالس إلى البار. إنه الزعيم، ناندو بارّاغان».

تنساب العبارة على منصّة الرقص، وتتردّد في أرجاء المكان، وتسري من طاولة إلى أخرى، وتنعكس مضاعفةً على مرايا السقف. والخوف يتكثّف تحت الضوء الأسود. والتوتّر الحادّ يقطع سحائب الدخان ويشوّش أغنيات البوليرو الآتية من صندوق الموسيقا. يتوقّف أزواج الراقصين. ويلتمع الوميض الآتي من كشّافات الإضاءة بالأزرق والبنفسجي، مُنذِراً بالمصائب. تتصبّب الأكفّ عرقاً وتقشعرّ الظهور.

غافلاً عن الهمس، غريباً عن الاضطراب الذي يدبّ في المكان بسبب حضوره، يدخّن ناندو بارّاغان، العملاق الأصفر، سيجارة پيليروخا جالساً على أحد مقاعد البار العالية.

- «ما لون بشرته؟».

t.me/qurssan

- «أصفر محترق، مثله كمثل إخوته».

لـه وجـهٌ تنتشـر فيـه الثقوب وكـأنما أتلفَتـه الطـيور، وعينـان حسـيرتان متواريتـان خلـف نظـارة «رايبـان» سـوداء عدسـاتها عاكسة. تحت القميص الكاريبي يرتدي قميصاً داخلياً مُشحّماً. وعلى صدره الرحيب الأملس، الذي يلمع بفعل قطرات العرق، علّق فـي زهـوٍ سـلسلةً تنتـهي بصـليب كـاراباكا الضـخم، مـن الـذهب المصمت. ذلك الصليب الثقيل القدير.

- «كلّ فـردٍ مـن آل بارّاغان يعلّق صليباً من صلبان كاراباكا. إنه تميمتـهم. وإليـه يتضـرّعون طـالبين النقـود، والعافيـة، والحـب، والسعادة».

- «أربعـة أشـياء يطلبونـها، فـلا يمنحـهم الصـليب إلّا النقـود. أمـا البقية، فلم ولن ينعموا بشيء منها».

وأمام ناندو، في المقعد المقابل، تجلس شقراء مكتنزة، مهيبة، واضعةً ساقاً على ساق، وقد حشرَت جسدها في ثوبٍ أسود من قطعة واحدة، مُطعّم بالدانتيل المطاط، ثوب ضيّق مطاطي يليق بالديسكو، يسمح للناظر بأن يرى من بين طيّات النسيج بشرةً ناضجة وصدرية من الساتان، مقاس 40 C. أما عيناها اللتان لا شـكل لـهما ولا لـون، فترمشـان، مرسومتين بالمَسكَرة، والكحـل، والظـلال المُلوّنة بألوان الطيف. تعود برأسها إلى الوراء مُلقيةً بشـعرها الأشـقر الذي يلهب ظهرها كالسوط، يابساً مثل القشّ، كاشفاً عن سواد جذوره الأصلي. تتحرّك في شهوانية مخذولة تليق بقطّة شاردة، وتحيط بها هالةٌ من الجلال الغامض وكأنها إلهة قديمة.

يـرنو إليـها نانـدو بارّاغان إجـلالاً، ويـذوب قلـب المحـارب الغليظ قطرةً قطرةً، كشموع القرابين المُضرَمة أمام المذبح. يقول لها: «لـم تـنَل منـكِ الأعـوام. جميلـة أنـتِ يـا ميلينا. كما كنتِ فـي ما مضى».

ثم يعاقب حلقه بالدخان الحارّ المنبعث من السيجارة البيليروخا.

t.me/qurssan

فتجيبه الشقراء بصوت شهوانيّ أجشّ، من الأعماق: «وها أنت قد غرقتَ في الذهب حتى أذنَيْك. كنتَ رجلاً فقيراً حين تعرّفتُ بك».

- «ما زلتُ الرجل نفسه».

- «يُقال إنك تمتلك سراديب ممتلئة بالدولارات، مُكدّسة في أكوام. يُقال إن الأوراق المالية تتعفّن في حوزتك، وإنك لا تدري ما العمل بها من فرط ما تمتلك من النقود».

- «يُقال الكثير. عودي إليّ».

- «كلّا».

- «لقد ذهبتِ مع ذلك الأجنبي حتى يأخذكِ بعيداً، إلى حيث لا تبلغكِ ولا حتى ذكراي».

- «إنها ذكرى أليمة. يُقال إنك لا تترك في طريقك سوى الأرامل والأيتام. ما الشرور التي سمحَت لك بأن تجني كلّ هذه النقود؟».

لا يحير الرجل جواباً. يتجرّع رشفةً من الويسكي، ويتبعها بأخرى من بيرة «ليونا پورا». وإذا الرغوة الفوّارة للشراب الشفّاف تردّ له ذكرى مبهمة، ذكرى أطفال يلعبون البيسبول على الرمال، بعصيّ المكانس بدلاً من المضارب، وأغطية القوارير بدلاً من الكرات.

وعند ذاك يقتحم آل مونساليبه المكان دفعةً واحدة، ويشيعون الفوضى في المكان. كان ناندو بارّاغان والمرأة الشقراء جالسَين إلى البار، وظهرهما إلى المدخل، فأطاحَت بهما في الهواء دفقة من رصاص المدفع الرشّاش.

- «كان ناندو والشقراء يتجاذبان أطراف الحديث، ويتبادلان القبلات، وقد تشابكت ساقاهما، عند ذاك أُطلِق عليهما الرصاص. أقول ما أقول لأني كنتُ هناك، في تلك الحانة، ورأيتُ ما جرى بهاتين العينَيْن».

كلّا. لا يلمسها ناندو في تلك الليلة. بل إنه يقابلها بالاحترام الذي

t.me/qurssan

يبديه الرجال لمن هجرَتهم من النساء. يتحدّث إليها، ولكنّه لا يلمسها. بل إنه بالأحرى يرنو إليها في ألم.

- «ومن أين لكم أن تعرفوا كيف كان يرنو إليها، ما دامت النظارة السوداء تحجب عينَيْه؟ إنها مُجرّد أقاويل. الكلّ يدلي برأيه، وليس هنالك من يعرف شيئاً».

الناس ليسوا مُغفّلين، بل إنهم ينتبهون إلى ما يجري. ومُجرّد نظرة إلى ناندو تكفي ليدرك المرء ما يعتمل في نفسه من الحنين، كهالة باهتة تحيط بقوامه. تتبلّد حواس ناندو وهو برفقة ميلينا، ويفقد القدرة على شمّ المخاطر، إذ تخدّره حيرةٌ بلا قرار، حيث لا وجود لسواها. وتسري إليه رجفة. في هذه الحياة لم يبتّ في جسده الرجفة إلّا شخص واحد: ميلينا، الوحيدة التي استطاعت أن تقول له «كلّا».

- «وعلى الرغم من كلّ شيء كان حالماً، من أولئك الحالمين الذين لا شفاء لهم، التائهين».

يهبط ناندو إلى عالَم البشر فلا يُهزَم، ولا يرحم. ذلك أنه يغدو كحيوان الوَشَق، كالصاعقة، كالسوط. أما حين تعاود هي الظهور، وإن يكُن في ذاكرته، فيستسلم لوسن ليّن أعزل، يليق بجرو تناول الطعام لتوّه، أو بعجوز سقطَت تحت وطأة قرص فاليوم 10. في تلك الليلة، ليلة اللقاء الطارئ بعد أعوام من الغياب، لم يعُد ناندو يفهم غيرها أو يحسّ به. فهو لا يترقّب وصول أبناء عمّه وأعدائه، آل مونسالبيه: بل وربما نسي وجودهم للحظة.

وتكريماً لميلينا، التي تشعر بنفور من السلاح، يتخلّى عن مُسدّسه الكولت كابايّو، بما حوى من رصاصات تحمل اسم ناندو، وصورة المهر الذي يشبّ على قائمتَيْه الخلفيتين المنقوشة على المقبض العاجي. تنخفض مُعدّلات حذره، ويمضي مُسلّماً أمره، مُتوخّياً السلامة، كما يليق بعاشقٍ يطلب الصفح.

ولذا لا ينتبه حين يقتحم آل مونسالبيه الحانة. يسمع الباقون صوت الستار الأسود المُعلّق في مدخل المكان وهو ينزاح، ويرون

t.me/qurssan

الخيـال المُفضّض لرجـل هزيـل برفقـة ثلاثـة آخـرين. فيتعـانق الأزواج بحثـاً عـن الحمايـة مما قـد يقع. وتنبطـح النـادلات تحت الطـاولات. أمـا ناندو فلا. فهو لا يـدرك شيئاً، تائهاً فـي اشتياقه ولوعته.

ومن الخلفية، تتسلّل دفقة من الروائح الباردة آتيةً من الرواق حيث تقع دورات المياه، رائحة مواسير الصرف، وأعقاب السجائر. ومن السقف يتدلّى مصباح مُزوّد بمُؤثّرات خاصة، ويطلق وميضاً مُتقطّعاً، شـاحباً مثـل فـلاش الكاميرا، يلقي بالضوء على هيئة الواصل حديثاً -يضيئه حيناً، ولا يضيئه حيناً، يُرَى حيناً، ولا يُرَى حيناً- فيسطع ببريق فوسفوريّ، شبحيّ.

إنـه مـاني مونسـالبيه. الـذي يشبه ناندو بارّاغان شكلاً، وكأنهما شـقيقان. ذلـك أن دمـاءهما واحـدة، علـى الـرغم مـن الكراهيـة المُتبادَلة بينهما: فهما ابنا عمّ شقيقَيْن. ماني أصغر عمراً، وأقصر قامـةً، وأقـلّ ضـخامةً، وأقـلّ قبحـاً. بشـرته أقـرب إلى الخضرة، وقسماته أكثر رهافة، وتعابير وجهه أشدّ قسوة. يحمل الوسم الـذي يجعـل التعرّف عليه ممكناً حتى لو كان في أقصى بقاع الأرض: هلال مطبوع بوضوح على الوجه، هلال متناقص يبتدئ عند الصدغ، ويمسّ طرف العين اليسرى، ثم يمضي منعطفاً إلى مـا بعد الوجنة، حتى ينتهي قرب الأنف. وكأنه نصف قناع، أو بصمة تركَتها نظارة العين الواحدة، عميقة، لا تُمحَى. إنها ندبة غـائرة أسـفرَت عنها إصابة شديدة، في تبادل إطلاق النار، من يدري في أيّ معركة.

مـاني يصـرخ: «نانـدو بـارّاغان، جـئتُ أقتلـك، لأنـك قتلـتَ أخـي، أدريانو مونسالبيه، والدمّ بالدمّ». ويصرخ: «اليوم مرّت عشرون عـاماً على تلك المواجهة». يحذّره ناندو: «أنـا أعزل». فيقول له ماني: «استلّ سلاحك إذاً، حتى نتبارز كالرجال».

- «يبدو الأمر وكأنه في إحدى المجلات الهزلية، أو قصص رعاة البقر. وبمَ أجاب ناندو؟ «يا للهول»؟ «يا للعجب»؟ «يا إلهي»؟ دع عنك هذا الحديث. فأولئك الناس لا يقولون شيئاً، ولا يحذّرون

t.me/qurssan

من شيء. ولا يعرفون المُقدّمات: بل إنهم يطلقون النار وكفى».

- «ما هكذا كانت تجري الأمور. فأولئك الناس أصحاب شرائع، ولا يطلقون النار غدراً. وعلى كلّ حال، فلقد انطفأت الأنوار بعد الطلقات الأولى، وجرى كلّ شيء تحت جنح الظلام. ربما قطع مالكُ الحانة تيار الكهرباء في رد فعل سريع، أو مَن يدري! كلّ ما هناك أن تبادل إطلاق النار وقع في العتمة».

سعى الناس إلى الهرب من الرصاص الخفيّ، وقد جُنّ جنونهم، وعميَت أبصارهم، وانطلقَت صرخاتهم، بينما تناهى إلى أسماعهم دويّ المرايا والقوارير والكشّافات المُحطّمة، حتى وصلَت سيارات الشرطة. من المُؤكّد أن آل مونسالبيه انسحبوا بمُجرّد انطلاق صفارات الإنذار، فعندما عادت الأنوار بعد قليل، في حضور السلطة، كانوا قد اختفوا عن الأنظار. يزحف ناندو بارّاغان خلف البار، جريحاً، غارقاً في الدماء، ولكنّه ما زال على قيد الحياة. أما باقي الخسائر فكانت مادية. يبدو المكان وقد تعرّض لتخريبٍ شديد، مع أن الوحيدَيْن اللذين أطلقا النار هما ماني وناندو، دون غيرهما، وكأنها مبارزة بينهما فحسب.

- «هكذا كان أولئك الناس يصرّفون أمورهم».

- «وكيف عُرِفَت تلك الأحداث؟ ألم تخيّم عليهما العتمة؟ وكيف أطلق ناندو النار؟ ألم يكُن أعزل؟».

- «البعض يزعم أنه كان أعزل، والبعض الآخر يقسم إنه رآه ممسكاً بالمُسدّس الكولت كابايّو. الشيء المُؤكّد أنه خرج مصاباً بجروح غائرة، في حين خرج ماني مونسالبيه سالماً».

- «لم تُصَب ميلينا الشقراء برصاصة واحدة، ربما احتمَت بكلّ ما لها من لحمٍ شهيّ مُحكَم. في حين انتشرَت الثقوب في جسد ناندو كالمصفاة، وإن لم يُصَب برصاصة قاتلة واحدة. بل كانت أشدّ إصابة تعرّض لها في ركبته اليسرى، إذ تركَته الرصاصة أعرج إلى الأبد».

- «لم تكُن اليسرى، بل اليمنى».

t.me/qurssan

- «الأمر رهنٌ بالنسخة التي يرويها كلّ شخص. المُؤكّد أنه منذ تلك اللحظة فصاعداً بات يترنّح في سيره. والمُؤكّد أيضاً أنه تعلّم الدرس يومذاك، ولم يُرَ مرة أخرى وهو يعرّض نفسه للخطر في الحانات. فبعد ذلك صار يتوخّى الحذر، ويتحرّك في الخفاء. ثم إننا لم نرَه مُجدّداً برفقة ميلينا. في تلك الليلة حملَته بنفسها إلى المستشفى، وأنقذَته من النزيف، ثم رحلَت مع رجلها الأجنبي مرة أخرى. تبخّرَت في الهواء، حتى يومنا هذا. لم يعُد ناندو بارّاغان لرؤيتها قطّ، إلّا في نوبات هذيانه، هذيان الحبّ الضائع. يُقال إنه تعافى من جروح الجسد، وإن ليس من جروح الفؤاد. عاش مُعذّباً طوال البقية الباقية من أيامه، فكان عجزه عن نسيان تلك المرأة سبباً في بعض شقائه.

- «وماذا عنها، ألم تحبّه قطّ؟».

- «يُقال إنها أحبّته، ولكنها ولّت هاربةً منه، ومن حربه، ومن شؤمه».

بينما هو في الطريق إلى المستشفى، يحكي ناندو بارّاغان للمرأة الشقراء قصة تعيسة، وجروحه تنزف مع كلّ قفزة تقفزها سيارة الإسعاف كلما مرّت بفجوة على الأسفلت المُتكسّر. أو يظنّ أنه يحكي لها، بينما هو في واقع الأمر يتمتم بجملة من أمور مغرقة في الهذيان، تفتقر إلى الاتساق، لم تفهمها وإن تمكّنَت من الوقوف على فحواها بالبداهة.

تدوّي صفارة الإنذار محمومةً في سمع ناندو بارّاغان، بينما يحاصره مُمرّض أخرق بالقطن الطبي وأكياس نقل الدم والعصائب لوقف النزيف. وفيما هو يترجرج على السرير النقّال، في هزّات تتأرجح بين هذا العالَم والعالَم الآخر، يسعى ناندو جاهداً للتركيز على وجه ميلينا، التي انحنَت إلى جواره، مُضرّجة بظلال حُمْر يلقيها المصباح الدوّار المُثبّت إلى سقف سيارة الإسعاف. تنسلّ منه الحياة بلا ألم ولا شفقة، وتداهمه نوبةٌ من الثرثرة المُتدفّقة بغزارة، كالنزيف. ويشعر برغبة مُلحّة تحدوه إلى الإفضاء بأمور حميمية، فيسرف في الهذر، بلسان ثقيل كالمخمور،

t.me/qurssan

كما لو كان الجارة الثرثارة. يودّ لو انتزع من روحه ذكرى أليمة، كمن ينتزع ضرساً معطوباً، يودّ لو تطهّر من الآثام والندم. يعترف إلى ميلينا، إلى القديسة ميلينا المستحيلة، التي لا سبيل إلى إدراكها، الكاهنة المُقدّسة بردائها وتاجها المُضرّجَيْن بالظلال الحُمر.

- «ميلينا، لا تتركيني وحدي وأنا في الرمق الأخير. وفي ساعة الموت اعصميني. أسألكِ مغفرتك، ميلينا، اغفري لي آثامي. امسحيني بالزيت المُقدّس. لا تتركيني للموت».

أما الحكاية التي يرويها ناندو بارّاغان لميلينا في الطريق، بينما هو يحتضر داخل سيارة الإسعاف، فقد جاء فيها ذكرُ شارع تكتسحه زوابع التراب في بلدة صحراوية.

هوذا ناندو قبل عشرين عاماً خلَت، يقطع ذلك الشارع وهو يكاد يكون مُجرّداً من الثياب، هائل الجرم، أخرق، أصفر، وقد تعرّى إلّا من مئزر كتلك المآزر التي يرتديها هنود الجبال، وحجب عينَيْه بنظارة رايبان سوداء، ووضع مُسدّس الكولت كاباڤو العتيق على خصره.

- «المُسدّس الذي سوف يستخدمه مدى الحياة؟».

- «هو بعينه. وإن لم يكُن ناندو قد أمر بإضافة المقبض العاجي إليه بعد، ولا كان يستخدم الرصاص الفضي الذي يحمل الحروف الأولى من اسمه».

إنه فتى في عمر المراهقة، ثقيل، هائل الجرم، يسير عَبْر الشارع المُغبّر بخطا واسعة تليق بكينغ كونغ. لم تجفّ الثقوب المنتشرة على وجهه بعد: تلك البثور الشرهة التي تتفجّر في ثورة عارمة، فتنهش عنقه ووجنتَيْه.

ومن خلفه مراهقٌ في العمر نفسه، يعدو محاولاً اللحاق به، أقلّ ضخامةً، وفظاظة، أقرب إلى الخضرة، عيناه مُتملّصتان، متقاربتان جداً، غائرتان، فوق أنفه المُدبّب. يدلّ وجه الشبه على صلة قرابة. لهما مظهرٌ جانبيّ واحد، وكلاهما يميل برأسه

t.me/qurssan

وبجسده وينطق الراء والسين بالطريقة نفسها: كلّ شيء ولا شيء، مختلفان ومتماثلان في آنٍ واحد.

إنه ابن عمّه الشقيق، أدريانو مونسالبيه. رفيقه، شريكه، صديقه المُقرّب. دمٌ واحد. يمضي وقد اختنق جسده داخل الثياب: تتراقص على جسده بذلةٌ كاملة من الصوف الداكن، طيّاتها عريضة ولها صفّان من الأزرار، ويرتدي سروالاً ينتهي بفتحة عريضة، ويزيّن أردانه المُنشّاة بالأزرار، ويضع ربطةً مُنقّطة حول عنقه ومنديلاً في جيبه، وينتعل حذاءً له كعبٌ عالٍ تحته جورب. يبدو كلّ شيء أكبر من مقاسه، يخزه، ويطبق على أنفاسه، فلا شيء مما يرتديه ملكٌ له. بل أعاره ناندو ثيابه حتى يسافر إلى العاصمة، لأول مرة في حياته، لعقد صفقة سجائر مارلبورو مُهرّبة.

- «ناندو، هذه الثياب لا تليق بي».

- «اصبر عليها. لك أن تشتري ما يحلو لك بعد ذلك».

- «ناندو، هذه الثياب تخنقني».

- «قلتُ لك أن تصبر. فالطقس هناك بارد».

- «أبدو كالأبله في عينَيّ».

- «هناك ستبدو بمظهر لائق».

- «تقول الجدّة إن ارتداء ثياب الآخرين نذير شؤم، فهي تورثنا حظّ مالك الثياب».

- «إنها حماقة من حماقات الجدّة».

يسير الفتيان معاً إلى مكتب كوندور دي أورو، خطوط الحافلات المُتّجهة إلى العاصمة، ويشتريان تذكرة للسفر على أوتوبيس السادسة مساء. الساعة الآن لا تتجاوز الثالثة، وهما يترقّبان على الناصية. ناندو، ذلك الإنسان البدائي، الهائل الجرم، الذي يكاد يكون مُجرّداً من الثياب، يقف تحت أشعة الشمس الحارقة غير

t.me/qurssan

آبهٍ، بينما يتصبّب أدريانو عرقاً في البذلة الصوف، ويستظلّ بعريشة.

عَبْر الشارع المهجور يمرّ قطيعٌ من البغال تحفّه شُرّابات ورُقَط من الغبار كأشجار عيد الميلاد في شهر يناير، ويمضي مثيراً سحائب التراب في طريقه. يبتلع ابنا العمّ التراب، ثم يلفظان بصاقاً بلون القهوة، ويراجعان تفاصيل الصفقة التي هما على وشك عقدها. يحتفظ أدريانو برقم الهاتف الخاص بالطرف الآخر في العاصمة مُدوّناً على ورقة، كما يدوّنه بالقلم على راحة يده تحسّباً لفقدان الورقة.

يقتحمان عالَم التهريب ناسيَيْن التقليد القديم: فأسرتاهما، آل بارّاغان وآل مونسالبيه، قد عاشتا في الصحراء حتى الآن على مقايضة الكباش والخراف. في أول عهدهم، استقرّ بهم المقام في منطقة مقفرة، مفعمة بترسّبات العصر الجيولوجي الثالث ورياح ما قبل التاريخ وجبال الملح والكلس وانبعاثات الغاز، حيث الحياة هزيلة، تتساقط قطرةً قطرةً. كانوا يختلسون الماء من الصخور، والحليب من العنزات، والعنزات من بين مخالب النمور. كان البيتان متقابلَيْن، لا يحيط بهما سوى الرمال والوحشة. كانت كلٌّ من الأسرتين محافظة، ولذا ما كان يُسمَح بنشوب أيّ خلاف، عملاً بالسياسة المُتّبعة.

لم يكُن بينهما أيّ اختلاف، ما عدا اللون، إذ كان أطفال آل مونسالبيه خضراً، وأطفال آل بارّاغان صفراً. كانوا ينادون الأب والعمّ بلقب بابا، أما الأم والخالة فبلقب ماما، وأما المسنّون فبلقب جدّي. نشّأهم الكبارُ مختلطين، مُكوّمين، بالعشرات، من دون تمييز بين الأحفاد والأبناء وأبناء الأشقاء، ربّوهم بالعزيمة والتين والأعشاب المُجفّفة.

كان ناندو بارّاغان وأدريانو مونسالبيه في عمر واحد. وعندما شبّا وبلغا الرابعة عشرة من العمر، خرجا معاً لشقّ الطريق والبحث عن عمل. فاشترى أدريانو صنفاً من أحجار الزينة على الساحل، أحجار بلون الزئبق تُسمّى توما، وراح يبيعها لهنود الجبال، الذين

t.me/qurssan

ينظمونها في عقود. وصار تاجراً. أما ناندو فتعلّم تهريب السجائر الأجنبية عَبْر الحدود. وصار مُهرّباً.

بعد مضيّ أشهر قلائل عرفا بوضوح أيّ التجارتين أفضل. فتخلّى أدريانو عن أحجار توما من أجل المارلبورو، ثم انضمّ إليهما بعض الإخوة بمضيّ الوقت. وعلى هدى تلك الشعلة المائلة، استقرّ المقام بالجيل الجديد من آل بارّاغان وآل مونسالبيه في عالَم حيث ينقسم الرجال إلى عصابات، ويقودون السيارات الجيب، ويقطعون مئات من الكيلومترات ليلاً، ويتعلّمون إطلاق النار، ودفع الرشوة للسلطات، وشرب الويسكي الإسكتلندي إلى حدّ السُكْر. وحمل لفافة من الأوراق المالية في جيوبهم. والتصدّي للأعداء، والحديث صياحاً، والضحك عالياً، وعشق العاهرات، وضرب الزوجات.

حَمَل الأبناء أجهزة الستريو والتلفزيونات المُلوّنة إلى البيتين، حيث التراب الذي وطئه الآباء بأقدامهم. وطردوا الخنازير والدجاجات من المطبخ لوضع الثلاجات مزدوجة الأبواب، ودفنوا البنادق في حظائر العنزات.

في ذلك المساء، يشعر ناندو وأدريانو بالضجر وهما واقفان على الناصية، لا يفعلان شيئاً، في انتظار أن يتحرّك الأوتوبيس. يقول ناندو، وكأنه يتحدّث إلى نفسه، كمن لا يكترث بما يقول: «اليوم تحين الذكرى الأولى لوفاة ماركو براتشو».

فيقول أدريانو، مشيحاً بوجهه إلى الجانب الآخر، مُحدّثاً الجدار: «لا بدّ أن أرملته تحيي ذكرى رحيله».

- «هلّا مررنا ببيتها لبعض الوقت؟».

- «وماذا لو فاتني الأوتوبيس!».

- «لبعض الوقت وحسب».

- «هيّا بنا».

يسيران في شوارع ميتة صوب مشارف البلدة حتى يلفّهما دخان

t.me/qurssan

طيّب الرائحة، آتٍ من التيس المشويّ. يتصاعد الدخان من موقد نار في مزرعة كبيرة، بلا جدران. وفي الداخل، يلمح الناظر نساء يغشاهن الدخان، ناعسات، في عباءات فضفاضة، منصرفات إلى القدور المتراصّة حول النار، يحمّرن ذبائح مصلوبة على الأسياخ. مِن النساء مَن تُرضع أبناءها، بينما الرجال يمرّرون القوارير في ما بينهم، أو يغفون على الأسرّة المُعلّقة.

وفي الخارج، في أرض يكسوها الوحل اليابس، وتتخلّلها آثارٌ قديمة تركَتها الدواليب، وتنتشر فيها برك الزيت، تتوهّج عدة دروب تحت أشعة الشمس، مُثقَلة بحمولات غير مشروعة، وبضائع محظورة، مُموّهة بإتقان، وإن تكُن مُتوقّعة: أسلحة، وأطعمة محفوظة، وسجائر، وخمور، وأجهزة منزلية. ها هي ذي شاحنات الپيغاسو العملاقة، والماك المهيبة، والسوپر بريغادير الجبارة، والمرسيدس الساحقة، تأخذ القيلولة مثلها كمثل الزواحف الضخمة، وتهضم على مهل فيما تتجشأ مُطلقةً من أمعائها السولار والبنزين. وحدها هياكل المركبات العملاقة اللامعة ترفع الصحراء إلى مرتبة أعلى، تلك الصحراء حيث البيوت كالعدَم، والبشر كالحشرات.

يقف ناندو وأدريانو عند المدخل بعيون دامعة بسبب الدخان، والشهية التي فتحَتها رائحة الشواء. يناولهما أحدهم قارورة من شراب الرمّ.

تدنو إليهما امرأةٌ ذات بشرة داكنة، معتدلة القدّ، وتطلب منهما الجلوس. لا تخفي جسدها تحت عباءة مثل باقي النساء، ولا تحجب شعرها بوشاح. بل ترتدي ثوباً ضيقاً من الحرير يبرز نهدَيْها وبطنها وعجيزتها، كاشفاً عن ذراعَيْها، وإبطَيْها اللحيمَيْن، الرخوَيْن. إنها الأرملة، سوليداد براتشو. زوجة الراحل ماركو براتشو. تقدّم لهما السجائر، في مودّة. يقول ناندو حتى تسمعه المرأة: «الفقيد المسكين، فاته الكثير!».

ويلقي إليها نظرة لزجة، مُتمهّلة، عَبْر عدسة النظارة السوداء. يضحك أدريانو. أما هي فتعقّب قائلةً: «ابنا العمّ الصغيران. حيثما

t.me/qurssan

ظهر الأول، تبعه الثاني. وحيثما مرَّ الأول، تبعه الثاني».

يضحكان مُجدّداً، وإن تكُن ضحكتهما أكثر خفوتاً هذه المرة، ويشعران بالضيق. أما هي فتروح وتغدو بين الناس، وتستقبل ضيوفاً آخرين. ثم تعود إلى مائدتها، وتُحضِر إليهما السجائر، والشواء، وشراب الرمّ الأبيض. فيأكلان، ويشربان في صمت، يحملقان فيها رائحة غادية، يراقبانها من الخلف ومن الأمام، ويدقّقان النظر إلى تفاصيلها وهي تخطر في مشيها، وثنايا أردافها.

في الخامسة يقولناندو: «يا أخي، عليك أن تذهب».

- «ما زال أمامي مُتّسع من الوقت».

تقترب منهما سوليداد براتشو، تكاد تمسح أنفيهما بنهديها البارزين من فتحة الثوب، تهديهما عطرها، وتمدّ ذراعيها أمام وجهيهما لوضع الصحون، وإزالة أعقاب السجائر، ورفع القوارير الخاوية. أما هما فيبديان إعجابهما بشامة مطبوعة على ذقنها بوضوح، يتنشّقان عطرها، ويلامسان الشعيرات الخشنة البارزة من تحت إبطها، ويلمحان حلمتَيْها اللتين تطلّان من فتحة الثوب ثم تتواريان مرة أخرى. يقول أدريانو: «العجوز مثيرة».

فيجيبه ناندو: «أراها سهلة المنال».

- «ليس هذا بالشيء الجديد يا بن العمّ، فأنا أيضاً قد نلتُها».

يطلقان قهقهة عالية، ويربّت كلٌّ منهما على ظهر الآخر ووجنته بحركات متواطئة.

- «كانت مُحقّة في قولها إنك تتبعني حيثما مررتُ».

- «بل قالت إنك أنت الذي تتبعني حيثما مررتُ».

يعلّق أدريانو السترة على مسند الكرسيّ ويتحرّر من القميص وربطة العنق التي تنزلق على الأرض كالحيّة المُلوّنة. فيأمره ناندو قائلاً: «التقِط ربطة عنقي عن الأرض، لقد وطئتها بقدمَيْك».

t.me/qurssan

يلتقطها أدريانو ويضعها حول عنقه، على الجلد مباشرة. فيقول ناندو: «هكذا يروق لي. والآن ارتدِ السترة والقميص أيضاً، وإلّا فاتك الأوتوبيس».

- «لقد فاتني الأوتوبيس بالفعل يا بن العمّ».

- «للمرّة الأخيرة أقول لك اذهب إلى العاصمة، فوجودك هنا يعرقلني».

- «الأفضل أن تذهب أنت إلى الجحيم».

يتراقص شراب الرَمّ في حدقتَيّ أدريانو، الذي ينهض مُترنّحاً، زائغ النظرات، مُتعرّج الخطا. يقترب من سوليداد براتشو، ويلفّ ربطة العنق حول خصرها -الذي يبدو كخصر الدبّور النحيل بين جبلَيْن من الحرير- ويسحب ربطة العنق حتى يضمّها إلى جسده، يلقي بأنفاسه في سمعها، ويلهث قرب عنقها، ويلصق عضوه الصلب المحموم بشيئها، فيجده ليّناً، مُهيّأً، مُرحّباً.

يراهما ناندو فتتضرّج وجنتاه بغضب مُتورّد، وكأنه طفح جلدي ناجم عن الحساسية. ولأول مرة على مدار اليوم يخلع نظارته السوداء ليتأكّد من صحة ما يرى. يتمايلان يمنة ويسرة، وقد استسلم كلٌّ منهما للتلامس والضمّ، أما ناندو فتتورّم عيناه وتنتفخان. ينهمك أدريانو والأرملة في المداعبة والالتصاق بينما يتصاعد الضيقُ إلى حلق ناندو مريراً، كثيفاً. يحسر أدريانو الثوب الحريري، ويدسّ يده عميقاً، بينما الغيرة السوداء تداهم ناندو وتسري إليه على هيئة اختلاجات عنيفة.

يفتح أدريانو سرواله المصنوع من الصوف، وفي تلك اللحظة يُفعّل نظام الضياع. إذ يضغط الزرّ الأحمر، فيتلقّى عقل ابن عمومته الغارق في الكحول الإشارة، واضحة. وتتفجّر في رأسه غيبوبة باعثة على الدوار، بلا ماضٍ ولا مستقبل، بلا وعي ولا عواقب، يؤجّجها السخط، ويعميها الألم. تدبّ في جسده قوةٌ تفوق مقدرة البشر، وعلى وجهه الممسوخ، الذي تزول عنه الألوان فجأة، ترتسم آثار الجنون البرّاقة، الجنون الذي يرغمه على

t.me/qurssan

الاستمرار حتى النهاية. يهبّ واقفاً ويفرّق بين العاشقَيْن بضربة واحدة من يده، ضربة مكتومة وغاشمة، فيلقي بالمرأة نحو الجدار ويطرح على الأرض ابن عمّه، الذي يقع على ظهره، عند قدمَي ناندو.

يتحلّق الناس حولهما، يتصايحون، يهتفون طلباً للمساعدة، ولكن في غمرة الجلبة لا يسمع ناندو غير ذلك النداء السريّ المُقنِع، نداء مُسدّس الكولت الذي يدغدغ جنبه، ثقيلاً، ناتئاً، حاضراً، قائلاً: «هأنذا».

يتحامى أدريانو فارداً ذراعَيْه. يحاول أن يضحك. يودّ لو جعل منها دعابة، وقدّم لناندو بارّاغان تفسيرات مُهدّئة، وفاوضه. بَيْد أنه يتسمّر في الأرض تحت وطأة الذعر، ويغصّ بلسانه، ويبقى هناك، أخرس، مثيراً للشفقة، طالباً الصفح بعينَيْه الغائرتين، اللتين يغمرهما الهلع والأمل، وتأبيان أن تودّعا ضوء النهار إلى الأبد.

أما ناندو، الرهيب، فلا ينصت إلى التوسّلات: لأن الخلل الذي ترك ذهنه خاوياً لا يسمح له بأن ينتبه إلى شيء سوى مقدار كراهيته لذلك الكائن الخسيس الذي يتوسّل إليه من مكانه على الأرض في تلك اللحظة.

يطلق النار على صدره. وعلى وقع الرصاصة المُدوّية ترفع الأرملة يدها إلى رأسها، ذاهلةً، مأخوذةً، وتسوّي شعرها بلفتة آلية، بليدة.

بينما أدريانو ينظر إلى ابن عمّه، جريحاً، كمن يتساءل عمّا جرى. يحاول أن يتكلّم، أن ينهض، أن يعود إلى الوضع الطبيعي، حتى يستسلم في النهاية، ويتّخذ وضع الجثة الهامدة، ويسلّم نفسه للأبدية، محزوناً، ساكناً.

رائحة البارود، اللاذعة، المُسكِرة مثل الماريجوانا، تتسلّل عَبْر منخرَيْ ناندو بارّاغان، فتلهب مخّه وتوقظه من الخمار والغضب الشيطاني، دفعةً واحدة. عند ذاك يدرك أنه قد أردى ابن عمّه قتيلاً، وينزل عليه الوعي الجارف بواقعةٍ لا ردّ لها.

يتجمّد زمن باقي البشر عند ناندو، الذي يدرك أنه قد اقتحم

t.me/qurssan

أراضي الهلاك التي لا يُسبَر لها غور، إلى غير عودة ممكنة.

أصفر، شبه مُجرّد من الثياب، يداهمه ضعف مفاجئ، وإذا هو أجوف، يسعى جاهداً للسيطرة على القشعريرة التي تنفض روحه، ويراقب ما يحيط به، بتعبير يليق بمن ضلّ سبيله عن العالَم، ذلك التعبير الذي سيعلق بنظرته من الآن فصاعداً.

يغمد سلاحه، الذي برد وسكت من جديد. يجثو على ركبتَيْه قرب جثمان أدريانو، بحنانٍ وئيدٍ أخرق، في غير عجلة. بعناية أنثوية يُلبِسه ثيابه، وكأنه وُلِد حديثاً. يُلبِسه القميص ويضمّ أزراره، ويجاهد لضمّ أزرار الأكمام التي تأبى النفاذ من العروة. يلتقط ربطة العنق من الأرض، ينظّفها، يلفّها حول عنقه ويعقدها ثلاث مرات، يُحكِم ربطها، ويتوخّى وضعها مستوية. يمرّر ذراعَيْه من أكمام السترة، ويضمّ الأزرار على الصفّيْن، ويسوّي طيات السترة. يرطّب سبّابته بريقه، ويمسح الرقم المُدوّن على يد أدريانو بالقلم حتى يطمسه. وحين يفرغ مما هو فاعل، يقول مُعلناً بنعومة: «أنا راحل عن هذا المكان التعِس، وسوف أحمل ابن عمّي أدريانو».

يثبّت النظارة الرايبان، ويحمل القتيل، ويسير في الشارع مُترنّحاً، كغوريلا تحمل صغيرها.

***

يسير ناندو بارّاغان في الصحراء قرابة اثني عشر نهاراً وليلة لم يتوقّف خلالها حتى ينام أو يأكل، يسير حاملاً على كاهله جثمان أدريانو مونسالبيه. في الأفق، يرى عن يمينه اثني عشر فجراً، مُصطبِغة بالأحمر القاني، ويرى عن يساره اثني عشر غروباً باللون نفسه. يخوض درب الصليب(*) في مملكة العَدَم ذات السيادة، حيث يمضي مُعذَّب الضمير، وهو يحمل القتيل على كاهله كالصليب. أمداء بلا نهاية من الرمال الحارقة التي تلهب قدمَيْه، والشمس المُتوهّجة تغشى عينَيْه وتلفح بشرته. لا يجد في سبيله ماء يروي عطشه ولا ظلّاً يخفّف من هلاوسه. ولا سلاماً لروحه النادمة.

t.me/qurssan

- «تلك الأحداث، تراها أسطورة أو حقيقة؟».

- «إنها حقيقة، ولكنها من فرط ما رُوِيَت غدَت أسطورة. أو إنها العكس: أسطورة غدَت حقيقة من فرط ما رُوِيَت. ولكن ذلك أهون ما في الأمر».

ما زال الجثمان لم يمسسه أذى خلال المسيرة. ما زال نضراً، مختالاً، وكأن شيئاً لم يكُن، فلا تفوح منه رائحة، ولا تبدو عليه آثار الواقعة. يمضي في غاية الراحة على عاتق ابن عمّه، الذي تخور قواه. فيبدو الميت حيّاً والحيّ ميتاً. يترافقان على مدى نهارات بلا نهاية عَبْر تلك الرمال الموحشة التي تبدأ حيث ينتهي العالَم. يتحالفان على تحمّل الوحدة المفرطة. بل ويتحدّثان في ما بينهما، وإن لم يسهبا في حديثهما المُتكرّر إلى حدّ الرتابة.

- «اصفَح عنّي يا بن العمّ لأني أرديتُك قتيلاً!».

- «ستدفع الثمن غالياً. فلتكُن الأرملة من نصيبك، والشعور بالذنب أيضاً».

- «لا أريدهما، لا أريد هذه ولا ذاك».

وفي عمق الصحراء السحيق، حيث لا يصل هدير البحر، يعثران على ما جاءا يبحثان عنه: بيت فقير يقع في ملتقى الرياح الشاردة. بيت مُربّع الشكل، له بابان مشرعان، باب شمالي وآخر جنوبي. تتسلّل الرياح العاتية إلى الداخل وهي تعوي كالروح المُعذّبة: تصفّر، وتبكي، وتشتبك، وتتصارع، كشجار قطط أو زيارة عروسَين، وبعد قليل تشرد وترحل، مُتوغّلةً إلى جوف الصحراء، فتمضي كل ريح في سبيلها.

يدلف ناندو إلى البيت، وهناك يودع جثمان أدريانو ويسوّيه بعناية على الأرض، ثم يجلس إلى جواره، مُترقّباً. ولمّا كانت تلك هي المرة الأولى التي يرتاح فيها على مدى أيام طوال، فهو يستغرق في حلم مضطرب، مائج، مثل الكثبان الرملية. ثم يرى الطيف.

t.me/qurssan

- «ظهر له شيء رهيب. كائن خارق للطبيعة...».

والحق أنه لم يحلم إلّا بشيخٍ عاديّ، برّي، لا يميّزه سوى شيخوخته الطاعنة، التي فاقَت كريستوفر كولومبوس في القِدَم، تلك التي أضناها التهاب المفاصل وتصلّب الشرايين. فيعترف له ناندو بارّاغان مُسرنماً: «يا عمّ، لقد قتلتُ ابن عمي أدريانو مونسالبيه».

فيجيبه الشيخ: «رأيتُ بعينَيّ».

- «وحدك تعرف ناموس الأعراف. ولقد جئتُ إلى هنا لتخبرني بما يجب عليّ فعله».

- «قبل كلّ شيء، احمل هذا الفتى من هنا. لا تُهدِ جثمانه إلى الرمال، وإلّا جرفَته. اطمره عميقاً، في أرض جافة، سوداء، وعُدْ إليّ بعد ذلك».

ينصاع ناندو بعينَيْن مغمضَتين وإيمان أعمى، فيرتحل والقتيل على كاهله، حتى يعثر على أرضٍ نبيلة تلقاهما بالترحاب. يودّع أدريانو إلى الأبد، وفي طريق العودة، الذي يستغرق طويلاً، يرى الشيخ يترقّب وصوله في المكان نفسه، مواجهاً الإعصار الذي يريد حمل جسده إلى السماء، جسده العاري، الهزيل، الذي لا يكسو عوراته سوى الأطمار البالية، وكأنه غاندي أو طفل من بنغلادش. وبتلك الهيئة الرثة، يقضي العمّ بحكم هو الأقسى بين الأحكام كافة. ومن فمه الخالي من الأسنان، الذي تلفّه الأنفاس الكريهة، تخرج الكلمات المُروّعة التي سوف تُغرِق آل بارّاغان وآل مونسالبيه في جحيم أرضي: «لقد سفكتَ دماءك. فوقعتَ في أفدح آثام البشر الفانين. لقد أشعلتَ فتيل الحرب بين الإخوة، الحرب التي سوف يرثها أبناؤك، وأبناء أبنائك».

يقول ناندو مُحتجّاً: «حكمك مفرط القسوة. أودّ لو غسلتُ إثمي بالتي هي أحسن».

فيهدر الشيخ ثائراً، مُحتدماً، مُصرّاً على رفض الاستجابة للتوسلات: «في العرف السائد بيننا، يُؤخَذ ثمن الدمّ بالدمّ.

t.me/qurssan

ولسوف يثأر آل مونسالبيه لقتيلهم، فتدفع حياتك، وينتقم إخوتك من آل بارّاغان أيضاً، وهكذا تدور الدائرة بلا انقطاع حتى آخر الزمان».

يحاول ناندو الدفع بحجّته قائلاً: «وماذا لو أني قصدتُ كاهناً، فباركني وأمرني بتلاوة الصلاة الربانية، وصلاة المسبحة، والصوم، وجلد الذات، كفارةً عما اقترفت، فأمتثل لأوامر الكاهن وأكون في سلام مع الرّبّ؟!».

- «لا دواء يشفي ولا بركة تنفع. فلا حضور للكنيسة هنا منذ عهد البابا بولس السادس، الذي مرّ على متن طائرة مُتّجهاً إلى اليابان، ولوّح لنا بيده مُحيّياً. هذه أرض بلا ربّ ولا أناجيل، لا قيمة هنا سوى لقول الأسلاف».

- «في وسعي البحث عن قاضٍ يحكم بسجني. فأؤدّي سنوات العقاب وأعود إلى الحرية، وأكون في سلام مع البشر».

- «لا قاضي يحضر إلى هنا، ولا محامي، ولا محكمة. إنها رفاهية تليق بالأجانب. أما نحن فلا شرع لنا إلّا ما تسطره الريح على الرمال، ولا عدل لنا إلّا ما يُقام باليد».

كانت الأمور وستبقى على تلك الحال، مثلما يقول العمّ، ذلك النبي القديم، مالك الحقائق، وخبير المحتومية. يستسلم ناندو بارّاغان أمام الدليل الدامغ، الذي بلغ من العمر دهراً. يطأطئ رأسه، ويبتلع ريقه المرير، ويشخص بعينَيْه إلى الأرض، ويتقبّل مصيره الذي لا يرحم، مرةً وإلى الأبد.

عند ذاك يكشف له الشيخ ميثاق الشرف، والشرائع التي تناقلَتها الأجيال، جيلاً تلو آخر، وقواعد الحرب الواجبة مراعاتها.

فيقضي بحكمه في مهابة، ومن خلال فمه الخالي من الأسنان ينطق أبناء العِرْق الواحد: «لن يتسنّى لأفراد آل بارّاغان وآل مونسالبيه العيش معاً بعد الآن. فلزام عليهم أن يهجروا الأرض التي عليها وُلِدوا ونشؤوا، تلك التي دُفِن فيها أسلافهم. سوف يُطرَدون من الصحراء، فيستقرّ المقام بإحدى الأسرتين في

t.me/qurssan

المدينة، وبالأخرى في المرفأ. لا يجوز التعدّي على أرض الغريم. إن قتلت عدوك، فاقتله بيدَيْك، فما لأحدٍ أن يقتله من أجلك. لسوف تدور المعركة رجلاً لرجل، وليس بالتكليف. تُحظَر إصابة غريمك ما دام أعزل أو غافلاً، وتُحظَر مباغتة الغريم من الخلف».

سأل ناندو، مُولّياً ظهره للريح، عازماً على تأدية دوره في الكابوس وكأنه الواقع الذي ليس له سواه: «ومتى يسعني الثأر لموتاي؟».

- «في المُتمّمات، أو مواعيد الأخذ بالثأر: أي بعد مضيّ تسع ليالٍ على واقعة القتل، أو شهر كامل، أو في الذكرى السنوية. في المُتمّمات يترقّبك أعداؤك، وتُحظَر مباغتة الأعداء في غفلة منهم. أما لو سقط القتيل في صفوف الأعداء، فعليك بالدفاع عن نفسك وعن ذويك في المُتمّمات أنت أيضاً، لأن الأعداء سوف يسعون في أثرك».

- «أهذا كل شيء؟».

- «يُحظَر إلحاق الأذى بالشيوخ والنساء والأطفال. فعقاب الحرب ينزل بالرجال دون سواهم».

- «قل لي كيف يجب عليّ دفن موتاي؟».

- «في أبهى حلّة، على أن يُلبِسهم إياها أولئك الذين أحبّوهم أكثر من كلّ من عداهم. ويجب وضعهم على بطونهم في النعوش، على أن تكون أقدامهم في المُقدّمة لدى الخروج بهم من بيتك».

- «ولمن يكون النصر في هذه الحرب؟».

- «للأسرة التي تقضي على جميع رجال الأسرة الأخرى».

- «هل من شيء يسعني عمله تجنّباً لكل هذه التعاسة؟».

- «لا شيء. والآن اذهب، وليقضَ كلّ امرئ وفق شريعته».

وإذا العمّ يغدو هبّة من الهواء، فيذوب تنهيداً، ويغيب في ثنايا الإعصار، كالريح وسط العاصفة. يخرج ناندو بارّاغان من الباب

t.me/qurssan

الشمالي، ويمضي في خطٍّ مستقيم، عَبْر الرحابة الصفراء التي لا تحدّها تخوم، حيث يلتقي بأبناء عِرْقه ليقودهم إلى درب العقاب.

- «ترك الصحراء وراءه، ونسي العمّ شيئاً فشيئاً، بل إنه كفّ عن البكاء على أدريانو، وإن لم يستطِع الإفاقة من حالة الهلوسة قطّ. بمضيّ الوقت راح يخلط بين الهلوسة واليقظة، فاستقرّ به العيش في تلك الحالة، مُسلّماً أمره».

- «بل كان ذلك زهواً، أكثر من كونه تسليماً: لأن فنّ الثأر بات مسألة شرف».

***

تنقشع الشمس المُتوهّجة، وتنطفئ ألسنتها النارية، ويجد ناندو بارّاغان نفسه حبيس مُكعّب أخضر، عدائي، صامت، جدرانه مُبلّطة. تلاشت ألوان الصحراء المُتّقدة، الأحمر بدرجاته، والبرتقالي بدرجاته، والأصفر المُستعِر بدرجاته، وبات العالَم مُثلّجاً، أخضر، أخضر بلون النعنع، أخضر بلون العيون، أخضر بلون بالطو الجرّاح.

يبدو البلاط في غرفة الإنعاش متناسقاً على نحو أليم، وفي خطوط متطابقة متوازية يزحف على السقف الشاهق، وعلى الجدران القريبة أكثر مما ينبغي، وعلى الأرض المُتقلّبة التي تدنو وتنأى. يحسّ ناندو بارّاغان بأنه يطفو مُتألّماً بين تلك الأسطح المبهمة، التي اصطبغَت بلون المياه الباردة. يسبح وعيه الذي ما زال نائماً في سماوات خُضْر من المُخدّر، ودفقات من الألم الدفين الذي لا سبيل إلى تفسيره تنفض جسده المُثخن بالجراح، وتوقظه. يلتقط أنفه رائحة المُطهّر النفّاذة. ويخطر له، في بادرة أولى من بوادر اليقظة: «أشمّ رائحة مُطهّر الكريولين، لا بدّ أنني في السيرك».

وللحظة يحلم بأفيال سيرك الإخوة إغريد. فيجدها طاعنة في العمر، في غاية التعاسة، ويتذكّر نفسه قبل سنوات، كبيراً، يأكل

t.me/qurssan

والبهلوانات، والسحرة الذين يتعرّف بهم لأول مرة في حياته.

يتبخّر السيرك ويعود ناندو إلى العالَم الأخضر المُستبِدّ. يحلم باقتراب ميلينا منه، وبإيماءة وجهها المُزيّن، وبحركة شفتَيْها. تنطق بكلمات تنساب مثل قطرات الضياء في البئر المعتمة، بئر ذهنه الغارق في السبات.

- «أتحبّينني يا ميلينا؟ أتقولين إنكِ تحبينني؟».

أما هي فما عادت تبدو بهيئة الأسقف، وقد خلعَت عنها الظلال الحُمْر، الشبحية، ومرة أخرى يحرس الدانتيل الأسود قامتها الأرضية.

- «أنا ظمآن يا ميلينا، أحسّ بظمأ رهيب. اغترفي بيدَيْك من الماء الأخضر واسقيني شربة. أودّ لو شربتُ من يدَيْك».

فينبثق صوتها من قاع البحر: «لقد خضعتَ لعملية جراحية يا ناندو. واستُخرِج الرصاص من جسدك. أنت بخير. يقول الأطباء إنك لن تموت».

- «أهذه أنتِ، ميلينا؟ ألم ترحلي؟».

- «لم أرحل، ولكن ها أنا ذا راحلة».

***

يطلّ على ليل المرفأ قمرٌ خفيف، يلتقط أنفاسه بعذوبة، والموجات السّود في البحر تدييات ثقيلة وديعة تدنو أسراباً كي تلعق بألسنتها أساسات البيت الكبير. الشرفة المُضاءة تسبح في الهواء، فوق المياه، كالصحن الطائر، وفي أحد أركانها تستتر طاولة حميمية لاتقاء النسيم، على جانبَيْها مقعدان، وفوقها مفرشٌ من الكتّان الأبيض، وكأسان من البلّور، ومزهرية مُزيّنة بالورود. عَبْر الستريو المُجسّم يغنّي «نلسون نِد» أغنية رومانسية، وكالحرير ينساب صوته الأخنف الذي يليق بقزمٍ عاشق.

- «يبدو وكأنه مشهد من مسلسل».

t.me/qurssan

لا يبدو وكأنه مشهد من مسلسل، بل إنه كذلك. فحياتهما محض مسلسل. على الأقل في داخل البيت، لأنها في الخارج فيلم رعب، حيث الكشّافات القوية لمراقبة المحيط، ودائرة المراقبة التلفزيونية للكشف عمّن يحاول الاقتراب، وسعال الحرّاس الذين يحومون حول المكان، وظلال الكلاب المُدرّبة على القتل.

تطلّ من سياج الشرفة امرأةٌ فارعة القوام، شابّة، فاتنة، ثنايا جسدها محسوبة بالميليمتر، وقياسها 90-60-90. ترتدي المرأة ثوباً شفيفاً من الموسلين الرمادي اللامع.

- «لعلّ صفاتها لم تكُن مثالية إلى هذا الحدّ».

بلى. قبل الزواج، كانت ألينا خيريكو دي مونسالبيه وصيفة ملكة الجمال على مستوى البلد. في هذه اللحظة ترنو إلى اللانهاية، وتترك الريح الفاترة تعلق بشعرها المُرسَل، الكستنائي، الزاهي، وهي تدندن مع المغنّي نلسون نِد في فتور: «مَن في هذه الحياة لم يذُق طعم الخيانة المرير». تنسى كلّ شيء، وتبقى جامدةً بلا حراك، وتترك الزمن يمرّ، حتى تنتبه إلى الساعة.

ترى أن الوقت قد تأخّر فيتلبّد وجهها الجميل بالظلال. تشرع في النظر إلى الساعة مرّةً تلو أخرى، في كدرٍ أولَ الأمر، ثم في لهفة، وأخيراً تنظر إليها قهريّاً، في ضيق. تعضّ أظفارها، البيضوية الشكل، التي تعتني بها مُدرِّمةُ الأظفار يوميّاً. تنقضّ عليها بأسنانها ناصعة البياض من دون رحمة، فتقرضها، وتزيل عنها طلاء ريفلون، وتنتزع الزوائد الجلدية المحيطة بها. تبدو على أصابعها قطرات من الدم، فتتجاهلها وتتمادى في تلك المذبحة الصغيرة، صعبة المراس كالفأر.

تدلف إلى البيت، حيث كلّ شيء من المقتنيات الحديثة باهظة الثمن: رفاهية رقيقة الألوان، تليق بميامي. يغوص كعبها في بُسُطٍ ليّنة، بيضاء اللون. تذهب إلى المطبخ المتكامل، المُكتظّ بالأفران وأجهزة الميكروويف والأجهزة المنزلية مُتعدّدة الأغراض. تخاطب الطاهية، تلك السيدة ذات القلب العليل التي تقي نفسها هواء المُكيّف بسترة من نسيج الأكريليك. تقول لها: «ماذا أعددتِ

t.me/qurssan

يا إيلا؟».

- «سمك القاروس، والأرزّ بجوز الهند، والموز المشوي».

- «هل برّدتِ النبيذ الأبيض؟».

- «ولماذا؟ ما دام السيد لا يشرب إلّا كولا رومان».

- «تأخّر الوقت وهو لم يصل بعد».

- «لا تنتظري أكثر مما انتظرتِ يا صغيرتي، الدون ماني لن يصل قبل الفجر».

تسألها ألينا، كمن يرجو ألّا يُجاب سؤاله: «وكيف عرفتِ؟».

- «لا بدّ أنه في الخارج، يقتل أحدهم».

فتحتجّ بلا همّة، ولا أمل: «لكنه وعدني بألّا يفعل».

ألينا خيريكو دي مونسالبيه، وصيفة ملكة الجمال السابقة، تتّجه إلى الحمام الذي في مخدعها، ببطء، وكتفاها مرتخيتان، وإبر الضغط العصبي تخز عمودها الفقري. ما عادت تمشي تلك المشية المدروسة المُدلّلة، ولا تبتسم تلك الابتسامة التي كثيراً ما تدرّبَت عليها، المشرقة للغاية، تلك التي كانت ترسمها منذ أعوام، وهي تسير على منصّة المسابقة القومية لملكة الجمال، وسط فلاشات الكاميرات، وعواصف التصفيق. تدلف إلى الحمّام الرخامي الفسيح، وتلتقط من إحدى العبوات قرصَيْن من أسبرين باير، ثم تتناولهما مع شربة ماء وهي تفكّر: «لعلّهما يبرئان حزني».

تفكّر في احتمال الذهاب إلى الفراش، ثم تصرف النظر. تذهب إلى حجرة التلفزيون، وتترك جسدها يتهاوى على أريكة مزغبة، مُبطّنة بنسيج من القطن الزاهي، تخلع حذاءها، وتضمّ ساقَيْها الطويلتين المثاليتين، وتضغط مفتاح التشغيل في جهاز التحكّم عن بعد. تعرض إحدى القنوات لقاء مع رجل سياسة. بينما تعرض قناة أخرى بطلاً محليّاً وفنانة مكسيكية وهما يتبادلان القبلات. بعد قليل تنظر إليهما ألينا وهي لا تراهما. تتأرجح في نعومة

t.me/qurssan

وهي تعانق ساقَيْها، وتهدهد نفسها، مستسلمةً لمشاعر الشفقة على الذات. ينتقل البطل وحبيبته من القبلات إلى مشهد من مشاهد الغيرة في حين يبدأ النعاس في مغالبة ألينا التي تفرد ظهرها المُتألِّم، وتسترخي، وتغفو.

ينتهي المسلسل عند منتصف الليل، وتذيع النشرة خبر هجومٍ تعرّض له ناندو بارّاغان، قبل ساعات، في واحدة من حانات المدينة. ولكنّها لا تسمع الخبر لأنها استغرقَت في النوم. توقظها إيلا: «هل أحضر لكِ طعامك يا صغيرتي ألينا؟».

- «لا أريد طعاماً».

- «إذاً فاذهبي إلى الفراش، وأنا سأطفئ الأنوار».

تتّجه ألينا إلى المخدع، تخلع ثوب الموسلين وعقد اللؤلؤ، وترتدي بيبي دول شفافاً من النايلون، ثم تأوي إلى فراشها الملكيّ، تحت ملاءات من الحرير، وتشخص بحدقتَيْها الرماديّتين إلى نقطة ثابتة على الجدار.

يجافيها النوم ويتركها تحت رحمة شعور ثاقب مُستبِدّ، شعور بالهجران. تطنّ في رأسها فكرة: زوجها ينساها، لا من أجل أخريات، فهو لو فعل لكان ذلك تحت السيطرة. تعرف أنها شابّة، رائعة الجمال، قادرة على خوض المعركة، والخروج منها منتصرة. غير أنها، مهما بذلَت من جهد، عاجزة عن التصدّي لشغفه الحقيقي: زوجها يتركها وحيدة حتى يقتل رجالاً آخرين.

بعد ساعات، ينبلج في السماء فجرٌ مُشرّب حمرةً، مبتهجاً، والبحر يفيق مُرقّطاً بالزبد والنوارس. أما عينا المرأة (المفتوحتان حتى الآن، الملتهبتان بفعل الأرق)، فما زالتا عالقتين بالنقطة نفسها على الجدار، وقلبها ما زال يجترّ الحنق المشؤوم نفسه. في تلك اللحظة يتمثّل عند الباب خيال رجل.

لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد، مرن القوام، نحيله، وإن جعله لونُ بشرته الأخضر الحائل يبدو أكبر من عمره. سرعان ما يبدو عليه المزاج العكر، على حسن مظهره وقوته وخيلائه. الحذاء الرياضي

t.me/qurssan

وهي تعانق ساقَيْها، وتهدهد نفسها، مستسلمةً لمشاعر الشفقة على الذات. ينتقل البطل وحبيبته من القبلات إلى مشهد من مشاهد الغيرة في حين يبدأ النعاس في مغالبة ألينا التي تفرد ظهرها المُتألِّم، وتسترخي، وتغفو.

ينتهي المسلسل عند منتصف الليل، وتذيع النشرة خبر هجومٍ تعرّض له ناندو بارّاغان، قبل ساعات، في واحدة من حانات المدينة. ولكنّها لا تسمع الخبر لأنها استغرقَت في النوم. توقظها إيلا: «هل أحضر لكِ طعامك يا صغيرتي ألينا؟».

- «لا أريد طعاماً».

- «إذاً فاذهبي إلى الفراش، وأنا سأطفئ الأنوار».

تتّجه ألينا إلى المخدع، تخلع ثوب الموسلين وعقد اللؤلؤ، وترتدي بيبي دول شفافاً من النايلون، ثم تأوي إلى فراشها الملكيّ، تحت ملاءات من الحرير، وتشخص بحدقتَيْها الرماديّتين إلى نقطة ثابتة على الجدار.

يجافيها النوم ويتركها تحت رحمة شعور ثاقب مُستبِدّ، شعور بالهجران. تطنّ في رأسها فكرة: زوجها ينساها، لا من أجل أخريات، فهو لو فعل لكان ذلك تحت السيطرة. تعرف أنها شابّة، رائعة الجمال، قادرة على خوض المعركة، والخروج منها منتصرة. غير أنها، مهما بذلَت من جهد، عاجزة عن التصدّي لشغفه الحقيقي: زوجها يتركها وحيدة حتى يقتل رجالاً آخرين.

بعد ساعات، ينبلج في السماء فجرٌ مُشرّب حمرةً، مبتهجاً، والبحر يفيق مُرقّطاً بالزبد والنوارس. أما عينا المرأة (المفتوحتان حتى الآن، الملتهبتان بفعل الأرق)، فما زالتا عالقتين بالنقطة نفسها على الجدار، وقلبها ما زال يجترّ الحنق المشؤوم نفسه. في تلك اللحظة يتمثّل عند الباب خيال رجل.

لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد، مرن القوام، نحيله، وإن جعله لونُ بشرته الأخضر الحائل يبدو أكبر من عمره. سرعان ما يبدو عليه المزاج العكر، على حسن مظهره وقوته وخيلائه. الحذاء الرياضي

t.me/qurssan

وهي تعانق ساقَيْها، وتهدهد نفسها، مستسلمةً لمشاعر الشفقة على الذات. ينتقل البطل وحبيبته من القبلات إلى مشهد من مشاهد الغيرة في حين يبدأ النعاس في مغالبة ألينا التي تفرد ظهرها المُتألِّم، وتسترخي، وتغفو.

ينتهي المسلسل عند منتصف الليل، وتذيع النشرة خبر هجومٍ تعرّض له ناندو بارّاغان، قبل ساعات، في واحدة من حانات المدينة. ولكنّها لا تسمع الخبر لأنها استغرقَت في النوم. توقظها إيلا: «هل أحضر لكِ طعامك يا صغيرتي ألينا؟».

- «لا أريد طعاماً».

- «إذاً فاذهبي إلى الفراش، وأنا سأطفئ الأنوار».

تتّجه ألينا إلى المخدع، تخلع ثوب الموسلين وعقد اللؤلؤ، وترتدي بيبي دول شفافاً من النايلون، ثم تأوي إلى فراشها الملكيّ، تحت ملاءات من الحرير، وتشخص بحدقتَيْها الرماديّتين إلى نقطة ثابتة على الجدار.

يجافيها النوم ويتركها تحت رحمة شعور ثاقب مُستبِدّ، شعور بالهجران. تطنّ في رأسها فكرة: زوجها ينساها، لا من أجل أخريات، فهو لو فعل لكان ذلك تحت السيطرة. تعرف أنها شابّة، رائعة الجمال، قادرة على خوض المعركة، والخروج منها منتصرة. غير أنها، مهما بذلَت من جهد، عاجزة عن التصدّي لشغفه الحقيقي: زوجها يتركها وحيدة حتى يقتل رجالاً آخرين.

بعد ساعات، ينبلج في السماء فجرٌ مُشرّب حمرةً، مبتهجاً، والبحر يفيق مُرقّطاً بالزبد والنوارس. أما عينا المرأة (المفتوحتان حتى الآن، الملتهبتان بفعل الأرق)، فما زالتا عالقتين بالنقطة نفسها على الجدار، وقلبها ما زال يجترّ الحنق المشؤوم نفسه. في تلك اللحظة يتمثّل عند الباب خيال رجل.

لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد، مرن القوام، نحيله، وإن جعله لونُ بشرته الأخضر الحائل يبدو أكبر من عمره. سرعان ما يبدو عليه المزاج العكر، على حسن مظهره وقوته وخيلائه. الحذاء الرياضي

t.me/qurssan

والقميص المفتوحة أزراره الذي يطفو خارج السروال يضفيان عليه مظهراً يليق بفرد من أفراد عصابة ما زال في عمر المراهقة، ولكن الغضون تحت عينَيْه تشي بأعوام طوال من الكوابيس. له نظرةٌ مغناطيسية ووجهٌ جذّاب على الرغم من الندبة الغائرة التي تبدو على شكل هلال، تلك الندبة التي تطفئ الجانب الأيسر من وجهه، وتميل بعينه، وتُقطّب وجنته.

إنه ماني مونسالبيه، الذي يبقى مُتّكئاً على حافة الباب، مطرقاً، يراقب شعر زوجته الزاهي، المبعثر، وقوامها السينمائي المشدود من فرط الغضب، المُنهَك من طول الانتظار. لا تراه وإن حدسَت بحضوره. تسأله من دون الالتفات إليه: «هل قتلتَ ناندو بارَاغان؟».

فيجاوبها مغمغماً: «لا أدري».

يدنو إلى الفراش ويحاول أن يربّت عليها بحذر، كما لو كان على وشك المساس بأسلاك مكهربة. أما هي فتقول: «اغسل يدَيْك أولاً».

يدخل ماني إلى الحمّام، ثم يخلع ثيابه شاعراً بالنفور، ويلقي بها على الأرض، ويسترخي تحت خيوط شديدة من الماء الساخن تاركاً سحابة البخار تلفّه. يعود إلى مخدعه عارياً، والأبخرة تتصاعد من جسده، وقطرات الماء تتساقط من شعره، ومذاق النعنع الذي تركه معجون «كولجيت» لا يزال في فمه. يأوي إلى الفراش ويهنأ بنعومة الملاءات الحريرية الزلقة. يفتح شاشة «بيتاماكس» عملاقة كان قد أمر بتثبيتها في السقف، فيظهر عليها فيلم من أفلام الغرب، بالتصوير البطيء، وبلا صوت. يتأمّل تتابُع الصور الصامتة على مهل. يُصفّرُ عدادَ ذهنِه، بينما تخلبه الخيول التي تعدو مُعلّقة في الهواء. يقترب من زوجته، ويطوّق رأسها بذراعه، ويشدّها إليه.

تتّصل بجسد زوجها الذي ما زال رطباً، فتسلّم نفسها، تلين، وتترك الجبل يذوب، جبل الضغينة المتراكمة طوال الليل. بينما يقول هو بنبرة مُقنِعة: «قُضِيَ الأمر. انسَي».

t.me/qurssan

تودّ لو نسيت، لو صدّقَت بصحّة كلامه، بأن الأمر قد قُضِي، بأنه لن يتكرّر، بأنها سعيدة على الرغم من كلّ شيء. تودّ لو صفحَت عنه، وأحسّت به قريباً، واستعادَته إلى الأبد، وكفّت عن التفكير. تكاد تهديه روحها وجسدها بلا تأنيب ولا شروط، كدأبها في كلّ ليلة، غير أنها تتشبّث بآخر خيوط الإرادة، آخر قطرة تبقّت لها من شخصيتها. تسأله: «أتذكر العهد الذي قطعتَه لي بإنهاء الحرب؟». وتقول له: «لم تفِ بالعهد». وتردف: «أنا سأقطع لك عهداً هذه المرّة». ثم تحذّره: «وأنا أفي بعهودي».

تنأى بنفسها عنه، وتجلس على الفراش، وتنظر إليه بإصرار، من دون أن يرفّ لها جفن، فيقول لها: «تبدين في غاية الأنوثة وأنتِ على هذه الحال، ثائرة».

لا تسمح له باستفزازها وتتابع حديثها مُحذّرةً: «سأهجرك يومَ أحبل، فأنا لا أريد أن يُقتَل ابني لمُجرّد أنه يحمل لقب عائلتك».

- «فجرَ ذلك اليوم، توعّدَت ألينا خيريكو زوجها، غير أنه لم يسمعها، لأنه كان قد استغرق في النوم».

لم يستغرق في النوم، بل إن ماني مونسالبيه يغمض عينَيه نصف إغماضة من دون أن يحير جواباً، وينصت إلى تلك الكلمات، التي لن ينساها أبداً.

***

- «هل عاش آل مونسالبيه في المرفأ وآل بارّاغان في المدينة؟».

- «أجل. فلقد افترقَت الأسرتان بعد لعنة العمّ الذي طردهم من الصحراء. وتولّى ناندو بارّاغان زعامة آل بارّاغان، بينما تولّى ماني مونسالبيه زعامة أهله. تضاعف عدد أفراد الأسرتين، وتحقّق لهما الثراء، كلّاً على حدة، إذ لم تجتمعا منذ ذلك الحين إلّا على القتال».

- «إذاً، فهل سقط القتيل الثاني بعد الأول؟».

t.me/qurssan

- «بعد سقوط القتيل الأول اندلعَت الحرب التي دامت أعواماً طوالاً، وما زالَت مستمرّة حتى الآن، مصحوبةً بالنحيب وقرع الأجراس الجنائزية. سقط الأول، فالثاني، فالثالث، فالعاشر، وهكذا، حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين أو أربعين. فكلّما سقط فرد من آل بارّاغان سقط آخر من آل مونسالبيه، على سبيل الثأر، والعكس. وهكذا تغذّت الحلقةُ بالدماء وامتلأت القبور بالشواهد».

- «هل عاشت الأسرتان على نشاط التهريب دوماً؟».

- «كلّا. في بادئ الأمر وحسب».

- «إذاً، فكيف تحقّق لهما كلّ هذا الثراء؟».

- «الكلّ يعرف ولكن أحداً لا ينبس بحرف».

- «أولئك الذين مرّوا في الشاحنة السلفرادو من آل بارّاغان. أما أولئك الذين جاؤوا وراءهم في السيارات التويوتا فهم حرّاسهم. انظر إليهم، ما زال بإمكانك رؤيتهم».

يمرّ الموكب فجراً وقد تألّف من أربع سيارات، ويحلّق على ارتفاع خفيض عَبْر شوارع المدينة، مُطلِقاً أزيزاً حادّاً. شاحنة سلفرادو وثلاث سيارات تويوتا، لكلّ منها أربعة أبواب، وتحمل لوحاتٍ من فنزويلا. تنطلق وكأنها دفقات من الرصاص، وتصرّ، وتحترق إطاراتها، متباهيةً بتسليحها وقدرتها على التخريب. تلتهم الأرصفة والنواصي، وتداهم حركة السير، وتتجاهل إشارات المرور، وترغم الطلاب على القفز مبتعدين عن طريقها بما يحملون من حقائب، وتنثر رذاذ الماء المتراكم في البرك على النساء وهنّ يبتعن الحليب، وتنشر الذعر في نفوس الباعة المنادين على اليانصيب، وكلاب الساحة.

- «لا يفيق المرء هنا على صياح الديكة، وإنما على ضجيج القتلة».

- «أيّهم ناندو بارّاغان؟ أهو قائد الشاحنة السلفرادو؟».

- «أجل، صاحب النظارة السوداء والسيجارة التى بين شفتَيْه.

t.me/qurssan

ذلك الذي يبدو بمظهر مجرم خطير. أما الآخر فهو شقيقه الصغير، نارسيسو بازّاغان».

كانت شاحنة شيفروليه سلفرادو لونها رمادي لامع، تزيّنها خطوط ضاربة إلى اللون البرتقالي، ومُزوّدة بكشّافات كألسنة اللهب على الجانبَيْن، نوافذها مقفلة، وفي داخلها يئزّ مُكيّف الهواء، مُثلّجاً.

خلف مقود السيارة يكاد المقعد لا يتّسع لناندو بازّاغان، حتى إنه يُضطَرّ إلى طأطأة رأسه لئلّا يصطدم بالسقف. يبدو أقلّ ضخامةً مما كان في سابق عهده: فالهجوم الذي تعرّض له في الحانة قد تركه أخفّ وزناً، وإن لم يُردِه قتيلاً.

أما الفتى المسافر إلى جواره، شقيقه نارسيسو، فهو محاسب الأسرة الذي يتولّى حسابات الصفقات التجارية القذرة بما تدرّه من أرباح طائلة، وينظّم النقود تحت المراتب. يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً. يغوص نارسيسو في مقعده، مُتّكئاً برأسه على المسند، عيناه مغمضتان نصف إغماضة، شبه نائم، شبه غائب عن الوعي، شبه غافل، كما هو دأبه.

- «كيف رأيتموه ما دامت نوافذ الشاحنة السلفرادو مقفلة وداكنة حتى لا يُرَى الركّاب في السيارة على وجه التحديد؟».

أهل المدينة جميعاً يعرفون أحوال نارسيسو. الكلّ يذكر عينَيْه، حتى أولئك الذين لم يروهما. كانت عيناه واسعتين، لوزيّتين، سوداوَيْن، هائلتين، وحشيّتين، كعيون ساكني الصحراء. ونظراته رطبة، محمومة، كنظرات فدائي، أو مريض بالصرع. ومن فرط طولها، تُثقِل عليه أهدابه، وتضايقه. أما حواجبه وشاربه ولحيته الخفيفة فلا تخدش بشرة النساء اللائي يقتربن منه، ذلك أنها حريرية، داكنة، تلمع في غبار الضوء المتناثر فوقها، بفعل الزيوت التي يستخدمها للعناية بشعره.

أما في ما عدا ذلك، فهو رجل عاديّ. طبيعي. مُتوسّط الطول. وربما كان مفرط الهزال. شفتاه أدقّ من اللازم، يواريهما تحت شاربه. أما أسنانه، فمن يدري! ولكن لا يهمّ، فمن نظر إلى عينَيْه

أقسم إنه أجمل رجل في المدينة بأسرها.

يرتدي الثياب البيض دوماً، من قمة رأسه إلى أخمص قدمَيْه: القميص، والسروال، وقبّعة بناما، وحذاء الموكاسين المصنوع من الجلد الإيطالي، المرن كالصندل، الذي ينتعله من دون جورب. هكذا يباشر أموره، نظيفاً، لا تشوبه شائبه، كمُمرّضة، أو طفلة في المناولة الأولى.

- «يُقال إن أحداً لم يرَ على ثيابه وسخاً، أو بقعة دم. وقيل إن السبب في ذلك أنه لا يلوّث يدَيْه. فهو يتولّى أمر النقود، لا السلاح. إنه رجل الأوراق المالية، أما الأعمال القذرة فيتركها لإخوته. ذاع عنه أنه جبان، ولكن أولئك الذين يعرفونه يدافعون عنه، مُؤكّدين أنه لا يفعل ما يفعل مدفوعاً بالجبن، وإنما اعتقاداً منه بأن البلطجة انحدار في المستوى».

نارسيسو بارّاغان، الفتى اللعوب، الأنيق، الصادق، يقع في غرام كلّ الجميلات اللاتي يعرفهن، ولكنّه يقع في غرامهن بحقّ، ومن أعماق فؤاده. كلّما اعترف بحبّه جاشَت عواطفه كالشُعراء، وراودَته رغبةٌ مُتّقدة في امتلاكهن، ورفعهن جميعاً إلى مصافّ الرّبّات، من دون أن يستثني منهن امرأة واحدة. وكلما تركَته إحداهن بكى بالدمع الثخين، بل إنه كان على أهبة التضحية بحياته من أجل كلّ واحدة من عشيقاته اللائي لا يُحصَى لهنّ عدد.

يُعَدّ الغناء جزءاً من مهنة الغاوي التي يمتهنها. يؤلّف نارسيسو أغنياته بنفسه، ويعزف على الغيتار. في المدينة يُطلَق عليه لقب الشاعر. له صوتٌ هو أجمل الأصوات، طبقاً لما ذهب إليه كثيرون. أما البعض الآخر فيرى أنّ صوته ليس فيه أدنى مزية، ولكن نظراته التائهة في الخواء متى غنّى تجعل غناءه منقطع النظير. يعنّفه إخوته: ذلك أنه، بين قصيدة وأخرى، يتهاون في الاعتناء بنفسه، وينغمس في البوهيمية، ويقع في الحبّ، وينسى أمر التجارة على مدى أيام.

يمرّ في الشاحنة السلفرادو كوميض من الفضّة عَبْر شوارع

t.me/qurssan

المدينة. يراه الناس جالساً إلى جوار ناندو بارّاغان، مع أن النوافذ المُغلقة، بزجاجها الداكن، تحول دونهم ودون رؤيته. ولكنّهم لا يرونه فحسب، وإنما يلتقطون الأثر الذي يخلّفه عطره في الهواء.

- «مِن النساء مَن يؤكّدن أن سرّ جاذبيته لا يكمن في عينَيْه، وإنما في العطر الذي يتعطّر به».

ذلك العبق النفّاذ، العذب، الأنثوي، الذي يعلق بالهواء طويلاً، ويحيط به، ويعلق بمن صافحه من الزبائن، وبمن دنا إليه من الأصدقاء، وبمن قبّلَته من النساء، وبكلّ ما لمسه: عصيّ البلياردو، وأرداف النساء، وسمّاعات الهواتف، ومقاود السيارات.

- «إذا خانت امرأةٌ زوجها مع نارسيسو بارّاغان، وشى بها عطره الذي لا يزول. بل ويتناقل الناس أحاديث عن الأوراق المالية التي مرّت بجيوبه، وما زالت مُضمّخة بعطره حتى بمضيّ شهور. البعض يقول إنه عطر «دراكار نوار» من «غاي لاروش». والبعض يقول إنه عطر أنثوي باهظ الثمن. والبعض يقول إنه يتعطّر بنبتة البتشول، لا أكثر، أو بكلّ بساطة يتعطّر ببخور الكنيسة. أو بخلاصة الماريجوانا. لم يتّفق اثنان على تلك المسألة. الشيء المُؤكّد أن السلطات كلّما سعَت إلى اعتقال نارسيسو عثرَت عليه، حتى وإن اختبأ في جوف الأرض، بسبب عطره».

اليوم يمرّ نارسيسو في الشاحنة السلفرادو الرمادية مُتّجهاً إلى مكان على مشارف المدينة. وإن لم تكُن رؤيته مألوفة في تلك المركبة المتينة، المُصفّحة، الحربية، المملوكة لأخيه ناندو. شتّان بينها وبين سيارة نارسيسو، الفارهة، التي لم يُرَ لها مثيل. صُنِعَت سيارته بالطلب، بتكليفٍ مباشر منه إلى المصنع. لا مثيل لها في البلد. ولا في العالَم. إنها «ليموزين لنكولن كونتيننتال»، لهواة جمع السيارات، لونها بنفسجي، وطولها أربعة أمتار.

- «بنفسجي؟».

بنفسجي صارخ، أرجواني يليق بأسبوع الآلام.

- «من الداخل أم من الخارج؟».

t.me/qurssan

من الخارج وحسب. أما من الداخل فهي مُبطّنة بالجلد المُذهّب.

***

حتى وإن انصهر الأسفلت وصار لدناً كالحلوى تحت شمس النهار الوحشية، كانت السلفرادو الرمادية تنساب على الطريق سريعاً كما يشقّ الزورق طريقه في هدوء عَبْر البحيرة.

يسافر الأخوان في صمت. يمضيناندو تائهاً في ذكرياته، مُطلِقاً لحنينه العنان، بينما يمضي نارسيسو مستريحاً في غفوته، لا يفكّر في شيء. أمامهما اثنتان من سيارات الحراسة، وخلفهما سيارة أخرى. يسير الموكب ويترك المدينة بعيداً، حتى يصل إلى ضيعة مستنقعية، بائسة، تقوم وسط رمال قذرة، وبركٍ من قناديل البحر.

تتقدّم سيارة الجيب الطلائعية باقي السيارات، فتناور أكواخاً برمائية في خطّ سيرٍ مُتعرّج، وتتزلّج فوق بقع حيّة من البترول المُراق على الأرض مُتوغّلة في شاطئ مُغطّى بالنفايات المُتعفّنة والرغوة الصناعية. تتوقّف أمام الكوخ الأخير، المُبعَد عن باقي الأكواخ. تنفتح أبواب الجيب الأربعة وتنطلق عصابة الحرّاس كما ينطلق البصاق: پاخاريتو بوم بوم، وتيخيراس، وكاتشومبو، وسيمون بالاس، فيطوّقون المكان وهم يشعّون صلفاً، ويلوّحون بأسلحتهم الأوتوماتيكية سوداء اللون. يفتّشون، ويتشمّمون، ويتلصّصون، وبعد التأكّد من خلوّ المنطقة، يشيرون إلى باقي الموكب بالاقتراب.

يترجّل ناندو ونارسيسو بارّاغان من السلفرادو، ويدلفان إلى مطبخٍ بلا جدران، له سقف من الصفيح الدبق بفعل الشحم، المسودّ بفعل الدخان. يتدلّى من الدعائم صبّار، وأدوات صدئة، ومصابيح لا نفع لها، وسباطات من الموز الجاف، وجلود أغنام، ودلاء مثقوبة، وزينة أعياد ميلاد كالحة، وقطع غيار سيارات وجرّارات وطائرات، ودون ذلك الكثير من الأجهزة التي يتعذّر التعرّف عليها، المُكدّسة كيفما اتّفق.

t.me/qurssan

كلّها يكسوه الصدأ، وينخره السوس، ويبدو في حالة رثّة. يتلفّت نارسيسو حوله بعينَيْن ليس لهما مثيل، تهويان تأمّل الجمال، فيشعر بغصّة في روحه.

تُرَى طاولة كانت زرقاء اللون في مرّة من المرات، وبضعة مقاعد، وفي أحد أركان المطبخ يبدو موقد فحم مُضرَم، وفي ركن آخر دزينةٌ من الشموع المُضاءة أمام مذبح مزدحم بصور قديسين شتّى. في المكان تماثيل مُثلّمة من تلك المستخدمة في تزيين مغارات أعياد الميلاد، بعضها يجسّد العذراء وحدها من دون الطفل يسوع، وبعضها الآخر يجسّد رعاة البقر وحدهم من دون الخراف. كما تُرَى راقصات من البورسلين ودُمى من الجصّ وقد اختلطَت بالتماثيل المُقدّسة: وثنيّات وسط الجمع المُقدّس. وفي وسط الأكوام تمثال أضخم من باقي التماثيل، يبدو صاحبه واضعاً رداء أسود على كتفَيْه، وعيناه الزجاجيتان تبكيان في شفقة، وشعره الخفيف بشريّ، وبين يدَيْه مكنسة يمسكها مُسلّماً أمره. إنه الراهب مارتِن دي پورّيس. الخلاسي صانع المعجزات وشفيع مرضى الجذام.

يضمّ ناندو بارّاغان قبضة يده على شكل قمع حول فمه، ويهتف ناظراً إلى مكبّ القمامة على الشاطئ: «روبِرتا كاراكولا! ماما روبِرتا!».

وعلى مسافة بعيدة، يتحرّك شيء ما. ينادي ناندو مُجدّداً، فيبرز كائن شبه بشريّ من خلف براميل خاوية، ويمرّ من فوق بقايا قارب. يقترب بخطا سريعة قصيرة مثل الكلاب، مناوراً الصفائح، والأسمال البالية، والأوعية، والسدّادات.

وإذا هي عجوز ضئيلة الحجم، لها بشرة كستنائية اللون، تنتشر فيها التجاعيد، قسماتها مُحيّرة، غير مكتملة، وكأنها شكلٌ من الصلصال رديء الصنع. ينقصها الأنف، وربما كانت تنقصها الشفتان أيضاً، أو الأجفان. لا أحد يعلم جيداً، فلا أحد يحتمل النظر إلى وجهها. أصابعها تنقصها السلاميات القصوى، والسلاميات الوسطى، وربما كانت يداها تنقصهما الأصابع.

t.me/qurssan

تتسلّق المنصة التي في المطبخ كيفما اتّفق لها، وتقف كالجنيّ القزم أمام ناندو بارّاغان، الذي يسألها: «كيف حالكِ؟».

فتجيبه بنصف لسان لزج: «أتداعى شيئاً فشيئاً. ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ومن هذا الذي جاء برفقتك؟».

- «جئتُ أطلب منك البركة. وهذا أخي نارسيسو».

نارسيسو يراقب العجوز بعينَيْن ذاهلتين، عينَي فتى لعوب تملّكه الرعب أمام المنظر الذي لم يرَ أبشع منه قطّ، يحاول كشف طلاسم ذلك المسخ الحيّ، كريه الرائحة، الواقف أمامه. وأخيراً يدرك ما يجري، فيرغمه الدوار على الالتصاق بالجدار: إنه داء الجذام، بل إنه جذام توراتي، سريع الانتشار، يتجسّد في أطمار العجوز البالية.

- «توتّرَت أعصاب نارسيسو وتقلّبَت معدته. كانت تلك الزيارة إلى الساحرة المجذومة من أشدّ التجارب قسوةً مدى حياته. لو كان يعجز عن مقاومة شيء، فهو المرض، والشيخوخة، وتدهور الجسد. كانت العاهات والقروح والجروح تبثّ الرعب في نفسه. وما كان يقوى على رؤية منظر الدم إلّا واضطربَت نفسه».

تجاهلت العجوز نارسيسو وراحت تدمدم بالتعاويذ، وتهذر بكلمات مُقدّسة عصيّة على النطق، وتتقدّم بالشكر لعذراء الكارمن، القديسة المنسدلة خصلات شعرها، شفيعة المهمّات الصعبة. تستحضر غيرها من العذارى والشهداء. تطرد الشياطين، والعقبات، والأعداء، والأخطار، وتختتم طقوسها بإراقة البركات على رأس ناندو بارّاغان المحني في خشوع. ثم تملي أمرها: «قدِّم هديّة إلى الراهب مارتِن دي پورّيس».

فيضحك ناندو: «إنه قدّيس ضعيف، لا يصنع المعجزات لغير المرضى والنساء».

- «اسحب كلامك يا ناندو بارّاغان، فهو الأشدّ ولعاً بالانتقام بين جميع القديسين. إذا لم تفِ له بنذورك، انتقم منك. خَفْ منه وأظهِر له آيات الاحترام».

t.me/qurssan

فيجيبهاناندو: «لا أخاف أياً من القديسين، بل أخافكِ أنتِ».

ثم يناولها رزمة من النقود ويطلب منها أن تقرأ له الطالع في فنجان الكاكاو. فتضع هي القِدر على النار، وتتركها حتى تغلي ثلاث مرات، ثم تصبّ فنجانَين. تمضي بهما إلى الطاولة، وقد أمسكَت كلّ فنجان بيد، ثم تضع إبهامَيها المُشوّهَيْن في السائل الحارق، متباهيةً بما هي فاعلة. تتفرّس في الرجلَين. تريد أن تعرف إلى أيّ مدى يمكنهما الذهاب. تقول لهما: «اشربا».

يمسك ناندو بالفنجان، ومن دون التفكير في الأمر مرّتين يتجرّع محتوياته دفعةً واحدة، فيحرق الكاكاو لسانه. يضع الفنجان مقلوباً فوق الطاولة. أما نارسيسو، فلا يمسّ الفنجان.

بعينَيْها الجافتين، المطفأتين، تحدّق روبِرتا كاراكولا في عينَيْ الفتى الناعمتين، الرطبتين. فيقول محاولاً التوضيح: «لا تأخذي الأمر على محمل الإهانة، سيدتي. فأنا لم أمتنع عن شرب الكاكاو نفوراً منكِ، ولكني أريد أن يبقى طالعي سرّاً خافياً حتى عني أنا».

- «الوقوف على طالعك لا يقتضي قراءة الفنجان، لأنه مرسوم على وجهك: شاعرٌ أنت، والشعراء لا يحسنون البلاء في الحروب».

يفقد نارسيسو زمام نفسه، يفقد لونه، يهبّ واقفاً، يكبح جماح نفسه لئلّا يضرب تلك العجوز المُتعقّنة على رأسها، تلك التي تزجّ أنفها في ما لا يعنيها. وباستياء يقول لناندو إنه سوف ينتظره خارجاً، يستقلّ الشاحنة السلفرادو، ويشغّل مُكيّف الهواء، والكاسيت، ويهدّئ من رفيف أهدابه التي يُقدّر طولها بالكيلومتر، ويغمض عينَيْه البديعتين نصف إغماضة، ويحاول ألّا يفكّر في أيّ شيء. فلا يستطيع.

***

تفوح رائحة بول، وحساء، وأسمال بالية، ورطوبة، إنها رائحة السجن.

t.me/qurssan

في هواء الرواق المعتم تتلاقى أنفاس ولعنات السجناء المئة والثلاثين، المُكدّسين في عشرين زنزانة. مئة وثلاثون زوجاً من الرئات، تتنفّس داخل مستطيل واحد من الأوكسجين الراكد الذي تنتقل خلاله عدوى السلّ، والزهري، والسعار، والجنون، من رجل إلى آخر، من زنزانة إلى أخرى. تُسمَع صيحة الحارس المُطوّلة، التي تشبه العواء: «أين هو فيرنيلي؟».

وفي الحال يسري الخبر همهمةً من زنزانة إلى أخرى، عَبْر الزنازين كافة، ويحلّق من فمٍ إلى فم، ويغدو شائعة تسترعي انتباه النزلاء نهار ذلك اليوم: الإفراج عن فيرنيلي، الشهير بلقب الشيوعي. إنه الشخص نفسه الذي وصل إلى السجن منذ عامَيْن، فأفرط في الثرثرة وأقرّ بكلّ شيء. تعرّض للضغط فوشى برفاقه وسلّمهم: وكان ذلك هو الثمن الذي دفعه مقابل حياته.

أُطلِق عليه لقب إجرامي هو الشيوعي، بسبب أو من دون سبب، فقد لا يكون شيوعيّاً. ليس هناك من يصدّق أنه تاجر سلاح، إذ يبدو بالأحرى قاتلاً مأجوراً. قاتل حتى النخاع، من أولئك الذين يعملون لحساب أنفسهم، ويتحمّلون الخطر وحدهم. أو ربما كان من الجماعات شبه العسكرية. أو جماعات حرب العصابات، أو الجماعات المناهضة لها. يعلم الرّب إلى أيّها ينتمي. أو ربما كان مُتورّطاً فيها جميعاً، في آن واحد، أو بالتناوب.

أُدين بسلسلة من الاتهامات، وعلى الرغم من ذلك سوف يُطلَق سراحه. ها هو ذا يخرج طليقاً لأن أحدهم اشتراه في الخارج. شخص ما، واسع النفوذ، اشترى حريته. يدور الحديث عن مليون. يُقال إن صحيفة سوابقه قد اختفَت مقابل مليون، وأخلَت السلطات سبيله.

لم يعوزه المال قطّ، الأمر الذي يعرفه الجميع لأنهم رأوه بأعينهم وهو يدفع مقابل الحصول على الامتيازات في السجن. كان يتلقّى التمويل من أحد السادة، ربما هو نفسه الذي يخلّصه من السجن الآن.

أمّا الشيء الذي لم يتمكّن أولمان فيرنيلي من شرائه بالمال فهو

t.me/qurssan

الودّ، والرفقة. أمضى عامَيْن في السجن متقوقعاً على نفسه، وحيداً، كالجرذ. لم يكتسب أصدقاء، لأنه لم يثق بأحد. لم يختلط بأحد، ولم يهدر وقته على جنس البشر.

لم يتلقَّ زيارةً من امرأة قطّ. ولا حتى أمه، والأمّ لا تخذل سجيناً واحداً، مهما بلغ من الخسّة، مهما بلغ من الدناءة. أما فيرنيلي فلم يُعرَف له أقرباء، ولا أحبّاء، ولا أصدقاء. حتى العاهرات اللاتي يدخلن إلى السجن لبيع أجسادهن أبَيْنَ الاقتراب منه، ظناً بأنه قد يصيبهن بالعدوى: فمن شاركَته الفراش خيّم عليها الحزن مدى الحياة.

لا تحدّث إلى أحد، ولا أجاب عن شيء، ولا وجّه كلمة لأحد. فلم يُسمَع فيرنيلي إلّا وهو يقول بعض الأمثال، من آنٍ إلى آخر، إن لم يجد من ذلك بدّاً. لم يتكلّم إلّا بالمأثور والشائع من القول. إذ لم تكُن له مخيّلة تُمكّنه من الحديث، بل كان يكتفي بترديد ما ابتُكِر بالفعل. أو ربما كان يمسك عن إرخاء الزمام للسانه كي لا يسبر أحدهم أغوار نفسه. ربما كان التفسير أن «مقتل الرجل بين فكّيْه»، و«لسانك حصانك».

يعوي الحارس مُجدّداً: «أين هو فيرنيلي؟».

وفي جوف الرواق تتولّد خُطاً ماضية إلى الأمام في غير عجل، في خطٍّ مستقيم، إلى باب الخروج. لا يُرى الشخص نظراً لغياب المصابيح، ولأن النوافذ المُغبّشة لا تسمح بنفاذ الضوء. يتحرّك صاحب الخطا في العتمة كالشبح الأسود. فارع القامة، نحيلها. وعلى وقع المطاط يدرك السامع أنه ينتعل خفّاً من ذلك الذي يُستخدَم على الشاطئ. جاء وقع خفّه مُتمهّلاً، زاحفاً، على الرغم من معرفته بوجهته.

يمرّ الرجل من أمام الزنازين المُتراصّة على الجانبَيْن، زنزانة أمام الأخرى، يمنةً ويسرةً. ومن بين القضبان تمتدّ أذرع خفية كفروع الأشجار ليلاً، تتلمّسه، تجذبه من ثيابه. وتُسمَع أصوات الظلال التي تعزف النغمات نفسها بلا أمل، تلك التي يُسمَع صداها كلما أُطلِق سراح أحدهم: «لا تنسَنا وأنت في الخارج».

t.me/qurssan

- «اترك لي تذكاراً، أنا الذي كنتُ لك رفيقاً وفيّاً. أيّ مبلغ من النقود، الراديو الصغير، الدلّاية...».

- «أعطني الغطاء، أنا صديقك الدائم».

فلا يسمعهم، ولا يتأثّر بأكاذيبهم. يمرّ وسط بحرٍ من الأذرع، والتوسّلات، من دون أن يحير جواباً، ولا أن يلتفت إلى أحد. لا يودّع باقي النزلاء، لا الجرذ المجنون، ولا ذا الدم البارد، ولا الحمل الوديع، ولا الساحرة الشمطاء. بل إنه لا يميّز أسماءهم: ذو الدم المجنون، والحمل البارد، والساحرة الشقراء، والجرذ الوديع، سيّان عنده. حتى السجناء المُخنّثون الذين يتودّدون إليه: لُولا، وكاترين، ومارغاريتا، بأصواتهم الرفيعة، وحواجبهم المرسومة، وجواربهم النيلون، وهيئتهم الأنثوية المشروعة. يهدرون وقتهم معه، وهو الذي لا تحرّكه النهود الحقيقية، فما بالك بتلك الزائفة.

يتجاهلهم في لا مبالاةٍ تامّة، بوجهٍ خالٍ من التعابير. يستفزّه أحدهم: «ماذا فعلتَ حتى يطلقوا سراحك؟ هل سلّمتَ أمّك؟».

فلا يحير جواباً.

- «مع من أنت إذاً، جماعات حرب العصابات، أم الجماعات شبه العسكرية، أم القتلة المأجورين؟».

فلا يحير جواباً هذه المرّة أيضاً، بل يتركهم وهم يتحرّقون لهفةً للوقوف على حقيقته، إلى الأبد.

وأخيراً يصل إلى باب الرواق. فيقترب من الحرّاس ويمدّ يمينه لختمها بختم الخروج. على ساعده يحمل وشماً جاء فيه: «الرّبّ والأم».

يخرج السجين ذو الخفّ المطاطي إلى الباحة، فتبهره شمس الشتاء الكالحة. فارع القامة، دميم الملامح، شعره أشقر ضارب إلى الرمادي، بلون التبن، خفيف، ولحيته قليلة الكثافة.

t.me/qurssan

ينظر إلى السماء المبيضّة، ثم يخرج منديله ويمسح عينَيْه. كانت عيناه ملتهبتين، حمراوَيْن، بفعل التهاب الملتحمة المزمن الذي يملؤهما بالدموع الثخينة. يُبرِز قطّارة سيليستون-S، ويضع قطرة واحدة في كلّ عين، ثم يمسحهما بالمنديل من جديد.

يقطع الباحة من دون أن ينظر إلى طابور السجناء الذين يترقّبون حصّتهم من الطعام المائع، وكلٌّ ممسك بصحنه. يصل إلى سياجٍ آخر، فيضع حارسٌ آخر ختماً على ذراعه التي تحمل الوشم، ثم يسمح له بالمرور.

يبلغ فيرنيلي مذبحاً مُرتجَلاً، تحترق فيه الشموع. يجثو على ركبتَيْه أمام عذراء الرحمة، ويغمض عينَيْه المصابتين نصف إغماضة، ويتضرّع إليها طالباً الموت قبل العودة إلى ذلك المكان. يردّد الصلوات التي يتلوها جميع السجناء لدى إطلاق سراحهم، فلا يضيف إليها كلمة، ولا ينتقص منها كلمة. حتى حديثه إلى السماء قد أُعِدّ مسبقاً.

يقطع بعض الأراضي الخلاء، أراضي الملاعب الرياضية، حتى يصل إلى البوابة الأخيرة، المفضية إلى الشارع، إلى الحرية. لا شيء يحول دونه ودون المرور، لأن تُهَم القتل، والتهرّب من الجندية، والتآمر، وتنفيذ الهجمات باستخدام المُتفجّرات، وحيازة الأسلحة غير المشروعة، والابتزاز، والاختطاف، كلّها أُسقِطت بمعجزة، أو برشوة. ضاعت صحيفة سوابق، فسقط الذنب. وإذا الرجل بريء وبقاؤه في السجن غير مشروع.

تُرَدّ له بطاقة تحقيق الشخصية وحقيبة أوراق وحذاء من الجلد. يفضّل ألّا يبدّل الخفّ المطاطي. يسأله الحارس الأخير مستهزئاً: «فيرنيلي، يدفعني الفضول إلى سؤالك عن الحرفة أو المهنة أو الوظيفة التي ستشغلها في الخارج؟».

- «شيء جديد، بالتأكيد».

أمام بوابة السجن تنتظره سيارة مرسيدس بِنْز على أحدث طراز. ينظر أولمان فيرنيلي إلى الجدران الأسمنتية العالية مرةً أخيرة،

t.me/qurssan

وفي غير حماسة يلقي وداعاً إلى غير شيء بصفة خاصة، وإلى غير أحد على وجه التحديد. يقول: «إلى اللقاء، يا أصدقاء».

ويقطع الشارع مجرجراً خفّه، ويستقلّ المرسيدس، ويمضي.

***

يشرق الفجر على المدينة، وفتىً في عمر المراهقة لا يزال نائماً في غبش حجرته الخانق. إنه أركانخِل بارّاغان، الشقيق الأصغر لناندو بارّاغان. يحلم بسحلية إغوانا زرقاء تراقبه من داخل كرة مضيئة من البلّور. على الرغم من الأسر، لا تضيق الإغوانا الزاحفة، ولا تحاول الهرب. تبقى داخل الكرة، في راحة وهدوء، وتنظر إلى الخارج في تسليم.

ينبطح أركانخِل على بطنه فوق الفراش، مغطّى بالملاءة. نبضه بطيء وأنفاسه تكاد تكون غير محسوسة، فيبدو فاقد الوعي أكثر منه نائماً، يبدو هارباً من الحياة. مثل الإغوانا التي يحلم بها، تحيط به فقاعة داخلية، هادئة، معتدلة، بمعزل عن عالَم اليقظة، لا تبلغها حرارة الغرفة الموصدة.

يتسلّل شعاع وحيد عَبْر شقوق المصاريع، فيتساقط على خصلة من خصلات شعره ويضيئها. لبشرته لونُ العسل وألَقه. يخترق أذنَه قرطٌ صغير من الذهب. يتساقط ظلّه على الوسادة، في غاية الرهافة، في غاية النعومة، حتى إنه قد يبدو ظلّ طفل، أو امرأة.

يتحرّك الفتى المراهق، ويبدّل وضعه حتى يستلقي على جنبه، فتنزلق الملاءة وتسقط أرضاً. والآن يبدو عارياً، سابحاً في الهواء، تحيط به هالةٌ من البريق النابع منه وكأنه كائنٌ ساقط من السماء، يكاد يتهدهد على وقع أنفاسه. على ذراعه اليمنى ضمادة، ومن عنقه يتدلّى صليب له عودان أفقيان، إنه صليب كاراباكا، كذلك الذي يعلّقه ناندو.

الحجرة أكبر من أن تكون مُجرّد مخدع، مزدحمة بالأثقال، وأجهزة التمارين، وفي أحد أركانها تقوم دراجة ثابتة وقائم كرة سلة. أضف إلى ذلك أربعة أجهزة پينبول، ساطعة، ألوانها زاهية،

t.me/qurssan

تراصّت الواحدة إلى جوار الأخرى بحذاء الجدار.

تدلف إلى الحجرة امرأةٌ مُتّشحة بالسواد بعد أن خلعَت حذاءها عند عتبة الباب لئلّا تُحدِث صوتاً. تجاوزَت الثلاثين عاماً، ولكنها لم تبلغ الأربعين بعد، لها عينان قاسيتان وحواجب كثّة.

- «قيل في الحيّ إنها كانت نسخة طبق الأصل من إيرينيه پاپاس، المُمثّلة اليونانية».

لا تتفوّه بكلمة أبداً، فهي خرساء. إنها «الخرساء بارّاغان»، خالة ناندو وأركانخِل.

- «يُقال إن الخرساء لا تتكلّم عزوفاً عن الكلام، لا عجزاً».

يُقال الكثير عن الخرساء، لأن صمتها لا يُحتمَل. إذ يجدونه عدوانياً، استعلائياً. لا يحبّ الناس أولئك الذين لا يبوحون بأسرارهم، أولئك الذين لا يعترفون بمواطن ضعفهم، وهي امرأة من الجرانيت، قادرة على احتمال العذاب من دون أن تشكو، أو تجبُن، أو تلوذ بأحد، كائناً من كان.

- «يُحكَى أنها لم تتمالك نفسها ذات مرة، فبكَت على كتف حبيبها آنذاك».

- «كذب. لم يكُن لها رجل قطّ، لأنها تحزّمَت مدى الحياة بحزام العفّة، المُوصَد بالقفل والمفتاح دوماً».

- «ومن أرغمها على ذلك؟».

- «لم يرغمها أحد. بل إنها هي التي قرّرَت أن تصون عذريتها بالحديد».

- «ومن الذي يحتفظ المفتاح؟».

- «لا أحد. فهي التي أوصدَت القفل بيدَيْها، ثم ألقَت بالمفتاح في المرحاض، ثم شدّت ذراع صندوق الطرد».

- «زد على ذلك أنها لم ترتدِ الثياب المُلوّنة قطّ. ولا البيضاء، ولا

t.me/qurssan

حتى الرمادية».

لا ترتدي الثياب المُلوّنة أبداً. وهي في ذلك صارمة شأن باقي نساء آل بارّاغان. فهنّ مُتشحات بالسواد على الدوام، منذ شرعن في دفن رجالهن. وإن بدَت على ثيابهن لمعةٌ خضراء من فرط ما استُخدِمَت. كان التقليد يقضي بالحداد عاماً على كلّ فقيد، ولكن قبل انقضاء العام كان يسقط قتيل آخر، وهكذا كُنّ مثل السجناء المحكوم عليهم بعقوبات طويلة الأمد، فحياتهم لا تكفي لقضائها.

تدخل الخرساء إلى حجرة ابن أختها، فلا تحسّ بالحرارة الكثيفة الرطبة التي تراكمَت فيها ليلاً. ثوبها الأسود درعٌ تحتمي به من المشاعر والأحاسيس، مثله كمثل حزام العفّة.

تجثو إلى جوار الفتى النائم وترنو إليه طويلاً. حتى إنها تمكّنَت من سبر أغوار حلمه من فرط ما رنَت إليه: فترى سحلية الإغوانا الزرقاء داخل كرة البلّور. تعلّمَت الخرساء منذ أمد بعيد قراءة أحلام الآخرين، وصارت لها القدرة على رؤيتها كمن يشاهد فيلماً سينمائيّاً.

تحدّق الخرساء بعينَيْها إلى ابن أختها، بحواجبها الكثّة، وأهدابها الطويلة، وعينَيْها المستغلقتين كالأسرار، القاسيتين كالدّيّان إذا قضى بلا رحمة. كانت عيناها تبصران كلّ شيء، ولا تفصحان عن أيّ شيء.

- «أيّ شيء قد يخفى على الخرساء، بنظرتها الثاقبة؟».

- «يُقال إنها قادرة على الرؤية من خلال الجدران، ولذا فهي مُطّلعة على أسرار الآخرين».

تراقب المرأةُ جمال الفتى السماوي، وتترك الوقت يمضي. تتأمّل ذلك الجسد الشاب، الصقيل، النضر للغاية، طوال خمس دقائق، عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة. تراه ساكناً، خاوياً، وقد هجره ساكنه وحلّق على ارتفاع شاهق، في حلم بلا وعي ولا ذكرى، بعيداً جدّاً عن ذلك الفراش، عن تلك الحجرة، عن هذا العالَم. تمدّ الخرساء يدها وتربّت على ظهره، وهي تكاد لا تمسّ بشرته

t.me/qurssan

العسلية.

ثم إنها تقوم، وتخرج، وتعود حاملةً صينية عليها فنجان من القهوة، وقارورة مُطهّر، وقطن، وضمادة، وشريط لاصق، وقارورة من الدواء. تفتح نافذتَيْ الحجرة المُطلّتين على باحة داخلية، وتهزّ كتف أركانخِل لتوقظه، وتناوله القهوة. أما هو فيقول بصوت لا يزال ذائباً في قاع حلقه: «ليلةَ أمس حلمتُ بأنك تتلمّسين جسدي».

«كلّا»، تهزّ رأسها نافية، ثم تفكّر: «بل إنك حلمتَ بسحلية الإغوانا».

يتناول أركانخِل القهوة مُسرنَماً، مغمض العينَيْن. وحين يفرغ من تناولها، ينزع الضمادة عن ذراعه، حيث أصيب بعيار ناريّ ترك في ذراعه جرحاً لم يُشفَ بعد. ومرة أخرى تجثو الخرساء على ركبتَيْها إلى جوار الفراش، منصرفة إلى مهمّة تضميد جرحه، الذي تنظّفه بحيوية، في غير كلفة. تطهّر الالتهاب بالقطن والجفت، وترشّه بماء الأوكسجين، ثم تفرك اللحم المصاب كمن ينظّف بلاط الأرضية من البقع.

وتحت وطأة الألم يفيق الفتى كليّاً، فيئنّ ويضحك ويصرخ، ويعيق خالته ممسكاً بمعصمها، ثم يضحك مُجدَّداً، ويستسلم لهيمنتها، وهي التي تفوقه قوة، وتكبّل حركته بتصميم راعي البقر الذي يسِم الماشية.

يندى جبين أركانخِل ألماً بسبب الوخزات التي يحسّ بها في ذراعه، أما خالته فتناوله ملعقة من الدواء وتجفّف عرقه بمناديل مُبلّلة بالكحول. يقول لها: «طهّري الجرح أكثر مما فعلتِ يا خرساء، وإن آلمني، حتى يُشفَى».

ولكنه لا يروم لجرحه شفاء. بل إنه على استعداد أن يمدّ لها ذراعه طوال النهار، ويتحمّل الألم الحارق، ما دامت قريبة منه. يتمنّى لو امتدّ عذابه اليومي الصغير، كم كان يلذّ له، كم كان يحتمله، ما دامت لا تبعد عنه، ولا تفلته من بين يدَيْها. لا يريد أن

t.me/qurssan

ينتظر إلى اليوم التالي، لحين إقامة الطقوس مرة أخرى، بالقطن ومُطهّر الجروح، حتى تمسّه يداها مرة أخرى. يتحقّق من تحسّن الجرح من دون بهجة، ويخشى ألّا تعود كلّ نهار كي تمسح جبينه بالمناديل المُبلّلة بالكحول إذا التأم الجرح كليّاً.

- «يا للهول! ذلك الصغير المدعو أركانخِل واقعٌ في غرام خالته. ولهذا لم تعجبه امرأة سواها».

- «بلى، كُنّ يعجبنه. فله عدّة عشيقات يطارحهنّ الغرام، فتيات من الحيّ، موضع ثقة، من عائلات معروفة. بل إن الخرساء هي التي تأخذهن بنفسها إلى الحجرة، ثم تقفل الباب عليهن مع أركانخِل، لأن الخروج من هناك محظور عليه لدواعٍ أمنية، نزولاً عند أوامر ناندو، الذي يحرص على أركانخِل أكثر مما يحرص على حياته هو نفسه. ولا سيما بعد الهجوم الذي تعرّض له».

أُصيب أركانخِل بجرح في ذراعه منذ ثلاثة أشهر، إثر هجوم وقع في العاصمة، خلال درس الهندسة في إحدى الجامعات الخاصة التي بعثه إليها ناندو لإبقائه بعيداً عن الحرب والتجارة. ذات يوم، قال له فجأةً، بينما هو يتناول صحن الفاصولياء: «ادرس وأعدّ نفسك. عِش بعيداً. فلتكُن لك حياةٌ غير هذه الحياة. سوف تكون ذكيّاً. أما نحن، الباقين، فالهمجية نصيبنا».

ومن دون أن يوضح له أكثر مما فعل، من دون أن يسأله رأيه، بعثه إلى العاصمة مع رجلَيْن ائتمنهما على حراسته ليل نهار. ظلّ أمر الرحلة سرّاً لئلّا يُعرّض للخطر، والتحق بالجامعة بهوية مُزيّفة، وشهادة مُزوّرة، إذ لم يكُن قد أنهى دراسته الثانوية بعد، وصدرَت أوامر قاطعة بأن يظلّ بعيداً عن أيّ شخص قد يتعرّف عليه، وأيّ امرأة تسعى إلى علاقة غرامية.

ولمداراة قسماته المثالية، أُرغِم على حلاقة رأسه -ما لم يسفر إلّا عن إبراز قسماته- ووضع نظارة عدساتها غير طبيّة. وبفضل المبلغ الشهري الذي كان يرسله إليه ناندو، عاش أركانخِل -الذي بات اسمه المستعار أرماندو لوپيرا- محاطاً بالرفاهيات، وإن خيّمَت عليه برودة الجبل والوحدة المطبقة التي لم تواتِه الجرأة على

t.me/qurssan

كسرها لئلّا يعرّض نفسه للخطر.

وعلى الرغم من التدابير الاحتياطية اللامتناهية، فلقد كشف آل مونسالبيه أمره ونفّذوا عملية كان الغرض منها اغتياله. ولكنهم فشلوا في إصابته ساعة إطلاق النيران، لأن طالباً آخر وقف بينه وبينهم من دون عمد، فتلقّى أكثر الطلقات، وبذل حياته بدلاً من حياة شخص لا يعرف حتى اسمه. لم يبقَ من الواقعة إلّا خبر نُشِر في صفحة الحوادث في اليوم التالي، وجرح في ذراع أركانخِل، والصدمة التي تركَت بصمتها في روحه إلى الأبد، تلك التي جعلَته يشتهر بأنه طفل أثيريّ ساذج.

اضطُرّ الصغير إلى مغادرة العاصمة، والعودة إلى المدينة، ونسيان الدراسات الجامعية إلى الأبد. ونسيان الحياة الطبيعية. بلغ حرص شقيقه الأكبر على إبقائه حيّاً ونظيفاً من القشّ والغبار حدّاً جعله يفرض على أركانخِل العزلة في أكبر حجرات البيت وأصعبها على البلوغ، تحت الرعاية الدائمة للخرساء. وأرسل في شراء أجهزة الألعاب لئلّا يدركه الملل، وأجهزة التمارين للحفاظ على لياقته البدنية، ولا سيما لتقويم العيب الغريب الذي لحق به بسبب الهجوم (فضلاً عن الحيرة التي استحوذَت على روحه): أي السير على أطراف أصابعه، وكأنه يتجنّب الاحتكاك بالأرض.

أركانخِل يمتثل لأوامر ناندو بحذافيرها، شأنه في ذلك شأن باقي أفراد العشيرة. فلا يخطر على باله التشكيك فيها، دع عنك عصيانها. إن كلمة ناندو شرعٌ واجب التطبيق. يطلب من أركانخِل أن يبقى حبيساً، فيمتثل. مدفوعاً بالانضباط. أضف إلى ذلك نزعته الطبيعية. فهو يرتاب في العالَم الخارجي المفتوح ارتياباً يليق بحيوانات الغابة، ولا يلتقط أنفاسه هادئاً إلّا في غبش جحره.

يؤدّي التمارين: رفع الأثقال، والضغط، ورمي كرة السلة، بحركات متطابقة، متتالية، عنيدة، مرة تلو أخرى تلو أخرى، حتى يصل إلى خمسين مرة، ثم مئة مرة، ثم يبدأ من جديد: اكتسب ذلك الروتين المُتكرّر المهووس، الذي تلوذ به الحيوانات الحبيسة في

t.me/qurssan

أقفاصها لقتل الوقت واللهفة.

تعدّ الخرساء طعامه بيدَيْها وتحمله إلى حجرته في أوقات غير منتظمة، كلما حسبَت أنه قد يكون جائعاً. أما هو فيأكل قليلاً (لقمتين أو ثلاثاً من كلّ صحن)، ثم يردّ الصينية ويستغرق في نوم خالٍ من الألم، ينكمش ويتمدّد مثل العلكة، نوم لا يملك منه فكاكاً، حتى تصل الخالة وتخلّصه وتوقظه من رقاده.

بات مدمناً على أجهزة البينبول. يقف أمامها ويجذبها إليه كما لو كان على وشك ولوجها. يتحسّسها، يداعبها، يهزّها إلى الخلف وإلى الأمام، يقذف الكرات الزئبقية بدقة، ويتلمّس الذراعَيْن بحرفية، ويحرّك الجهاز على إيقاع خاصرته، ويأخذه كما لو كان شريكه على منصة الرقصة. يتّصل بالجهاز جسداً وروحاً، عند ذاك يتمكّن من الاندماج بالجهاز ليصبحا كائناً واحداً، يحرّكه الزخم نفسه، ويأتي بردود الأفعال نفسها. لا يضايقه الجرح الذي في ذراعه، إذ يسري الخدر إليه، وإلى المخ أيضاً، وهو في تلك الغيبوبة، واقعاً تحت تأثير اللعبة.

على أحد الأجهزة البينبول تظهر صور جندي مرتزق من المناهضين لجماعات حرب العصابات، على عينه رقعة، وله وجهٌ يليق بسفّاح، يزحف عَبْر غابات استوائية ويخوض مستنقعات موبوءة بالملاريا. في حين تظهر على جهازٍ آخر عصابة من الأمازونيات بنهودهن الضخمة المكشوفة، ومطارقهن المُعدّة لتهشيم الرؤوس، وشعورهن التي تبلغ الكاحل، وعيونهن الفوسفورية المُتعطّشة إلى الدماء.

- «ولكن لعبته المُفضّلة، طبقاً لما قيل، هي تلك التي تصوّر حرب النجوم».

لعبته المُفضّلة هي التي تصوّر حرب النجوم. تنطلق الكرات المُفضّضة في الفضاء، بتوجيه من يدَيْه الخبيرتين، فتصطدم بكواكب أخرى، وترتدّ عن النجوم، وتشعل أضواء مجرّة درب التبانة، حتى تبتلعها الفجوات السوداء. يقضي أركانخِل ليالي كاملة مُتعلّقاً بذلك الجهاز، تائهاً في سمائه الصناعية، مُكدّساً

t.me/qurssan

الأربــاح، مُضــاعِفاً النقــاط، مُطلِقـاً دويّ التفجـيرات الصـاخبة والذبذبات فوق الصوتية وقرع الأجراس الإلكترونية.

لا تزوره الفتيـات سـوى لأن الخرسـاء تأخـذهن إليـه كالبضائع المُهرّبـة. تـذهب إلـى حجرته بإحداهن كلّ يـومَيْن أو ثلاثة، مع مراعاة عدم تكرار زيارة الفتاة نفسها أكثر مما ينبغي، لئلّا تنشأ بينـهما المودّة. يعاملهنّ جميعاً بكياسة، ولكن بشرود. لا يحكي شيئاً ولا يسـأل عـن شـيء، ولا حتـى عن الاسم. لا يغويهنّ، ولا يستعجلهنّ، ولا يلمسهن، ولا يعرض عليهن شيئاً. فهو لا يطارحهن الغـرام مـا لم يسلِّمن أنفسهن طوعاً، ويتعرّين بمحض إرادتهن، ويستلقين في فراشه. وإلّا، فلا.

لا يأتيـهن بالشـغف الـذي يشـعر بـه وهـو يلعـب الپينبـول، وإنمـا بالمسؤولية والمثابرة اللتين يمارس بهما التمارين، على ما في أدائه من رتابة. إذا حضرَت فتاة خجولة، لا تواتيها الجرأة على اتخاذ المبادرة، يقابلها باللطف الخالي من الاهتمام نفسه، شأن باقي الفتيات، فيقدّم لها المُرطّبات والكعك المخبوز بجوز الهند ثم يتركها ترحل.

أما في ما عدا ذلك، فلا يُسمَح لأحد باقتحام عزلته. ولا حتى الطبيب، نزولاً عند أوامر ناندو الذي عهد إلى الخرساء برعايته.

- «أليس من الممكن أن تكون هذه تمثيلية من إعداد الخرساء؟ أليس من الممكن أن تكون قد زرعَت الرعب في نفس ناندو من المخاطر المحدقة بأركانخِل، رغبةً منها في السيطرة على حياة الفتى؟».

- «مـن يـدري! الشــيء المُؤكّد أن الخرسـاء كـانت هـي وسـيلة التواصـل الوحيـدة بـين أركـانخِل والعالَم، حبله السرّي الوحيـد، طوال فترة حبسه. تعلّق بها في استماتة، بينما تفانت هي في رعايته. ربما كانت تلك هي الطريقة التي يعبّران بها كلٌّ منهما للآخر عن الشعور بالحبّ الضالّ، الغريب».

ومـع ذلـك، فمـن الـمُؤكّد أيضـاً أن المخـاطر حقيقيـة، وأن العدو

t.me/qurssan

يتربّص به. فالهجوم الذي وقع في العاصمة قد أثبَت لآل بارّاغان أنه ليس من مخبأ يحول دونهم ودون آل مونسالبيه. والحقيقة العارية أن أركانخِل لم يكُن آمناً سوى في عزلة هذه الحجرة، في قلب ذلك البيت الخاضع للحراسة في دائرة محيطها عشرون مُربّعاً سكنيّاً. لأن بيت آل بارّاغان، وإن بدا مطابقاً لباقي بيوت الحيّ، حصن لم يتمكّن آل مونسالبيه من اقتحامه مهما حاولوا.

أما باقي رجال آل بارّاغان، وبضمنهم ناندو، فيمكنهم كشف وجوههم، وفتح صدورهم، والمجازفة بحياتهم، لأن موتهم أمر مفروغ منه. يتقبّلونه باعتباره جزءاً من متاعب المهنة، ومخاطر الحرب. أما إذا تعلّق الأمر بأركانخِل، الأصغر عمراً، الأثير، الوريث، المُقدّر له أن يعيش، فكلّ تدبيرٍ احتياطيّ أقلّ مما يجب، وكلّ الناس محلّ اشتباه. فكلّما زاد حرص ناندو بارّاغان على حياة أخيه الأصغر، زاد إصرار آل مونسالبيه على القضاء عليه.

يروق للفضوليين التطفّل على خصوصيات الآخرين، واختلاق العُقَد حيث لا وجود لها. ربما كانت الخرساء لا تشعر نحو أركانخِل إلّا بالمودّة، ولا ترعى إلّا مصلحته وسلامته. ولو لم يكُن الأمر هكذا، لو كانت تتحرّك مدفوعةً بنواياها الخفيّة، فليس هناك ما يفسّر اختيارها الفتيات بنفسها ثم المضيّ بهن إليه، والعمل قوّادةً لحسابه.

- «قلائل هم الذين صدّقوا حكاية عشيقات أركانخِل، لأن أحداً لم يرَهن في دخولهن ولا في خروجهن».

لم يروهن لأن الخرساء تمضي بهن إلى الداخل سرّاً، عَبْر أحد المداخل الخفيّة المفضية إلى سراديب البيت. تمضي بهن إليه كي لا يبقى وحيداً، كي يعرف النساء، ولا يشبّ منحلّاً.

- «قد لا تعدو علاقة الخالة بابن شقيقتها أن تكون علاقة مودّة سليمة. ولكن، من يدري!».

- «المرء لا يعرف من أمر أولئك الناس شيئاً».

***

t.me/qurssan

يلتقي ماني مونسالبيه بزوجته ألينا خيريكو في الريف لشراء خيول من سلالة پاسو، خيول لها اسم ولقب وشجرة عائلة، تُدلّل كالأبناء، وتُباع أغلى من أحدث طراز من السيارات.

- «كانت ألينا تفضّل أن يهديها زوجها الخيول الأصيلة على أن يهديها المجوهرات، أو الثياب الباهظة».

- «يُحكَى أنه، في عيد ميلادها الرابع والعشرين، منذ خمسة أعوام، قد أهداها مهراً مُرقّطاً من سلالة ملكية، أفضل حيوان من ذوات الأربع شُوهِد في المنطقة. ويُقال إنها لم تتمكّن من اعتلاء صهوته قطّ، لأن آل بارّاغان قد سحروه بتعويذة فأصيبَ المهر بداء الدوامة: وإذا هو بدلاً من السير إلى الأمام يلوي عنقه ويسير في دوائر، تاركاً فجوة في الأرض تحت قوائمه، كما لو كان مثقاباً».

تبدو السماء زرقاء، خالية من السحائب، والطائرات، وكل ما قد يلوّثها. وخلا المكان من صخب الحضر الذي قد يكسر الصمت. تتسلّل رائحة النجيل العذبة المُهدّئة إلى الأنف. ويهبّ النسيم دافئاً حانياً، فيثير في البشرة دغدغةً مفعمة بالبهجة.

ليس في المنظر شيء من صنع الإنسان، عدا سياج من الخشب المُعالَج، أعواده متساوية بالميلّي، وأطرافها مطلية باللون الأبيض. منذ اليوم السادس بعد الخلق، يترامى ذلك الريف بكراً، سهلاً، أخضر، على مدّ البصر، بما حوى من رقع شاحبة، خفيفة، تتساقط عليها أشعة الشمس، ورقع أخرى كثيفة، لامعة، تكسوها الظلال.

- «يبدو منظراً في الجنة».

- «بل إنه يبدو بالأحرى زيّاً عسكريّاً مُموّهاً».

ها هما ماني مونسالبيه برفقة زوجته، ألينا خيريكو، يفترشان العشب العاطِر، فوق الأرض الحارّة، تحت ظلال شجرة قابوق، متعانقَيْن، وحيدَيْن.

t.me/qurssan

يلتقي ماني مونسالبيه بزوجته ألينا خيريكو في الريف لشراء خيول من سلالة پاسو، خيول لها اسم ولقب وشجرة عائلة، تُدلّل كالأبناء، وتُباع أغلى من أحدث طراز من السيارات.

- «كانت ألينا تفضّل أن يهديها زوجها الخيول الأصيلة على أن يهديها المجوهرات، أو الثياب الباهظة».

- «يُحكَى أنه، في عيد ميلادها الرابع والعشرين، منذ خمسة أعوام، قد أهداها مهراً مُرقّطاً من سلالة ملكية، أفضل حيوان من ذوات الأربع شُوهِد في المنطقة. ويُقال إنها لم تتمكّن من اعتلاء صهوته قطّ، لأن آل بارّاغان قد سحروه بتعويذة فأصيبَ المهر بداء الدوامة: وإذا هو بدلاً من السير إلى الأمام يلوي عنقه ويسير في دوائر، تاركاً فجوة في الأرض تحت قوائمه، كما لو كان مثقاباً».

تبدو السماء زرقاء، خالية من السحائب، والطائرات، وكل ما قد يلوّثها. وخلا المكان من صخب الحضر الذي قد يكسر الصمت. تتسلّل رائحة النجيل العذبة المُهدّئة إلى الأنف. ويهبّ النسيم دافئاً حانياً، فيثير في البشرة دغدغةً مفعمة بالبهجة.

ليس في المنظر شيء من صنع الإنسان، عدا سياج من الخشب المُعالَج، أعواده متساوية بالميلّي، وأطرافها مطلية باللون الأبيض. منذ اليوم السادس بعد الخلق، يترامى ذلك الريف بكراً، سهلاً، أخضر، على مدّ البصر، بما حوى من رقع شاحبة، خفيفة، تتساقط عليها أشعة الشمس، ورقع أخرى كثيفة، لامعة، تكسوها الظلال.

- «يبدو منظراً في الجنة».

- «بل إنه يبدو بالأحرى زيّاً عسكريّاً مُموّهاً».

ها هما ماني مونسالبيه برفقة زوجته، ألينا خيريكو، يفترشان العشب العاطِر، فوق الأرض الحارّة، تحت ظلال شجرة قابوق، متعانقَيْن، وحيدَيْن.

t.me/qurssan

- «حكايتهما تشبه المسلسلات، بَيْد أنها لم تكُن مسلسلاً. فلطالما أفسد الخاتمةَ السعيدة شيءٌ ما».

في تلك اللحظة المشرقة المثالية، لا يفكّران في التجارة ولا الحرب، ولا يذكران أحزان الماضي. تغمرهما مشاعر السعادة والحبّ، بل إنهما على أهبة التصديق بأنها سوف تدوم إلى الأبد. تبدو ألينا مشرقة، وقد جدلَت شعرها في ضفيرة تليق بفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وارتدَت ثياب ركوب الخيل. أما الزوج الحنون المتفاني فيهمس في سمعها مُتعهّداً بأنه سوف يمضي اليوم كاملاً برفقتها، ما لم يحدث منذ كانا خطيبَيْن. لا استعجال، ولا أخطار، ولا حرّاس، ولا مدافع رشّاشة. أمامهما الحياة، وخلفهما ماضٍ يعتبرانه قد ولّى، ويسعيان إلى نسيانه، وهما الآن لا يترقّبان إلّا الخَيّال الذي يعرض عليهما الخيول واحداً تلو الآخر حتى يختارا منها ما يروق لهما.

- «كانت الخيول نقطة ضعف ألينا، ولذا كان ماني يهديها واحداً كلّما أراد منها الصفح عنه».

- «كلا. لم تكن الخيول نقطة ضعفها. بل ماني مونسالبيه».

والآن يتهادى أمامهما حصانٌ كستنائي رشيق، يحرّك شفتَيْه وكأنه يتلو صلاة المسبحة، ويبصق الزبد المتساقط من فمه. لا تُعجَب به ألينا: تقول إنه يفتح قوائمه وتحصي عدداً من العيوب الأخرى. بينما يولي ماني انتباهه إلى وداعة الحصان، فيطلب من زوجته أن تمتطيه. يترجّل الخيّال تاركاً لها الفرصة.

- «كان لها صيت امرأة من نساء الأمازون».

- «ولكن الأمر لم يعدُ أن يكون صيتاً. شأن كل ما يتعلّق بهما: واجهة، لا أكثر».

- «ألفَت ركوب الخيل منذ الصغر، برشاقة وأناقة، لأنها نشأت في الريف. يُحكَى أن لذّتها الكبرى كانت ركوب الخيل، أما لذّته الكبرى فمشاهدتها وهي على صهوة الخيل».

t.me/qurssan

تفرض ألينا سيطرتها على الحصان الكستنائي، وتجعله يتبختر بخطاً منظومة، ويرفع رأسه، مستعينةً على ذلك بكعب الحذاء والزمام. غير أنها تصيح في ماني من بعيد: «كلّا. أفضّل الحصان الأصهب».

لا يروق الحصان الأصهب لماني لأن ثلاثاً من قوائمه بيضاء اللون: «وكما يقول المثل السائر: واحد مليح، واثنان أملح. ثلاثة قبيح، وأربعة أقبح».

يظهر الخيّال ساحباً فرساً بديعة بيضاء اللون، ولكن ألينا تأبى حتى النظر إليها. وتأمره، من دون إيضاح: «خذها بعيداً عن هنا».

يأتون إليها بحصان رائع، أسطوري، مهر مُرقّط، مُتّقد بالحيوية، فتيّ، في جبهته نجمة. يتحمّس ماني، وتعتلي ألينا صهوته، فينتصب الحصان، ويتجلّى في عيون ثلاثتهم بريق. «هذا هو حصاننا»، يؤكّد ماني، مقتنعاً، فرحاً.

- «في نهار ذلك اليوم عاشا فصلاً جديداً من فصول قصة قديمة».

قصتهما مع الخيل تعود إلى الماضي. فحين عقدا زواجهما، قطع لها عهداً بالانسحاب من التجارة الممنوعة والحرب الدائرة بينه وبين أبناء العمّ، والذهاب معها للعيش في عزبة، حيث يعتزمان إقامة مزرعة لتربية الخيل، والإنجاب، ومشاهدة الأبناء وهم يكبرون على صهوة الخيل، مثل كائنات القنطور(**) الأسطورية.

ومن أجل الشروع في الوفاء بعهده، ابتاع ماني خمسمئة هكتار من جنة الأرض من أجل ألينا.

- «ذات ليلة حلم ماني مونسالبيه بأجمل عزبة في العالَم بأسره، في قلب الأرض الموعودة، وما كاد يفيق من نومه حتى شرع يفتّش عنها في كلّ أرجاء البلاد، إلى أن عثر على المكان وابتاع بيتاً يطابق بيت أحلامه».

تملّك ماني أرضاً بكراً على ضفاف البحر، يحفّها حزامٌ من الشطآن ذات الرمال الناعمة بيضاء اللون التي ينحدر إليها جبلٌ، تسكنه

t.me/qurssan

قـوارض الأغـوط، والخنـازير البريـة، وقـردة المـيكو والمكـاك، وسحالي الإغوانا، وببغاوات الغواكامايا. كانت غابة أدغال تنمو فيـها أشـجار الكـاراكولي متشـابكة، تلك الأشجار العملاقة التي يصنع منها الهنود قواربهم، فضلاً عن أشجار السامان المزدحمة بالزيزان، وأشجار الكارّيتو ذات الخشب الأحمر المُتحجّر، وأشجار الغواياكان المزهرة، وأشجار البِلاتانيّو بتيجانها الكرنڤالية، ونخيل السـيرا التـي تبلغ مـن الارتفاع نصف كيلومتر، ونخيـل المالايو القزم، ونخيل الپاتورّا، المكتنز، المُحمّل بجوز الهند.

سيل جارف من مياه الثلوج الذائبة العذبة يتدفّق من أعلى الجبل زاخراً بأسماك الشابل والدنيس حتى يصبّ في البحر المستكين الشفّاف. وفي الأعالي، فوق قمة الجبل، حيث تستحمّ الأيائل بنور القمر، والنمر يحوم في جولاته المُسرنَمة، هناك تقع بعض الصـخور السـود التـي تحمـل نقوشـاً سـابقة علـى كريسـتوفر كولومبوس، على تخوم موقع قديم لرفع الشعائر، تضيئه نيران زاهية.

وصل ماني مونسالبيه وألينا خيريكو إلى جنّة عدن هذه التي تقصدها حيتان النرويج بيضاء اللون للقضاء في سلام، وتذهب السلاحف الأبدية التي وسمها علماء البيئة من كاليفورنيا لقتل الوقت، وصلا مثل آدم وحواء، فأقاما على الشاطئ بيتاً يشبه القصـر، أخشـابه زاهيـة، وأسـقفه عاليـة مـن القـشّ، وسـيّجاه بشـــجيرات الجـــهنمية، والخطميـة، والأوركيـد البرّيـة، وزوّداه بخمسين مذوداً من أجل خيولهم الأصيلة.

- «يحكي أولئك الذين زاروا المكان أن تلك المذاود بدَت وكأنها حجرات فندق ثلاث نجوم».

أثّثَت ألينا البيت بمساعدة مهندسي ديكور محترفين، وأشرفَت بنفسها على كلّ التفاصيل، بل إنها أطلقَت على البيت اسماً: عذراء الريح. راحوا يقتنون الخيول رويداً رويداً، ولا يشترون منها إلّا النادر والجدير بالعرض. كانا يسافران معاً إلى أيّ مكان لانتقائها واقتنائها.

t.me/qurssan

كان كلّ شيء مُعَدّاً، فجلسَت ألينا تترقَّب أن يحدّد ماني موعد الانتقال. كانت تقضي الساعات وهي تتخيّل اللحظة التي تبدأ فيها السعادة: أدغال، وأطفال، وخيول، وبحر، وسلام، وماني إلى جوارها، فيعيشان حياة صحية في تلك القطعة من السماء المُسمّاة عذراء الريح.

كانت تحلم بالخيول النبيلة البديعة نهاراً، ثم تقضّ مضجعها الكوابيس ليلاً، كوابيس تسكنها فرسٌ تنبثق من قلب العتمة، مهتاجة، سوداء، عمياء، من دون خيّال، تنقضّ عليها ثائرة، جوعَى، وبحوافرها تقوّض الجدران التي تأويها. وقد بلغ بها الرعب من الزيارة الليلية لتلك الفرس المُروّعة مبلغاً جعلها تأبى أن يشتري لها ماني المزيد من الأفراس، في عناد مُتطرّف وضع حدّاً لتكاثر الخيل في عذراء الريح، وفي خاتمة المطاف سلّم زوجها بالأمر على اعتباره نزوة تستوجب الاحترام، وإن كانت عصيّةً على الفهم.

ظلّ ماني مونسالبيه يرجئ موعد النقلة الحياتية، ويطلب منها أن تتفهّم، موضحاً أن عليه ترتيب الأمور حتى يتهيّأ له الانسحاب. لم يكُن ذلك بالأمر السهل المنال، فحاولَت ألينا أن تتفهّم وتترقّب.

كان كلّما أبلغها بالخبر التعيس قائلاً إن الوقت لم يحِن بعد، أرسل إليها العشرات من الورود ليخفّف شعورها بالاستياء، فتنسّقها في المزهريات على مضض، وترضى بذلك بعض الرضا.

وفي تلك الأثناء، نزلا في سكنٍ فاخر، يبعد خمس عشرة دقيقة عن مركز المرفأ. كان ذلك اتفاقاً مُؤقّتاً، حتى إنها لم تفرغ محتويات الحقائب، لأنهما على وشك الذهاب في أيّ لحظة. ولذا تحمّلَت من دون شكوى وصبرَت على الزحام الدائم للحراس والرجال المُسلّحين الذين كانوا يتحرّكون دخولاً وخروجاً كما لو كان بيتهم، وينامون على أرائك الصالون تاركين الرشاشات في أرجاء المكان، ويلتهمون الطعام أكواماً، ويتبوّلون في أصص النباتات، ويلعبون الداما في الشرفات التي كانت تخرج إليها كي تأخذ حمّام الشمس. كانوا يظهرون كالطيور المشؤومة، فيسلّمون

t.me/qurssan

الرسائل، ويطلبون الأوامر، ويجلبون المشاكل، كلّما دار في خلدها أنها قد وجدَت اللحظة التي تقضيها وزوجها على انفراد.

- «كان يُطلَق عليهم الحرّاس، أو الفتيان، وإن كانوا في واقع الأمر عصابة من القتلة المأجورين. من السوقة والصلفاء. كانت أليِنا تمقتهم، وهي لا تدرك أن زوجها نفسه على شاكلتهم».

كانت أليِنا تعزّي نفسها مُفكّرةً أن الأمر برمّته سوف يتبدّل، وكانت تتحمّل فترات المزاج العكر التي يمرّ بها ماني، ومواعيده وأسفاره غير المُتوقّعة وساعات سكوته المُطوّلة، التي تخمّن فيها ذكريات وقائع مُروّعة خاضها ولم يحكِ لها شيئاً.

كانت أليِنا خيريكو تتحلّى بالصبر لأنها مسألة أيام، لأنهما بمُجرّد أن يرتّب ماني أموره سوف يلوذان بالفرار من ذلك العالَم الذي تكثر فيه التهديدات، ويطوّقه الموت، حيث لا خصوصية ولا سكينة، عند ذاك يبدأان الحياة الجديدة معاً، وحدهما، الحياة الحقيقية، الحب الحقيقي.

- «كما قلت، حكايتهما مسلسل لا يبلغ الخاتمة السعيدة البتّة».

- «كانت اللعنة المُحيقة بأولئك الناس أنهم يحلمون بالجنّات، ويجعلونها واقعاً، ولكنهم في ساعة الجدّ لا يقدرون على التنعّم بها».

بعد مضيّ بضعة أعوام من التأجيل أدركَت أليِنا أن موعد الانتقال لن يأتي أبداً. كانت تتحسّر بقولها: «ها قد ذهبَت عذراء الريح أدراج الريح».

حينئذٍ كان يرفع من روحها المعنوية، ويجري الحسابات، ويعدّ الأيام، ويقطع العهود، ويرسل إليها بكميات خيالية من الورود. ولإقناعها بأن الأمر بات حقيقة في هذه المرة، كان يأخذها لشراء حصانٍ جديد، يرسله في وقت لاحق إلى العزبة حتى يبقى في انتظارهما برفقة باقي الأحصنة، حيث يروّضها مُدرّبٌ محترف يتقاضى راتباً عالمياً حتى يجعلها وديعة كالحملان، ترقّباً لليوم المُؤجّل دوماً، يومَ يذهب المالكان لركوب الخيل.

t.me/qurssan

وهناك، أخذ البيت يطعن في العمر قبل أن يُفتتَح، بما فيه قطع الأثـاث التـي مـا زالـت لـم تُكشَف عنها الأغطيـة، والجـاكوزي، والمسبح شبه الأوليمبي الـذي لـم يخُضه أحدٌ قطّ، فضلاً عن حيوانـات الغابـة، وغـدير الماء العذب، والمُدرّب، وفريق مُدبّري المنزل الكامل.

هكذا كانت الحال إلى يومنا هذا. حتى مطلع هذا النهار الأزرق الـذي سيتبدّل فيـه كلّ شـيء، وتتحـقّق الأحـلام، ويـرى مـاني مونسالبيه زوجته فوق صهوة المهر المُرقّط، على شطآن عذراء الريح. كان ذلك القسَم المُقدّس الذي قطعَته له زوجَته ذات فجر، منذ أيام، حين تعهّدَت بأن تهجره متى حبلَت، قد استحوذ عليه وعذّبه، وراحَت أصداؤه تتردّد في دخيلة نفسه، مؤلمة، مروّعة، دبقـة، مثـل أغنيـة الساعة. وهو الآن على استعداد لأن يأخـذها للعيش في الريف، ويوفّر لها حياةً غير هذه الحياة، وينجب منها ابناً، فكلّ شيء أهون من فقدانها.

جالسـاً علـى السـياج المصـنوع مـن جذوع الأشجار، على حافة مرعى الأمهار، يدرك أن الوقت قد حان للسيطرة على زمام ذلك الحصـان الجـامح، حصـان قـدره. يـراقب زوجتـه. يراها جميلة، قوية، واثقة من نفسها على صهوة المهر الذي يشبّ على قائمتَيْه الخلفيّتين، ويلمس فيها قدرتها على الوفاء بأيّ عهد. يقتنع بأنه ليس في حياته ما يفوقها أهمية. ويتحلّى بالشجاعة لاتخاذ القرار المهم.

«إما الآن وإما فلا»، هكذا يفكّر ماني، في عزم. «ذلك المهر ذو النجمـة فـأل خـير. مكتـوب علـى جبـهته المُرصّعـة بالنجمـة أمرٌ بالانسحاب من المعركة، قبل فوات الأوان».

- «كان الأوان قد فات، ولكنه لم يدرِ بعد».

- «لطالما كان الوقت متأخّراً بالنسبة له، ولهم جميعاً».

في اللحظة نفسها، حين يقرّر ماني مونسالبيه أن يسلك طريقاً غـير الطـريق، فـي اللحظة نفسها، تقترب سيارة جيب، تقتحم

t.me/qurssan

المنظر، وتكسر الصمت والسلام، وتبثّ الذعر في الحيوانات، وتهشّم سحر النهار. وتفجّر نواياه الحسنة كما لو كانت فقاعات صابون.

يترجّل من السيارة الجيب تين پويوا، ذلك الفتى الهزيل، القصير القامة، المفرط النشاط، اليقِظ. إنه الذراع اليمنى لماني، وموضع ثقته، الذي يتولّى أهم شؤونه بكفاءة، بدءاً بانتقاء الورود من أجل ألينا حتى تصفية شريك مخادع.

يقضي تين پويوا حياته مشدود الأعصاب، مُتعجّلاً، وكأنه موصول بتيار الكهرباء. يترجّل من السيارة الجيب من دون أن يبطل المُحرّك، ويخاطب ماني بكلمات متسارعة، فيكاد لا ينهي عباراته، وكأنه لا يجد مُتّسعاً من الوقت. يقول: «ماني، أرسلني إخوتك حتى أخبرك بأنهم في انتظارك».

يتحوّل ماني دفعةً واحدة، وإذا هو رجل حربٍ وصفقات. تنمحي شفتاه تاركتين فمه وقد صار خطّاً واحداً، وينمحي الهلال المطبوع على وجهه، وينفصل تلقائيّاً عن الريف، والخيل، والسماء الزرقاء، والأهداف السليمة، والحب، والمستقبل.

ترى ألينا السيارة الجيب من على مسافة، فتخمّن كلمات تين پويوا، وتوقف الحصان بحدّة، وفي ثانية واحدة تتحوّل من السعادة إلى الجزع، ومن الامتنان لزوجها إلى الاستياء، بحدّة أيضاً، وتترقّب أن يبلغها الخبر الذي تعرفه مسبقاً، شاعرةً بالمرارة. يصرخ فيها ماني بصوته الآخر، العلني، صوت الشاب المسؤول الإداري في الجريمة المنظمة: «ألينا، عليّ أن أذهب».

فتجيبه هي بجرسٍ من جليد: «أعرف».

وتعرف أن الشخص الذي يتكلّم إليها الآن لا يستحقّ الشكوى، ولا السباب، ولا المطالبة بتفسير لما يجري، ولا البكاء. يقول لها: «اقتني الحصان الذي يعجبكِ. ولو شئتِ، فاقتنيها جميعاً. عمتِ نهاراً. امتطي الخيل كما يحلو لك. السائق والسيارة في انتظارك لتعودي متى شئت».

t.me/qurssan

يستقلّ الرجلان السيارةَ الجيب ويغيبان عن الأنظار وسط أشجار الخرّوب التي تحفّ الطريق. وفوق صهوة الحصان، جامدةً وسط مرعى الأمهار، بضفيرتها التي تليق بفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وثوب المرأة الأمازونية، تبقى ألينا بلا حياة، مُتيبّسة، عبثية، وكأنها دمية عرض ما عاد لها استخدام، يلقي بها مالكُ المتجر على الرصيف حتى يلملمها جامعو النفايات.

***

من بين الإخوة مونسالبيه الثلاثة عشر، ما زال سبعة على قيد الحياة، يجتمعون في المرفأ، في بناءٍ مملوكٍ لهم، مُربّع منيع من الرخام المُرقّط، مُؤلّف من خمسة طوابق، شرفاته مُزوّدة بالهوائيات اللاسلكية والزجاج الداكن العاكس: كان بناءً هائلاً حديثاً، أُقيم على طراز لم يُرَ له مثيلٌ في أيّ وقت مضى. وفي قلب الحيّ العتيق بما فيه من بيوتٍ تزيّن بساتينها أشجار التمر الهندي، وتتراصّ على أبوابها الكراسي المُتأرجِحة المضفورة من الخيزران، هناك يقوم المقرّ الرئيسي لآل مونسالبيه، زاعقاً، كنغمة نافرة آتية من عالَم آخر.

- «يبدو وكأنه بناء مُخصّص للمكاتب، غير أنه حصنٌ مُصفّح، اكتَظّ بجيش جرّار من المُسلّحين إلى حدٍّ جعلنا نطلق عليه الثكنة».

أطرق ستةٌ من الإخوة، جلوساً حول مائدة من الزجاج على قوائم مطليّة بالكروم. كانوا جميعاً من ذوي البشرة الخضراء والقسمات الحادة، من كبيرهم إلى صغيرهم، وكلٌّ منهم يرتدي قميصاً كاريبياً، وحذاءً بكعب، ويحمل مُسدّساً تحت إبطه، ويرتدي سروالاً فضفاضاً، ويضع حول أصابعه الخواتم المُرصّعة بالماس، وحول عنقه ومعصمه سلاسل الذهب. وعلى رأس المائدة جلس رجلٌ فظّ، لزج، له وجنتان بارزتان، وخدّان غائران، ورأسٌ مُتوّج بشعر مُجعّد، سرى إليه الشيب. يدخّن تبغاً رائحته نفّاذة ودخانه كثيف. إنه فريبي، الأخ الأكبر.

أما سابع الإخوة مونسالبيه فواقفٌ على أعتاب المكتب، مُتّكئاً

t.me/qurssan

على حافة الباب، يحتسي شراب كولا رومان من القنّينة مباشرة: إنه ماني. يرأس الاجتماع ولكنه لا يجلس إلى الطاولة، بل يحافظ على المسافة بينه وبينهم. يتزعّم العشيرة، ولا يخالطها. يختلف عن إخوته في التحرّكات، والحديث، والثياب: يرتدي سروالاً «جينز ليفايس»، وحذاء رياضياً «نايك»، وقميصاً مفتوحاً، ويعلّق الدلّايات من عنقه. لا يستعرض غراماً واحداً من الذهب على جسده. في الصغر كان يهزأ بتلك الفظاظة البدائية التي اتّسم بها إخوته، أما في الكبر فأصبح ينمّي الاختلافات بينه وبينهم، على اعتبارها وصفة فعّالة لتعزيز سطوته.

اليوم يشعر بالضيق، يشعر بأنه في غير محلّه. حضر إلى الاجتماع بعد أن بدأ، مُبرّراً تأخيره بذريعة شخصية.

تأخّر لأنه كان يقتني حصاناً، على حدّ قوله. فوجئ باقي إخوته لدى سماعه، بل إنه هو نفسه فوجئ بما قال، فلا سبب شخصيّاً يكفي للتغيّب عن لقائهم، دع عنك أن يكون السبب حصاناً.

ولكن ماني شرد في أمور أخرى، وهام ذهنه في طرق داخلية حيث تداهمه الدوافع الشخصية. النصف الأيمن من مخّه يتابع المناقشة، أما الأيسر فمنصرف إلى ألينا خيريكو، وقَسَمها المُتوعّد، والمهر المُرقّط ذي النجمة المطبوعة على جبينه، ذلك الذي لم يقتنياه، والأرجح أنهما لن يقتنياه.

- «تكمن نقطة ضعف ماني في زوجته، ولكن إخوته لا يعلمون».

يرونه مُتردّداً، تائهاً، لم يعُد مُتألّقاً حيوياً كما في سابق عهده. مضَت أيام وهم يقولون خلف ظهره إنه لم يعُد الشخص الذي كانه في ما مضى. لطالما قبلوا بزعامته على الرغم من كونه خامس الإخوة في الترتيب العمري، لأنه يعرف كيف يضاعف الأموال، ولأنه أثبت قوّته في الحرب على آل بارّاغان، حتى الآن. أما حسّ مندوب الإعلانات الذي بدأ يكتسبه، فلا يتفهّمه إخوته ولا يقدّرونه، وهم من أنصار الذكورية الخشنة، القحّة، ما يدفعهم إلى اعتبار أسلوبه من مظاهر الضعف أو النعومة.

t.me/qurssan

على حافة الباب، يحتسي شراب كولا رومان من القنّينة مباشرة: إنه ماني. يرأس الاجتماع ولكنه لا يجلس إلى الطاولة، بل يحافظ على المسافة بينه وبينهم. يتزعّم العشيرة، ولا يخالطها. يختلف عن إخوته في التحرّكات، والحديث، والثياب: يرتدي سروالاً «جينز ليفايس»، وحذاء رياضياً «نايك»، وقميصاً مفتوحاً، ويعلّق الدلّايات من عنقه. لا يستعرض غراماً واحداً من الذهب على جسده. في الصغر كان يهزأ بتلك الفظاظة البدائية التي اتّسم بها إخوته، أما في الكبر فأصبح ينمّي الاختلافات بينه وبينهم، على اعتبارها وصفة فعّالة لتعزيز سطوته.

اليوم يشعر بالضيق، يشعر بأنه في غير محلّه. حضر إلى الاجتماع بعد أن بدأ، مُبرّراً تأخيره بذريعة شخصية.

تأخّر لأنه كان يقتني حصاناً، على حدّ قوله. فوجئ باقي إخوته لدى سماعه، بل إنه هو نفسه فوجئ بما قال، فلا سبب شخصيّاً يكفي للتغيّب عن لقائهم، دع عنك أن يكون السبب حصاناً.

ولكن ماني شرد في أمور أخرى، وهام ذهنه في طرق داخلية حيث تداهمه الدوافع الشخصية. النصف الأيمن من مخّه يتابع المناقشة، أما الأيسر فمنصرف إلى ألينا خيريكو، وقَسَمها المُتوعّد، والمهر المُرقّط ذي النجمة المطبوعة على جبينه، ذلك الذي لم يقتنياه، والأرجح أنهما لن يقتنياه.

- «تكمن نقطة ضعف ماني في زوجته، ولكن إخوته لا يعلمون».

يرونه مُتردّداً، تائهاً، لم يعُد مُتألّقاً حيوياً كما في سابق عهده. مضَت أيام وهم يقولون خلف ظهره إنه لم يعُد الشخص الذي كانه في ما مضى. لطالما قبلوا بزعامته على الرغم من كونه خامس الإخوة في الترتيب العمري، لأنه يعرف كيف يضاعف الأموال، ولأنه أثبت قوّته في الحرب على آل بارّاغان، حتى الآن. أما حسّ مندوب الإعلانات الذي بدأ يكتسبه، فلا يتفهّمه إخوته ولا يقدّرونه، وهم من أنصار الذكورية الخشنة، القحّة، ما يدفعهم إلى اعتبار أسلوبه من مظاهر الضعف أو النعومة.

t.me/qurssan

يهتمّ ماني بتلميع صورته ومواكبة العصر. فوجاهة القاتل بدأت تبعث فيه شعوراً بالضجر، لأنها تحول دونه ودون ارتقاء السلم الاجتماعي، وتنذر بإبعاده عن ألينا خيريكو. لقد وقع في حبّها لأنها لا تشبه نساء عائلته في أيّ شيء من جهة، ومن جهة أخرى لأنه عرف بالبداهة أن تلك الجميلة، ابنة الطبقة المُتوسّطة، صاحبة الشهادة الثانوية، ستكون مفتاحه إلى عوالم أخرى. ولكنه يدرك أن ذلك وحده لا يكفي، وأنه في حاجة إلى إدخال تغييرات وتعديلات على أسلوبه الشخصي. ولذا فهو يقلّب الفكرة في رأسه منذ عامَيْن، فكرة غسيل الأموال وإنشاء واجهة تضفي على تجارتهم شيئاً من المشروعية، شيئاً من الإقناع، وتفتح لأسرته أبواب المجتمع.

يحاول ماني تسلّق المرتفعات، أما أبناء عمّه وأعداؤه، آل بارّاغان، فيمشون في طرقات مستوية. ما زالوا يشبهون أنفسهم، في جميع الأحوال، في الفقر والثراء، يعيشون في الحيّ نفسه، وفي البيت نفسه، ويأكلون الفاصولياء نفسها، الفاصولياء ذات الرؤوس السود، ويمضون عكس اتجاه السير دوماً، نساؤهم مُتّشحات بالسواد، وأطفالهم غلاظ، ورزم الدولارات محفوظة تحت مراتبهم. إنهم عشيرة منغلقة على نفسها، جاءت من أقاصي الصحراء، كائنات غريبة، مخلصون للمعتقدات المُتوارَثة، غرباء عن محيطهم دوماً، عدوانيون وغريبو الأطوار في نظر الآخرين دوماً، مهما جرى في باقي أنحاء الكون.

- «هكذا كان ناندو، وهكذا كانوا جميعاً».

أما ماني فلا. فهو يريد الاندماج بعالَم حديث، حضريّ، حيث يجري العنف والعمل غير المشروع تحت الأرض كما تجري المياه القذرة في المصارف، أما على السطح فتلمع حفلات الكوكتيل، وسترات السموكينغ، والاتفاقيات التي تجمعه بالقيادات العليا في الجيش وتعمّ عليهم بالفائدة المشتركة، والنساء الجميلات اللائي ينفقن ثروة على الثياب، والمعموديات التي يقيمها رؤساء الأساقفة، والصداقات الوثيقة بينه وبين الساسة البارزين، والمكاتب الجديرة بالإعجاب التي يشغلها مُوظّفون من ذوي

t.me/qurssan

اليـاقات البيضاء اللون، والاستثمارات المُتدفّقة في الجمعيات المفتوحة والحصرية.

أما الجزء الأشقّ على ماني في أحجية التحوّل، فهو الحرب على أبناء العمّ، إذ كانت تلك هوّةً لا قرار لها ولا مخرج منها، تستهلك أغلب ما له من أدرينالين، وأعصاب، وأرباح. زد على ذلك أنها تضع آل مونسالبيه في مهبّ أخبار الصحافة الصفراء، ما يجعلهم محطّ الأنظار ويحرمهم من التكتّم الضروري لإدارة شؤون تجارتهم السرية. كانت الحرب الدائرة رحاها بين الأشقاء تنفّر الشركاء المحتملين، والأصدقاء الجدد، والجيران في الحيّ الراقي، والمديرين، والنواب، والمحافظ، وكاهن الأبرشية الذي يصمهم بالعار من مكانه على المنبر.

- «تتحدّث الصحف المحلية عن حرب قذرة، عن مذبحة، عن وحشية ليس لها ما يبرّرها. كُنّا، أهل الحيّ، نفتح الصحف بحثاً عن أخبارهم، ونتراهن على القتيل المُتوقّع سقوطه في المرة القادمة. وكانت حكاياتهم تثير قدراً كبيراً من الشائعات، وقدراً كبيراً من النميمة. بَيْد أن الأمر لا يؤرّق نوم آل بارّاغان، وهم الذين درجوا على ذلك وما عادوا يتوقّعون سواه. على عكس ماني مونسالبيه، الذي كان يطمح إلى الظهور في صفحات المجتمع في الجرائد، لا في صفحات الحوادث».

ما زال ماني مُتّكئاً على حافة الباب. ينتهي من الكولا رومان برشفة طويلة، ويذهب إلى الثلّاجة ليتناول أخرى. تزعجه رائحة التبغ الذي يدخّنه فريبي وتكدّر مزاجه، فلا يفلح في مداراة انزعاجه، ويضيق بالتعليقات التي يدلي بها الآخرون لما تنطوي عليه من وحشية وجهل. لا يحتمل أدنى لفتة: لم يسبق له أن شعر بالبعد عن إخوته مثلما شعر به اليوم.

حتى وقتٍ قريب، كانت تجمعه وإيّاهم ضغينةٌ شديدة نحو آل بارّاغان، ويربطه بهم التعطّش إلى الانتقام، في تواطؤ أوثق من صلة الرحم. الكلّ من أجل الفرد والفرد من أجل الكلّ، في شغف بالموت أشدّ اتقاداً من رغبة العروس الجامحة، وأشدّ توهّجاً من

t.me/qurssan

شعلة الحب المضرمة. تلك الضغينة الكاملة التامة مثل الكون، ذلك الغضب الذي يصير أباً وأمّاً، ويبتلع كلّ شيء حتى يغدو هو الوجود الذي لا يوجد خارجه دافعٌ للعيش ولا للموت.

ولكن بينما راح إخوته يتمرّغون في ذلك الهوس الذي استحوذ عليهم، جعل ماني ينأى بنفسه عنهم، شيئاً فشيئاً، من دون أن يتعمّد ذلك أو ينتبه إليه. لم يغفر لآل بارّاغان: كلّ ما في الأمر أنه ما عاد يكترث لأمرهم بالقدر نفسه. يهمل أمرهم من دون أن يكفّ عن مقتهم، كما ينسى المرء حبيبته التي حظي بها في عمر الخامسة عشرة بعد مضيّ الأعوام، من دون أن يكفّ عن حبّها.

يحاول ماني استعادة مكانته أمام الإخوة، على الرغم من شروده في أثناء الاجتماع. فيتدخّل، يدلي برأيه، ينتقد، يسعى إلى فرض السيطرة. ولكن فريبي يعترض طريقه ويضيّق عليه الخناق: فيتصدّر المشهد لاعباً دور الأخ الأكبر، مطالباً بالاعتراف به، مُظهِراً دور القيادة.

يقول فريبي: «خطأ، خطأ، كلّ شيء خطأ».

يمتصّ دخان سيجاره الغليظ. ثم يدلي بحجّته: «لا يكفي خوض الحرب على آل بارّاغان. لا بدّ من الانتصار فيها».

يتلقّى ماني تلميحه على أنه ركلة في ظهره، ولكنه يطأطئ رأسه. لا يجد جواباً: صحيح أنه خاض حرباً طاحنة على آل بارّاغان، ولكن صحيح أنه لم يتمكّن من التفوّق عليهم فيها.

- «ذلك أمرٌ يلائم تلك الأراضي، حيث تدور حروب لا تنتهي يخرج منها الكلّ مهزوماً».

ويلائمهم أيضاً. إذ يتساقط الرجال على الجبهتين، وتسيل الدماء على الجانبَيْن، فلا يمرّ مُتمَمٌ إلّا وأُخِذ بالثأر، ولا يتساقط قتيل إلّا وأُخِذ بدمه. وعلى الرغم من ذلك، لا أحد يخرج مهزوماً ولا منتصراً في الموازنة النهائية. فها هي ذي الحرب تصول وتجول، بلا نهاية، خارجةً عن السيطرة. تُتوَّج الحربُ ملكةً وسيدةً بمرسوم إلهي، ويتعايش وإيّاها جيشا الأقرباء في تسليم، كمن

t.me/qurssan

يعاني عيباً وراثيّاً. ويضعانها في خانة الكوارث الطبيعية. أو وباء الطاعون.

يسأل فريبي ضارباً على المائدة: «علينا أن نضع حدّاً لهذه المسألة فوراً، وإلّا فماذا ننتظر؟».

فيقابله إخوته بنظرات الموافقة.

الانتصار مرّةً وإلى الأبد؟ محو الأعداء ونسيان أمرهم؟ يبدو ذلك لآل مونسالبيه كلاماً معقولاً، بل وفي الصميم. لقد درجوا على حربهم وألفوها حتى إنهم لم يفكّروا في المزايا المُترتّبة على إنهائها. ولكن كيف؟

ماني لا يملك جواباً. فجميع قدراته الحربية تبطلها قوة مساوية لها في الشدة، ومضادّة لها في الشحنة: ناندو بارّاغان. لقد أنفقا حياتيهما في مبارزة حتى الموت، وما زال التعادل بينهما قائماً.

ولكن فريبي يعرف. ويملك الجواب. ويدلي به، فيقترح الاستعانة بجنود مرتزقة.

- «كان فريبي هو أول من اقترح استخدام القتلة المحترفين للقضاء على آل بارّاغان. أما ماني، فلا. ما كان ماني ليجرؤ على الحديث عن القتلة المأجورين. ولكن شتّان بينه وبين فريبي».

قتلة مأجورون. تقشعرّ أبدان الإخوة لمسمع الكلمة، وكأنها خيط من الماء المُثلّج ينساب نزولاً على أعمدتهم الفقرية. فالشيء الصحيح الذي تقضي به التقاليد المُتّبعة حتى هذه اللحظة أن يقتلوا آل بارّاغان بأيديهم. مَن كان غريباً عن العائلة فهو ممنوع من الزجّ بنفسه في المسألة.

بعد الرفض المبدئي، والكثير من الضجيج والحجج المعارضة، يبدؤون في الإذعان، الواحد تلو الآخر. يفكّرون في الأمر مرّتين. إذ لا يخلو العرض من المزايا والمغريات: فهو يعني إمكانية التفرّغ للأعمال القذرة فحسب، وتفويض أطراف أخرى لإنجاز الأعمال المُقزّزة.

t.me/qurssan

يبقى ماني منعزلاً. وحده يرفض، ويسخط، ويجادل ثائراً. يدافع عن قواعد اللعبة القديمة. يقول: «إن آل بارّاغان يراعونها، وعلينا العمل بالمثل».

لا ينصت إليه أحد، فيتوعّد، ويدين، ويوجّه إصبع الاتهام إلى فريپي. على الرغم من علمه المسبق بأنه قد مُنِي بالهزيمة.

يشتمّ فريپي رائحة النصر وينظر إلى ماني كمن يتفضّل عليه. يقول له: «الزمن يتغيّر، يا ماني».

يبالغ في إظهار الودّ والتفهّم كما يليق بالأخ الأكبر، ويوضح له أن: «التقاليد قد عفا عليها الزمن».

يدلي بوابل من الحجج، وثقته في نفسه تزيد أكثر فأكثر: «لم تعُد تلك هي الحرب التي كانت في بادئ الأمر».

ويحذّر: «إما أن نواكب العصر وإما انتهى أمرنا».

وأمام صمت ماني المُستسلِم، يُبرِز فريپي الورقة الرابحة من كمّ القميص. ويُثبِت أنه ليس رجل أقوال. فلقد توصّل إلى الشخص القادر على تدريب وقيادة فرقة من المحترفين مهمّتهم تصفية آل بارّاغان.

إنه خبيرٌ له أعوامٌ طوال من التجربة، أوصى به رفاقٌ يعرفونه. تواصل معه فريپي بطرق غير مباشرة على مدى شهور، ودفع مليوناً مقابل إطلاق سراحه من السجن. وهو الآن هناك، في البناء، يتلهّف للشروع في العمل. يُصدِر فريپي أمره: «أحضِروا الرجل».

يخيّم صمتٌ طويل لا يكسره إلّا ذلك الصوت الزاحف، صوت الخفّ المطاطي الذي يقترب عبر الرواق.

يتنحّى ماني جانباً فيدخل أولمان فيرنيلي من الباب المفضي إلى المكتب.

t.me/qurssan

- «ألم تقرأ روبِرتا كاراكولا، الساحرة المجذومة، فنجانَ الكاكاو الذي شربه ناندو بارّاغان؟».

- «بلى، قرأته، لأنه هو الذي طلب منها ذلك بنفسه».

على ثلاث رشفات، يحتسي ناندو بارّاغان السائل الساخن، ثم يهزّ الفنجان الصغير الذي أمسكه بيدَيْه الهائلتين، برهافة مرتبكة، لئلّا يكسره كالبيضة. ثم يضعه مقلوباً فوق الطاولة، كي تنساب بقايا القهوة على البورسلين، راسمةً دروباً، عيوناً، بحيراتٍ، زوابع، ودون ذلك من الأشكال المُتقلّبة التي ترسُم للمرء خارطة قدره.

- «وماذا قالت له؟».

تنتظر روبِرتا كاراكولا سبع دقائق حتى يسكن كلّ ما ينبغي له السكون، كي لا تحول قطرةٌ سائلة دون الوقوف على كشفٍ جوهريّ.

- «ولماذا سبع دقائق، لا أكثر ولا أقل؟».

- «من يدري لماذا انتظرَت سبع دقائق، بعدد أيام الأسبوع السبعة، وحيوات القطّ السبع، وعجائب الدنيا السبع!».

على مدى سبع دقائق طوال، تترقّب العجوز في صمت، بينما يسمع ناندو صوت نارسيسو وحفيف النسائم التي تجرف النفايات الملقاة على الشاطئ.

وأخيراً تلتقط روبِرتا كاراكولا الفنجان بيدَيْها المنقوصتين، وتقرّبه من عينَيْها الحسيرتين أكثر مما ينبغي، وتراقبه في انتباهٍ جدير بعالِم، وكأنها تفتّش عن ميكروبات في قاع الفنجان. ثم تقول: «إحدى الإجابات لا وجود لها هنا. ما الذي يدفعك إلى الاستمرار في التجارة، ما دمتَ تملك من المال أكثر مما يسعك إنفاقه؟».

فيجيبها ناندو بارّاغان بأن الحرب هي السبب. ويقول إن الاستمرار في تلك الحرب على آل مونسالبيه باهظة جدّاً، وإنه في حاجة إلى الكثير من المال حتى يتمكّن من الحفاظ على

t.me/qurssan

حياته والعناية بذويه.

عند ذاك تمدّ روبِرتا كاراكولا عنقها ذا الحراشف، بلفتة مهيبة تليق بسلحفاة عجوز، وتوصيه وصيةً: «دع عنك تلك الحرب. فلا خير يُرتجَى من القتال الدائر بين الأشقّاء».

يشتمّ ناندو بارّاغان العفن الكريه الآتي من ثنايا البشرة المُمزّقة للمريضة، ويوضح لها أنه لا يستطيع، وأنه قد تلقّى أمراً، وأنه يؤدّي الواجب المُقدّس الذي يفرض عليه الأخذ بالدم.

فتقول له الساحرة، وهي لا تبدي استعداداً لتبديد الكلمات القليلة المُتبقّية لها في هذه الحياة سدى: «إذاً، فافعل ما يجب عليك فعله. ولكن حذار، يا ناندو بارّاغان، إيّاك وطلاء وجهك بالأبيض ما حييت!».

فيجيبها: «تتفوّهين بأمور غريبة. ولماذا أطلي وجهي بالأبيض؟».

- «أَنصِت إلى ما أقول. أتريد معرفة شيء آخر؟».

- «قولي لي كم ابناً سأنجب؟!».

- «حتى أنت لن تقدر على إحصاء عددهم».

- «وكيف أعرف أن أجلي قد اقترب؟».

- «يومَ تعجز حمامتك عن الانتصاب. عند ذاك، اعلم أن أيامك المتبقية ليست كثيرة».

يطلق ناندو بارّاغان قهقهات رنّانة، مغالى فيها، تصل إلى المدينة. يبدو له ما سمعه طريفاً لأنه يشتهر بفحولته الجنسية الهائلة، وكأنه الرجل الأكثر خصوبة في الجنس البشري. ويقول للعجوز بأنه يومَ لا تنتصب حمامته سيكون شيخاً طاعناً في السن إلى حدٍّ يسمح له بالموت في سلام. فتجيبه روبِرتا كاراكولا: «من يدري!».

ويخبو صوتها الواهن، صوت المريضة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، على وقع ضحكة العملاق الهائلة. ثم تأمره: «والآن

t.me/qurssan

***

يتنحّى ماني جانباً فيدخل أولمان فيرنيلي من الباب المفضي إلى المكتب حيث اجتمع الإخوة مونسالبيه، الذين يراقبون الواصل حديثاً من قمّة رأسه إلى أخمص قدمَيه. ربما كانوا يراقبونه في خيبة أمل. يقدّمون له القهوة، ويلاحظون يده المرتجفة التي تسكب القهوة وهو يحتسيها. يقرؤون على ساعده الوشم الذي جاء فيه: «الرّبّ والأمّ». يراقبونه وهو يضع قطراتٍ من الدواء في عينَيه المغرورقتين بالدموع.

- «ومن ذلك اليوم، بدأنا نرى فيرنيلي كثيراً في أرجاء الحيّ، داخلاً إلى الثكنة، وخارجاً منها. لم يكُن فيرنيلي بالرجل ذي الحضور المهيب. على العكس. فرُحنا نسائل أنفسنا عمّا إذا كان ذلك الخائر ذو الأجفان المنتفخة والشعر الخفيف هو القاتل المأجور الشهير حقاً. إذ لم يكُن بالرجل ذي الجرم الضخم، ولا الصدر المشعر، ولا النظرات الباردة الخليقة بالجنود المرتزقة. بل إنه بدا مريضاً، بالحكم على طريقته المحزونة في جرّ خفّه على الأرض وفرك عينَيه».

يجلس فيرنيلي على مقعده من دون أن يتفوّه بكلمة، كما هو دأبه. ينظر إلى الإخوة الأوسع شهرةً في المرفأ بفتور، وكأنه لا يراهم.

- «مِن الجيران مَن حكى أن فيرنيلي كان يلزم الصمت أو يستشهد بالأمثال. يعزو البعض ذلك إلى حصافة الحكماء، أما البعض الآخر فيعزوه إلى البلادة، أو الخمول الذي يمنعه من التفكير بنفسه».

يجلس منصتاً إلى نقاش آل مونسالبيه. يسمعهم وهم يقولون إن مُتقمّاً على الأبواب، ولكنه لا يعرف ما المُتقَم، ولا يعير الأمر أدنى أهمية. يوضحون له إنها ذكرى مقتل إكتور، أحد أشقائهم، وإحياء الذكرى يستوجب الأخذ بالثأر. يذكرون له أسماء الضحايا المحتملين: فمن بين الإخوة بارّاغان الأحد عشر ما زال أربعة على

t.me/qurssan

قيد الحياة. ناندو، الأخ الأكبر، والرجل الصلب. أما الباقون فهم نارسيسو، الشاعر؛ ثم راكا، المُظلِم الذي لا يعرف ربّاً ولا شرعاً؛ ثم أركانجِل، الأخ الأصغر، المُدلّل على يدَي ناندو، الذي تعرّض لإصابة في ذراعه منذ بضعة أشهر، وإن لم تُكلّل محاولة قتله بالنجاح.

ينصت أولمان فيرنيلي إلى توضيحهم كاملاً من دون أن يتدخّل، من دون أن يبدو عليه ما يوحي بنفاد الصبر، أو الحياة. ينصرف تركيزه إلى ألم عينَيْه الملتهبتين، المغمضتين نصف إغماضة، اللتين تحتميان خلف الأجفان الرطبة وتلتمسان التخفيف من الالتهاب. وبعد قليل، حين يظنّ أنه قد سمع ما يكفي، يشير عليهم بقوله: «الموت لنارسيسو».

لم ينطق إلّا بأمر واضح، يراه الباقون جليّاً. ولذا فلا تلبث محاولته أن تُكلّل بالنجاح، ويُصدَّق على قراره بالإجماع: «الموت لنارسيسو، لأنه وغد».

ثم يدلي فيرنيلي بحكمه قائلاً: «الإفلاس أولاً، والقتل ثانياً».

يخيّم على آل مونسالبيه الذهول في تلك المرة، فهم يرون ضرورة قتل نارسيسو أمراً جليّاً لأنه رجل مُتبجّح، ومُتعطّر، وهدف سهل المنال. أما اقتراح فيرنيلي، بمنطقه الأجنبي، فشيء مختلف: إذ يقترح تصفية نارسيسو لأنه هو الذي يتولّى أمر النقود، وقوائم العملاء، ووسائل التواصل...

- «الإفلاس أولاً، والقتل ثانياً».

يردّد الإخوة مونسالبيه عن اقتناع، هائمين بذلك الاتفاق الذي أجمعوا عليه. يستأذن فيرنيلي من دون حماسة ولا إلهام قائلاً: «إلى اللقاء يا أصدقاء».

ثم يخرج من هناك لدراسة الهدف ووضع مُخطّط الهجوم.

***

كُنّا نعرف بيت آل بارّاغان من الخارج وحسب. ونظراً لأننا عشنا حياتنا كاملة في الحيّ نفسه، كان بإمكانهم التعرّف علينا،

t.me/qurssan

والسماح لنا بالمرور من أمام البيت، والسير في منطقتهم أو الجلوس على الرصيف لتبادل أطراف الحديث. لأنهم هم الذين كانوا يحرسون الحيّ. إذ عهدوا إلى رجالهم بتمشيط المنطقة ليل نهار. كانوا يتركوننا في سلام، أما الغرباء فلا يسمحون لهم بالاقتراب.

سادَت الفوضى حيّنا، بعد أن كان هادئاً، باعثاً على الضجر. وبات صوت الرصاص يدوّي في اللحظة الأبعد عن التوقّع، بوم، بوم، بوم، فيخرج الجميع إلى الشارع للوقوف على ما يجري، طراخ، طراخ، طراخ، ومَن الذي سقط قتيلاً. تضرّرت بيوت كثيرة بسبب حرب آل بارّاغان على آل مونسالبيه. ذلك أن كلّ قتيل، وكل اشتباك، يترك أثراً كالندبة في شوارع حيّنا، فكبرنا ورأينا في تلك الآثار فصولاً هي الأهمّ في تاريخنا المحلّي.

حتى الأمكنة المُقدّسة والشخصية لم تنجُ من الأذى، وصارت مسرحاً للجريمة هي الأخرى. إذ تعرّض رجلٌ من آل بارّاغان يُدعَى إلبينسيو لهجوم داخل كنيسة الأبرشية، وأمسى المذبح مُرصّعاً بتسع رصاصات. أما الرصاصة العاشرة، الأشد انتهاكاً للمُقدّسات، فأصابت كأس المناولة. كان ذلك الرجل، إلبينسيو، قد لاذ بالكنيسة ظنّاً منه بأنهم لن يتجرّؤوا على مهاجمة مكان مُقدّس. بَيْد أنهم تجرّؤوا، وأردوه قتيلاً.

تجرّؤوا على كلّ شيء. كان متجر المُثلّجات هو المكان الأثير لدى الفتيان والفتيات، لأن فيه نافذةً كبيرة مُطلّة على الشارع الرئيسي، من حيث يمكن للجالس أن يرى المارّة. فتهشّمَت النافذة بفعل دفقات الرصاص مرّتين في عام واحد، وفي المرة الثانية لم يتحلَّ مالك المتجر بالصبر الكافي لإصلاحه من جديد، فاستبدل به سياجاً من الفولاذ. وفي مناسبة أخرى، نشب حريق في محطة البنزين إثر تبادل إطلاق النار، فلم يبقَ على تلك الناصية سوى أطلال مُتفحّمة. تركَت الأعيرة النارية آثارها في الأرجاء كافة: على الأسوار، وعلى النوافذ، وتركَت آثارها حتى في المنتزه الصغير حيث يجتمع كبار السنّ للعب الدومينو. وعلى مقربة من بوابة المدرسة العمومية، كان عمودٌ مُتداع يذكّرنا باليوم الذي

t.me/qurssan

أطاحت فيه بالعمود سيارةٌ حافلةٌ بآل مونسالبيه لاذوا بالفرار بعد الهجوم الذي نفّذوه.

كثيرةٌ كانت الأضرار التي أحدثها الصراع على مدى الأعوام. فلم يبقَ مُربّع سكني إلّا ووقعَت فيه قصّة دموية. ولقد كثُر تبادل إطلاق النار حتى أطلقنا على الحيّ ناصية النار، ونحن الذين وُلِدنا ونشأنا هناك رغماً عنا. وكان يطلق عليه أهالي باقي الأحياء اللقب نفسه.

كان الفتيان يتلهّون بسرد الحكايات عن مختلف وقائع الحرب الدائرة للزائرين. وكما جرت العادة في كلّ مهنة، تفوّق بعض الرواة على غيرهم: وتميّز أولئك الأقوى ذاكرةً، الذين يضفون على الحكاية ألواناً وتفاصيل، ويتقنون تقليد الأصوات على أكمل وجه، أصوات الرصاص المُنهمِر من المدافع الرشاشة، وصرير إطارات السيارات. أو أولئك الذين يحسنون تمثيل مشاهد الإصابة بالرصاص بالتصوير البطيء، أو مشاهد القتال ركلاً وطعناً بالسكاكين.

فيتأثّر الزائرون بكلّ ما يسمعون من حكايات. ويرون كلّ شيء بأعينهم، في زيارات مُنظّمة من أجلهم، كما في المتاحف، لمشاهدة مواقع الأحداث المختلفة: «هنا قتلوا رجلاً من آل بارّاغان وهو في طريقه للخروج من جنازة واحد من أشقائه»، هكذا كُنّا نحكي لهم، وهم يدسّون أصابعهم في الفجوات التي تركَها الرصاص على جدار المقابر، أو نقول: «تهشّم ذلك الزجاج إثر الهجوم الذي تعرّض له فُلان»، أو: «كان فُلان في تلك المغسلة حين أصيب بالرصاص».

وإذا حيّنا الآن ثريّ بالتقاليد والفولكلور، بعد أن كان عادياً، كغيره من الأحياء الكثيرة. كان العيش هناك محفوفاً بالمخاطر، فحظرَت الأمهات على أبنائهن اللعب في الشارع، وكان الخوف يسود ليلاً، وعلى الرغم من ذلك، صار لدينا ما نتحدّث عنه، على أقل تقدير. لقد ابتكرنا لأنفسنا مدعاةً للفخر. وكان آل بارّاغان يلعبون دور البطولة في حكاية مذهلة كلّ يوم، حكاية جديرة بأن تُروَى.

t.me/qurssan

لم نحبّهم في واقع الأمر، ولذا لم نعاملهم إلّا في ما ندر. أو بمعنى أصحّ، لم يعاملوننا إلّا في ما ندر. كانوا يحتملون وجودنا، لا أكثر. ربما كان مردّ ذلك هو الشك. فهم لم يثقوا ولا حتى بأمّهم. ومُجرّد السماح لنا بالمرور أمام بيتهم من دون إخضاعنا للتفتيش ليس بالشيء الهيّن. بل وكان يجب علينا الشعور بالامتنان: لأنهم لا يتحسّسون أجسادنا بأيديهم.

أقاموا لأنفسهم نقاط تفتيش خاصة واحتفظوا ببيانات أهل الحيّ في سجلّ الذاكرة. فما كانوا يسمحون بالمرور لأولئك الذين لم يروهم من قبل، أو لا يعرفون أبوَيْهم، أو أبناء عمّهم، أو رفاقهم. كان الحيّ إقليمهم الخاص، وألِفنا تلك الحال. كُنّا نحترم فيهم الهيمنة واليقظة، لعجزنا عن الاعتراض أولاً، ولأن الأمر لم يخلُ من المزايا ثانياً، على الرغم من كلّ شيء: فلا أحد يسرق ولا ينهب ولا يرتكب الجرائم الشائعة الرخيصة في ناصية النار. ولكن الأمر لم يخلُ من العيوب أيضاً: إذ عشنا فوق صفيح ساخن، نترقّب هجوم آل مونسالبيه، أو دفاع آل بارّاغان، الذي كان في بعض الأحيان أشدّ وقعاً علينا نحن الواقفين على الحياد.

كانت نساء آل بارّاغان أشدّ فتوراً من الرجال. كُنّ مُتّشحات بالسواد، يخرجن من البيت للتسوّق، أو زيارة الطبيب، أو الذهاب إلى القدّاس، فيمررن سريعاً، ولا يتوقّفن، ولا يتحدّثن، ولا يثقن بأحد. فبدا الرجال أقل تجهّماً، وإن لم يتميّزوا بالمودّة.

كان بيتهم من الداخل سرّاً مستغلقاً علينا: إذ لم يدخل إليه واحد من أهل الحيّ تقريباً. فنحن كما قلتُ لم نعرف إلّا ما لمحناه خلسةً من خلال النوافذ، ما لم تكُن مُوصَدَة. في بعض الأحيان، والحرب في أوجها، كانت تلك النوافذ تُوصَد على مدى أسابيع، حتى في أوقات الحرّ الخانق.

ولهذا السبب لم يرغب واحدٌ منا في تفويت الفرصة بمُجرّد الإعلان عن زفافناندو بارّاغان ودعوة جميع أهل الحيّ. لم نُرِد حضور الزفاف تقديراً لهم، إذ كُنّا نمقتهم في واقع الأمر، وإنما رغبةً في رؤية ذلك الحصن من الداخل، والتلصّص عليهم عن

t.me/qurssan

كثب. دفعنا الفضول المرَضيّ إلى التعرّف بالمسخ من الداخل. شعر الجميع برغبة في حضور العرض المباشر والبث الحيّ، فلا أحد ينوي ترقّب الأخبار. حتى هذه اللحظة، لم تكُن قد بلغَتنا سوى الشائعات والنميمة التي لم نعرف لها أصلاً، ولم نعرف ما إن كانت أخباراً صحيحة أم افتراءات. ولكن الدعوة سوف تبدّل الحال، وتسمح لنا برؤية كلّ شيء بعيوننا، ونحن جلوس في الصفّ الأول، كما في عروض السينما الافتتاحية.

فوجئنا جميعاً بخبر الزفاف، نظراً لاعتقادنا بأنه لن يتزوّج يوماً. حبلَت من ناندو نساء كثيرات، ولكن واحدة منهن لم تُبدِ اعتراضاً، ولم تبلغ عنه، خوفاً منه.

فحتى أكثر الآباء جرأة ما كان يخطر له أن يشكو إليه الضرر الذي أوقعه بابنته، دع عنك أن يطالبه بالزواج منها، أو يطلب منه نقوداً لتربية الصغير. بالعكس، كانت الفتيات يسارعن بإطلاق لقب عائلتهن على الصغير بمُجرّد الولادة، لئلّا ينتقم آل مونسالبيه منهم لمُجرّد أنهم أبناء زعيم آل بارّاغان. كان لقباً ملعوناً، يُستحسَن الاستغناء عنه.

وفي الوقت نفسه كان رجال الحيّ يضمرون الحسد لناندو، الذي لم يترك عذراء إلّا وفضّ بكارتها، ولا أرملة إلّا وعزّاها، ولا امرأة في العموم إلّا وسعى خلفها.

كان ناندو إذا استطاع نال مراده بالتي هي أحسن، وإلّا فقسراً، أو كيفما اتّفق. ومن ذا الذي يفكّر في الزواج ما دام له حظّ كذلك؟

أما شقيقه نارسيسو، الذي لقّبناه بالشاعر نظراً لما تميّز به من شاعرية وجمال وعطر ذكي، فكان هو الآخر زير نساء، ولكن بطريقة أخرى.

كان ناندو يقنع بأيّ جسد، ما دامَت صاحبته ترتدي تنّورة، القول الذي لا يعدو أن يكون مجازاً، فلا مانع لديه إذا كانت ترتدي جينز، أو بِرمودا، أو سروالاً قصيراً ساخناً، أيّاً كان.

في حين كان نارسيسو أكثر انتقائيةً، يختار أفضل النساء. ما

t.me/qurssan

كانت تروقه منهن سوى العارضات، أو أولئك اللاتي يظهرن في التلفزيون. ما كان يشقّ عليه الإيقاع بهن، لا بالقوة مثلما يفعل ناندو، وإنما برقيّ، مستعيناً بشهرة الفتى الوسيم التي كانت تسبقه، ومظهره الذي يليق بمصارع ثيران، ولباقته. بل وكان يفتخر بالتوفيق الذي يحالفه مع النساء المُثقّفات، الناضجات. فهو لا يقبل بأقلّ من حاملات الشهادة الثانوية، ويفضّل حاملات الشهادة الجامعية. كانت تروق له المحاميات، والطبيبات، والمهندسات، ولكن لا تهمّ المهنة ما دمن يتمتّعن بالجمال. أما الفتيات في سنّ الخامسة عشرة والنساء غير المُثقّفات فلسن له؛ هؤلاء يفتقرن إلى النضج، وأولئك يفتقرن إلى الرقيّ. كان يعتزّ بأنه لا يرضى سوى بالأفضل، أما كلّ ما هو دون ذلك فيزدريه.

على عكس ناندو الذي بلغ من الشراهة حدّاً جعله يلتهم كلّ ما يجد في طريقه. واشتهر في الحيّ بفحولته الجنسية، حتى إن امرأة في الستّين من عمرها قد حبلَت منه. تناقلَت الألسنة أموراً كثيرة وغير مُؤكّدة، بطبيعة الحال. أما الشيء الواضح فهو أنه كان يزجّي الوقت برفقة النساء، ثم لا يُريهنّ وجهه مرة أخرى.

وقد جاء خبر زواجه مفاجئاً لسببٍ آخر، فجميعنا نعلم، أو على الأقل نقول، إن الوحيدة التي أحبّها ناندو هي ميلينا، الشقراء، المومس التائبة التي أبَت الزواج منه. تناقلَت الألسنةُ قصة حبّه اليائس لها، وقيل إن الخيبة التي مُنِي بها في حبّ ميلينا هي السبب في مسلكه مع باقي النساء. إذ كان يثأر في شخوصهنّ لخيبته في حبّ ميلينا.

قالت النساء إن الوحيدة القادرة على الزواج به هي تلك المدعوة ميلينا. ما كُنّا نعرفها، ولا حتى شكلاً، وعلى الرغم من ذلك فقد أصبحَت شخصية معروفة وسطنا. ولذا لم يفهم أحد شيئاً مما يجري حين علمنا أنها لم تكُن هي العروس، بل وزاد الطين بلّة عندما عرفنا من هي العروس: آنا سانتانا، الأبعد عن التميّز بين فتيات الحيّ، والأقل إثارة للاهتمام، والأقل غموضاً. كانت خيّاطة، يقصدها جميع أهل الجوار في بيتها لتوسيع الثياب أو تضييقها، أو لخياطة ثنية الثوب، أو تعديل سروال أو معطف

t.me/qurssan

حتى يبدو على آخر صيحة.

لم تكُن آنا سانتانا هي الأجمل، دع عنك ذلك، وإن لم تكُن هي الأقبح أيضاً. لم تكُن فائقة الذكاء ولا فائقة الغباء. كانت لطيفة، وإن لم تكُن ألطف من اللازم. لم تكُن بدينة ولا نحيلة، بل عادية، كدأبها في كلّ شيء. بعبارة أصحّ، لم يكُن في تلك الفتاة ما يميّزها: فهي قليلة الأهمية، الأقلّ أهميةً بين الفتيات. الشيء المفاجئ أنها لم تكُن حبلى عند زواجها، ولم يكُن الرباط المُزمَع عقده بينها وبين ناندو قسريّاً، بل اختيارياً. ولذا أراد الجميع أن يكون حاضراً في اللحظة التي يقول فيها ناندو بارّاغان: قبلتُ بكِ. أردنا أن نسمع بأنفسنا كي نصدّق. إذ لن يصدّق أحد أنه قد سمح بالإيقاع به حتى يقولها علناً، على مرأى من الجميع.

يومَ ذاع خبر الدعوة المفتوحة إلى الزفاف، تزاحمَت الجارات على بيت آنا سانتانا، التي تبعد عن بيت آل بارّاغان بمسافة مُربّع سكنيّ ونصف. سرى بينهن الامتعاض، لأن الخبر قد باغتهن، وهنّ اللائي يفتخرن بمعرفة كلّ شيء قبل وقوعه. لم يحدث أن اشتبهَت واحدة منهن في وجود علاقة غرامية بينهما، ولم يبدُ عليهما الارتباط حقاً. بل يبدو أنهما قد تعرّفا ذات يوم واتّخذا قرارهما بالزواج بعد لقائهما بأقل من أسبوع. على كلّ حال، حلّقَت الجارات جميعاً إلى بيتها كالدجاجات، مُتعلّلاتٍ بأيّ عذر: «جئتُ أستلم ثوب الكتّان الذي طلبتُه منكِ منذ شهر»، «جئتُ أقترض منكِ قرفة وقرنفلاً». أيّ عذر، ما دام يسمح لهن بالتحقّق مما يجري. فكانت كلّما سُئِلَت أدلَت بالجواب نفسه.

طبقاً لنسختها من القصة، أفاقت آنا سانتانا منذ أيام على أغنية الحصان العجوز. ثم إنها لدى مرورها من أمام بيت آل بارّاغان، يومَ أربعاء البصخة، سمعَت الأغنية نفسها، بأعلى صوت. لفت الأمر انتباهها، نظراً لكونه يوماً مُقدّساً من أيام أسبوع الآلام.

ثم تكرّر الشيء نفسه في اليوم التالي، يوم خميس العهد، فاستجمعَت جرأتها واقتربَت من الباب محتجّةً على ذلك الازدراء. تشجّعَت على قرع الجرس شاعرةً بأن هناك من استخفّ

t.me/qurssan

بمعتقداتها، ولكنّها ما كانت لتجرؤ على ذلك لو طاف بمخيّلتها مَن سيفتح لها الباب. ناندو بارّاغان شخصيّاً، دون سواه. الأسطورة الحـيّة، بلحمـه وعظمـه، فتـح لـها البوابـة وهـو يرتـدي سـرواله الداخلي، ونظارته السوداء، واضعاً السيجارة بين شفتَيْه، متباهياً بالتميمـة المُعلّقـة علـى صـدره. سـألها فـي مودّة كيف يمكنه أن يساعدها. أما هي فغصّت بكلماتها. وفي الحال عدلَت عن فكرة الشكوى، ولبثَت مكانها صامتة، خرساء، وراحت تنظر في ذهول إلى ذلك العملاق بجسده شبه العاري الذي ينتظر منها جواباً عند حافة الباب المُوارَب.

كـرّر عليـها السـؤال مـرة ثانيـة، مـن دون أن يتخـلّى عـن لـهجته الودود. عند ذاك أضاء مصباح عقلها. وهداها الروح القدس بنوره. فخطر لها أن تطلب منه، بصوتٍ خافت، أن يسدي إليها معروفاً ويعيرهـا الأسطوانة لكي تسجّلها. سألها ما إن كانت تروق لها، فأجابته إن تلك الموسيقا توقظها كلّ يوم. اعتذر لها صادقاً وقال إنه سوف يعيرها الأسطوانة. فأخذَتها، ومع أن حديثهما لم يطُل أكثر من ذلك، فلقد وقعَت في حبّه ابتداءً من تلك اللحظة. بل إنها كادت تسقط منكفئة على ظهرها حين قرع ناندو بارّاغان شخصيّاً باب بيتها مُتعلّلاً بحجّة استرداد أسطوانة الحصان العجوز.

وهكذا بدأت قصتهما الرومانسية، وكأنهما في الخامسة عشرة من العمر، على الأقل طبقاً لنسخة آنا سانتانا التي كانت أشبه بروايات الغرام الورديّة، ولا تمتّ للأسطورة السوداء بصلة، أسطورة ناندو بارّاغان الذي لا يهدر وقته في الغزل ولا اللفّ ولا الدوران، وإنما يسارع بقضاء غرضه من النساء مباشرةً. ولأنه لم يروِ نسخته من الحكاية لأحد، كائناً من كان، اكتسبَت حكاية الأسطوانة طابعاً شبه رسمي.

لـم يخـلُ الأمـر مـن الزوّار المغرضـين الـذين عـجزوا عـن مداراة أطماعـهم فـي آنا سانتانا، إذ لم يفُتهم أنها، بفضل تلك الزيجة، سوف تغدو من أصحاب الملايين بعد أن كانت خياطة. كما لم يتخلّف عن زيارتها أصحاب النوايا الحسنة الذين حذّروها من المأزق الذي توشك أن تورّط نفسها فيه.

t.me/qurssan

قصّوا عليها ألف حكاية عن الألف عشيقة اللاتي حظي بهنّ ناندو، وقالوا لها: «لا تحلمي بأن يتخلّى عنهن من أجلك. بل إنكِ سوف تكونين رقم ألف وواحد، وتذكّري أن ربّة البيت تحصل على النصيب الأسوأ». كما أخبروها بشأن الأنشطة غير المشروعة التي يمارسها زوجها المستقبلي، وبشأن الحرب الدائرة بينه وبين الأسرة الأخرى. وذكّروها قائلين: «سيكون أولادك مُهدّدين ابتداءً من لحظة الميلاد. فلن تنعمي لا أنتِ ولا أهلك بدقيقة واحدة من السلام. ستحصلون على كل ما يحلو لكم من النقود، أما السلام والحبّ فلا».

وجاء من بلدة تقع على الساحل المقابل بعض الأقرباء ممّن تجمعها بهم قرابة غير وثيقة بغرض إطلاعها على واقعة غير معروفة. فحذّروها قائلين: «افتحي عينَيْكِ، يا آنا، فهذه ليسَت المرة الأولى التي يتزوّج فيها ناندو بارّاغان». وحكوا لها إنه في إحدى زياراته إلى أرضهم، ولع بفتاة خلاسية عذراء كان والدها يحرسها كما تُحرَس اللآلئ. وكعادته، أراد ناندو بارّاغان أن يجرجرها ويختلي بها تحت أيّ شجرة حتى يطارحها الغرام قسراً.

وإذا والدها بحّار عملاق نُحِتَت عضلاته على مدى عمرٍ كامل أمضاه في استخراج السرطان من قاع البحر. ما كاد يرى الجلف الواصل حديثاً وهو يكاد يسلبه كنزه، حتى وقف في وجهه وهدّده بالقتل. ربما شعر ناندو بالرهبة أمام ضخامة الرجل الأسود، أو لعلّه رأى في عينَيْه المحتقنتين قراره الدفين بأن يذبحه فعلاً، ولذا فبدلاً من قتاله أخرج رزمة مكتنزة من النقود وقدّمها له مقابل خمس عشرة دقيقة يقضيها مع ابنته.

في البدء، زاد الصيّاد سخطاً على سخط، وهمّ بأن ينقضّ عليه كما ينقضّ الوحش الضاري على فريسته، غير أنه في تلك اللحظة لم يقوَ على مقاومة النظر بطرف عينه إلى رزمة النقود التي ما كان هو ورفاقه من الصيادين ليتحصّلوا عليها خلال عام كامل من التجارة في سرطان البحر. فقال لناندو: «قبلت، شريطة أن تتزوّج

t.me/qurssan

ضحك ناندو. فذلك أسخف عرض تلقّاه مدى الحياة. ولكن الضحكة فارقته حين أدرك أن الرجل لن يقبل بأقلّ من ذلك. عرض عليه مضاعفة المبلغ، ما دام لن يقضي معها أكثر من خمس عشرة دقيقة. فتمسّك الرجل صعب المراس بموقفه: «لا أريد أكثر ولا أقلّ، شريطة أن تتزوّج بها».

وفي تلك الأثناء أطلّت الفتاة الخلاسية الصغيرة من خلف أشجار الموز. رآها ناندو فجرى ريقه ولم يملك السيطرة على غريزته. شعر برغبة يائسة في امتلاكها، غير أنه كان في عجلة من أمره، فعليه السفر إلى مكانٍ آخر لعقد صفقة تُقدّر بالملايين، ولكنّه عالقٌ هناك، يهدر وقته في تلك الصفقة التي لا تُصدّق. قال: «مئتا ألف پيسو مقابل عشر دقائق، اتفقنا؟».

فراح والد الفتاة يساومه: «مئة ألف وعقد الزواج».

أدرك ناندو أنه ليس هناك ما يمكن عمله، ولكن أصرّ على أن يلتهم تلك الفتاة مهما كان الثمن، ولذا راح يصرخ نافد الصبر: «حسناً، اللعنة. أحضِروا الكاهن».

فابتسم الصيّاد بكلّ أسنانه، منتصراً. وأعلن قائلاً: «ما زالت أمامنا مشكلة واحدة. لا كهنة في هذه البلدة».

كبح ناندو بارّاغان فورة الغضب الإجرامية التي استحوذَت عليه، وتلفّت حوله، فوقع بصره على جميع أهل البلدة -عجائز وشيوخاً، نساءً وأطفالاً- وقد تحلّقوا من حوله وراحوا يراقبون المشهد في لذّة. كانت وسط المشاهدين راهبتان من كاتالونيا، مُعلّمتان في المدرسة، كلاهما ترتدي ثوبها الأبيض وتعتمر قبّعتها المُنشّاة الكبيرة، كأجنحة النوارس. فأخذ ناندو بذراع كبراهما عمراً، وقال: «نظراً لغياب الكاهن، ستعقد زواجنا قداسة الأم المُبجّلة».

أرادت الراهبة المذعورة الاعتراض ثائرةً، ولكن الأمر فاق ما يحتمله أبناء آل بارّاغان في المعتاد. فأبرز المُسدّس الكولت

t.me/qurssan

كاباتيو من حزامه وألصقه بالنورس المُنشّى الذي تضعه الأخت على رأسها، وحذّرها قائلاً: «زوّجينا فوراً، وإلّا ما تركتُ أحداً على قيد الحياة، ولا حتى قطّاً».

فزوّجَتهما الراهبة كيفما اتّفق لها، واحتفظ والد العروس بنقوده، أما ناندو فألقى بعقب السيجارة، وخلع النظارة الرايبان، وفتح سرواله، وفضّ بكارة زوجته في سبع دقائق ونصف، ثم هجرها في الدقيقة الثامنة، واختفى من حياتها إلى الأبد، منطلقاً على الطريق، في سيارته السلفرادو بلونها الرمادي اللامع.

أصغَت آنا سانتانا مطرقةً، وحين فرغ أقرباؤها من الحكاية أعربَت لهم عن امتنانها لما أخبروها به، وصرفَتهم قائلةً في جفاء: «إن الزيجة التي تُعقَد على يدي راهبة لا يُعتَدّ بها، لا هنا ولا في كفرناحوم(***)».

ثم إنها لم تسمح لهم بالعودة إلى تلك المسألة.

كلّ هذا وأكثر أطلعها عليه وتنبّأ لها به المُهتمّون بسعادتها. ولكنّها صمّت أذنَيها عن كلامهم. ولأنها لم تعدل عن قرارها، فهي إما اطّلعَت على سجلّ خطيبها، وإما لم تحفل بالاطلاع عليه.

وجدنا ذلك في مصلحتنا، فلو ندمَت آنا سانتانا على قرارها لما أقيم الزفاف، ولو لم يتمّ الزفاف لشعر الحيّ كاملاً بالإحباط.

***

ها هي ذي الخرساء بارّاغان، حافية القدمَيْن، مُتّشحة بالسواد، وقد التجأت إلى ملاذها العصيّ على الاختراق، الخالي من الكلمات، وراحت تنفض الغبار بممسحة حمراء عن أجهزة البيينبول وأجهزة التمرين في تلك الحجرة الموصدة، حجرة أركانخِل ابن شقيقتها.

- «لماذا كانوا يطلقون عليها الخرساء بارّاغان، ما دام هذا لم يكُن لقب عائلتها؟ ما دامت هي خالة الإخوة بارّاغان، وليسَت عمّتهم؟».

t.me/qurssan

كانت نساء الأسرة جميعاً يحملن لقب آل بارّاغان، حتى سيبيرينا، أم ناندو وأركانخِل. ومونا، أختهما، تلك المرأة سليطة اللسان التي بها مسّ من الشيطان، مُروّضة الرجال، المسترجلة، التي يُعمَل لها ألف حساب، لأنها نشأت أنثى وحيدة بين أحد عشر ذكراً، فضلاً عن زوجات الإخوة، وبناتهم، والخرساء نفسها، وخالتان أخريان.

- «كلّهن حبيسات في البيت الكبير، مُتّشحات بالسواد، لا يرغبن في معرفة أيّ شيء عن العالَم الخارجي. في الحيّ كُنّا نطلق النكات، ونقول إنه عبارة عن حريم للنساء، وكرٌ للساحرات، قِنّ للطيور المشؤومة. ما كان يخطر لأيٍّ منّا الوقوع في حبّ امرأة من آل بارّاغان، ولا حتى المحاولة، وهُنّ أيضاً ما كُنّ يلتفتن إلينا. كانت العجائز قد يبسن من فرط الأسى ومن فرط الولادة، أما الفتيات اللائي هُنّ في مقتبل العمر فقد جعلَت الحرب منهن أحجاراً. ولم يتبقَّ لهن من الوقت متّسعٌ حتى يصِرن من النساء، ولا الأمهات. كُنّ باردات، عقيمات. أو هكذا رأيناهن، على أقل تقدير».

كان الرجال هم الآمرون الناهون خارج الأبواب، أما في الداخل فقد هيمنَت النساء. كُنّ يتحمّلن بعضهن بعضاً وسط تعايش مُتوتّر حافل بالخلافات المستترة في سعيهن إلى تحقيق النفوذ المنزلي، وبمشاعر الغيرة التي يعجزن عن مداراتها في سعيهن إلى استمالة الرجال.

- «في ناصية النار، لا شجار إلّا وبات عامّاً، مهما بلغ من الخصوصية. قطع العلاقات الغرامية، والضرب الذي تتعرّض له الزوجات على أيدي أزواجهن الغيورين، بل وحتى الاختلاف على مباراة كرة قدم كان ينتهي بفضيحة ويذيع خبره في الآفاق. وعلى الرغم من ذلك، فلم نتمكّن يوماً من الوقوف على النزاعات الدائرة بين نساء عشيرة آل بارّاغان».

إنها ضغائن حميمية، سرّية، لا تتفجّر مفضيةً إلى مشاحنات مفتوحة قطّ. يشتمّ المرء رائحتها في الهواء، وإن لم تكُن مُعلَنة، ثم تتلاشى في المواقف الخطيرة وكأنما بفعل السحر. فما دام

t.me/qurssan

الهدف هو الدفاع عن رجالهن وأطفالهن، تتحرّك نساء آل بارّاغان كما يتحرّك الجسد الواحد: متناسياتٍ كلّ خلاف. وعلى الرغم من ذلك فالخلافات موجودة، وشديدة. وكلّ امرأة منهن جنرالٌ ينافس من أجل تحقيق النفوذ الداخلي.

يُقال إن الممسكة بمقاليد السلطة هي سيبيرينا، العجوز، الأم، العمود الفقري للعشيرة. ولكن الحقّ أن كلّ واحدة من النساء تهيمن على إقليمها بطريقتها الخاصة. كما أنها تفرض السيطرة على أحد الرجال.

سيبيرينا تملك ناندو، ابنها الأكبر. ويبلغ حبّها نحوه من القوة والشدة حدّاً جعلها تتسلّط عليه وتُطبق على أنفاسه بذلك الحبّ المحموم. أما من جانبه فهو لا يحرّك إصبعاً من دون أن يرجع إليها أولاً، ولكنه يثور في وجهها من آنٍ إلى آخر، في فورة غضب هادرة تليق بمراهق مُتمرّد، على الرغم من سنوات عمره التي تكاد تبلغ الأربعين.

- «يرى الناس أن زواجه المفاجئ من آنا سانتانا لا يعدو أن يكون رغبة في غرز شوكة في حلق سيبيرينا».

أما مونا، الوحش الطليق، الأخت التالية بعد ناندو مباشرة، فتبدو وكأنها قد صُنِعَت على صُورَتِه كَشَبَهِه. إنها صورة حيّة له، وإن كانت أقصر قامة، وترتدي التنانير. وعلى الرغم من اسمها، فقد خلا رأسها إلّا من الشعر الأسود. إذ لم يُطلَق عليها لقب مونا لأنها شقراء، وإنما لوجه الشبه بينها وبين القردة(****). فرضَت مونا سيطرتها على راكا، الأخ قبل الأخير، ومن شابه أخته ما ظلم: فهما حتى وإن اختلفا شكلاً، يتشابهان في المزاج والميول. كان راكا نسخة طبق الأصل منها، بل وأشرّ. بطريقة لا يمكن تصوّرها.

وطبعاً لا ننسى الخرساء -المستغرقة في ذاتها مثل أسلافها الهنود، الحبيسة في قفص العذرية والصمت- ولا ننسى علاقتها بابن أختها أركانخِل، تلك العلاقة المثيرة للفضول.

- «ما كانت الخرساء تسمح لأحد بالاتصال بأركانخِل أو التقرّب

t.me/qurssan

منه. باستثناء العشيقات اللاتي كانت تأخذهن إليه بنفسها».

ما هكذا كانت تجري الأمور، بل إن أركانخِل له صديقٌ عزيز، عريف في الجيش يُدعَى غييرمو ويلي كينيونيس. بدأت صداقتهما منذ عام، وينمّيها الشابّان بزيارات أسبوعية يجريها كينيونيس، وتتحمّلها الخرساء.

- «إذاً، فها هو ذا شخص آخر يُسمَح له بالدخول إلى محبس أركانخِل...».

أجل. ذلك العريف، غييرمو ويلي كينيونيس، الرجل الوحيد الذي يدخل إلى بيت آل بارّاغان وإن لم تجمعه بهم صلة رحم. في زياراته، يحمل إلى أركانخِل أعداداً قديمة من المجلة الحربية «سولدير أوف فورتيون» على سبيل الهدية، حتى يتسلّى بها، كما يترجم له المقالات الواردة فيها، لأن كينيونيس يفهم الإنجليزية، بخلاف أركانخِل. ينفقان ساعات في الحديث عن الأسلحة، والعمليات الحربية، وقوات الكوماندو الخاصة، والمرتزقة. قرّب بينهما الشغف بالعنف الذي لا يمارسه أيٌّ منهما. وفي مرات أخرى يؤدّيان التمارين البدنية معاً، أو يجلسان في صمت لسماع أسطوانات «پينك فلويد». يفتخر كينيونيس بأنه يحفظ كلمات الأغنيات عن ظهر قلب، ويترجمها لصديقه.

- «وماذا عن الخرساء؟ هل سمحَت بتلك الصداقة؟».

لو لم تسمح بها لما نشأت تلك الصداقة، لأن ذبابة واحدة لا تحلّق في غرفة أركانخِل من دون إذنها.

- «قيل في الحيّ إن الخرساء، التي لا صوت لها، هي صاحبة الكلمة الأعلى في البيت».

تتحكّم الخرساء في دقائق التفاصيل التي لا غنى عنها، تلك التي لا يقدر أحد على العيش من دونها. إذ تدير الخرساء ستّ صبايا يعشن في الباحة الخلفية الأخيرة، ويتولّين أداء الأشغال المنزلية.

t.me/qurssan

يُطلَق عليهن صبايا، وإن كُنّ في واقع الأمر كالجواري، ينمن على مراتب من القشّ ويعملن مقابل الطعام. تتراوح أعمارهن ما بين التاسعة والرابعة عشرة من العمر، وهنّ بنات أسر فقيرة لم تقدر على إعالتهن، فأهدتهن إلى آل بارّاغان، وصرن ملكاً لهم كالبغال والدجاجات والكراسي المتأرجحة في الرواق.

وفي صدارة الكتيبة المُؤلّفة من الصبايا، تتولّى الخرساء الأشغال المنزلية الهائلة في بيت هذه العائلة الكبيرة. تنصاع الجواري الصغيرات لأدنى إشارة تبدر منها. وتعلّمن تفسير معنى الأمارات المرتسمة على وجهها والأوامر التي تمليها بيدها. كانت كلّ الإعدادات العملية في بيت آل بارّاغان، الذي هو حصن أكثر منه بيتاً، رهناً بالخرساء. فلو لم تتسوّق الخرساء لما أكل أحد. ولو لم تنظّف لابتلعهم الوسخ. ولو لم تدفع فواتير التليفون والماء والكهرباء، لانقطعَت الخدمات عن البيت. ولو لم ترغم الصغار على ملء الدفاتر بالحروف الساكنة والمتحركة لشبّوا جهلةً بالقراءة والكتابة، ولما انزعج أحد الكبار لهذا السبب.

تعثر الخرساء على القميص من أجل الأول، وحزام الذخيرة من أجل الثاني، ودواء السعال من أجل الثالث. تنظّف الفتيان، وتدسّ السمّ للصراصير، وتنصب الشراك للفئران، وترقّع الجوارب، وتلمّع الأحذية، وتسقي نباتات البستان، وتشذّب أشجار الفاكهة، وتتأكّد من توفّر معجون الأسنان في حمّام الرواق، وتأمر فلاناً بتناول الحليب، وتنهى فلاناً عن وضع قدمَيْه فوق الطاولة، وترسّخ نفوذها الخفيّ فوق دعائم التفاصيل اليومية. لولاها لتداعى البيت، والكلّ يعرف ذلك، حتى وإن لم يقرّ به أحد.

أما سيبيرينا فلها نفوذٌ معنوي، مُطلَق. يكفيها حضورها، وهي كبيرة العائلة، كي تفرض نفوذها على كلّ مناحي الحياة. في حين تفرض مونا أوامرها بالقوة. فتضرب من عصى، أو ترمي رأسه بشيء، وتكيل له السباب. إنها هي المسؤولة عن جرد السلاح ونظافته وصيانته، وتوفير إمدادات الذخيرة. لا تلعب دوراً مباشراً في الحرب، لأنها امرأة، ولكنها قوية كالثيران، ما يشي بوفرة الكروموسومات في جسدها. تتفوّق على إخوتها الذكور

t.me/qurssan

في التصويب، وتتفوّق عليهم جميعاً في سرعة فكّ البندقية وتركيبها.

ها هي ذي الخرساء في هذه اللحظة برفقة أركانخِل، وحدهما، في الحجرة المُوصَدة. تنظّف الغبار بممسحة حمراء، أما هو فيراقبها وهي تعمل، مُمدّداً على الفراش، لا يحوّل عينَيْه عنها.

- «في أنظار أولئك الذين يرونها تمرّ في الشارع، لم تكُن الخرساء بأكثر من حاجبَيْن كثَّيْن، ونظرة فولاذية مضادة للصدأ، وجسد بلا هيئة مُتّشح بالأطمار السود».

يمعن أركانخِل النظر إليها، ويرى أكثر من ذلك بكثير. إذ تتوهّج مخيّلته لمرأى الثياب مفرطة الثقل التي ترتديها خالته. يتفرّس في الشيء الوحيد الذي لا تحجبه، قدمَيْها الحافيتين. في هاتين القدمَيْن النضرتين، بخطواتهما الحثيثة الهادئة، يكشف الطلاسم التي تسمح له بتصوّر باقي الجسد. في بعض الأحيان يدور الحديث عن النساء بينه وبين صديقه الحميم، العريف غييرمو ويلي. فيعدّان قائمة بمعارفهما من النساء، ويضحكان كما يفعل الرجال الكبار، ويصفانهن بلغة فجّة خالية من الرقّة. ولكن أركانخِل، الذي لا يحلم إلّا بالخرساء، لا يجرؤ على ذكرها، بل إنه يعضّ شفتَيْه سخطاً وغيرة كلّما ذكرها غييرمو ويلي. يحكي له ويلي قائلاً: «يُقال في الحيّ إنها عانس بدينة».

- «غير صحيح، فهي رائعة الجمال».

- «ويُقال إنها ترتدي حزام العفّة».

- «غير صحيح».

- «بلى. فالحدّاد روخاس يقسم إنه صنع من أجلها حزام العفة بيدَيْه منذ أعوام، نزولاً عند طلبها. بل إنه رسم الحزام على ورقة ذات يوم، كي يوضح شكله. فرسم لوحاً من الحديد له ثقبان، واحد من الأمام تحرسه ستٌّ وثلاثون سنّاً، وآخر من الخلف تحرسه خمس عشرة سنّاً».

t.me/qurssan

- «أكاذيب. اخرس».

الآن ترفرف الخرساء في أرجاء الحجرة، فتمسح الغبار وترتّب الفوضى وتلملم الثياب القذرة. أما ابن أختها فيتابع حركتها من مكانه على الفراش. ينظر إلى قدمَيْها، معجباً بالجسد المحجوب، راغباً في لحمها الناضج. يخال أن رطوبة فرجها قد بلغَت أنفه، ويتصوّر الأغلال المعدنية. في حركاتها الحادّة المفعمة بالطاقة خلال التنظيف، وطريقتها في الإمساك بالمكنسة ونفض الممسحة الحمراء، يلتقط الطفل نداءً سريّاً ينوّمه بالإيحاء ويبثّ فيه الوهن. تنسلّ حياته كاملة من بين يدَيْه وهو يراقبها، ويستنفد قواه محاولاً الوقوف على خباياها. يودّ لو عثر على مفتاح الأقفال التي تحول بينه وبين تلك الأعجوبة المُدرّعة المُحرّمة. يناديها سائلاً: «أيتها الخرساء...».

تمسك عن أداء مهمتها كي تلتفت إليه.

- «أعاجزة أنتِ عن الكلام حقّاً؟ تكلّمي، قولي لي أيّ شيء».

***

ينفق أولمان فيرنيلي أسبوعاً في تتبّع خطا نارسيسو بارّاغان، وفي تلك الأثناء يجمع المعلومات الضرورية لوضع المُخطّط الذي يهدف إلى اغتياله بأدقّ التفاصيل.

- «لم يكُن آل مونسالبيه مُضطرّين إلى الاستعانة بقاتلٍ محترف لتنفيذ تلك المهمة. فيكفي تتبّع الأثر الذي يخلّفه عطر نارسيسو في الهواء من أجل التقصّي عنه».

حكايات العطر ظنون يتناقلها الناس، أما فيرنيلي فمحترف لا يتأثّر بتلك الأقاويل، بل إنه يهتدي بالأخبار المُؤكّدة، ويسترشد بالوقائع المُثبَتة: إنه عالِم إجرام.

- «لم تكُن الحاجة تقتضي هذا القدر من العلم، والتقنيات، مع الأخذ في الاعتبار سهولة الهدف».

كلّا ونعم. فمُجرّد البقاء داخل حدود المدينة في حد ذاته يوفّر

t.me/qurssan

لنارسيسو وجميع أفراد آل بارّاغان قدراً من الحصانة، فبينهم وبين آل مونسالبيه اتفاقٌ يقضي بمراعاة الحدود الإقليمية، اتفاق يعود إلى زمن مضى، حين ذهب ناندو بارّاغان إلى كوخ العمّ في الصحراء، حاملاً جثمان أدريانو مونسالبيه. وطبقاً للاتفاق المشار إليه، كان على الأسرتين أن تهجرا الصحراء، فتنزل إحداهما في المرفأ، والأخرى في المدينة، ولا يجوز لأيّ منهما التعدّي على أراضي الغريم. ولذا سمح نارسيسو لنفسه بذلك الترف، ولم يلتزم بتأمين ظهره، واثقاً في قرارة نفسه بأن آل مونسالبيه لا يقدرون على اقتحام المدينة.

- «ما لم يكُن اليوم يوافق مُتمّماً...».

ما لم يكُن اليوم يوافق مُتمّماً. فعلى مدى الاثنتي عشرة ساعة التي يستغرقها المُتمّم، يبطل اتفاق مراعاة الحدود الإقليمية ويسود قانون واحد: فهذا يكرّ وذاك يفرّ، هذا يقتل وذاك يصمد. ويجوز الأخذ بدم القتيل بعد مضيّ تسعة أيام على الموت، أو شهر، أو عام: فلكلّ قتيلٍ ثأر، وكلّ ثأر يسفر عن قتيل جديد، وهكذا تتكاثر المُتمّمات كالخلايا المسرطنة. تقع جميع هجمات آل مونسالبيه في المدينة، وتقع جميع هجمات آل بارّاغان في المرفأ، خلال المُتمّمات. وليس في ما عداها من الأيام أبداً.

- «يتوخّى ناندو الحذر دوماً، في المُتمّمات وفي غيرها».

منذ الهجوم الذي وقع في الحانة، وأسفر عن إصابته في ركبته، يتّخذ ناندو الاحتياط، وبالمثل يفعل أخواه الناجيان، راكا وأركانخِل. أما نارسيسو فلا. لأنه لا يصدّق سوى ما يرغب في تصديقه، والسرّية مُضرّة بتحرّكات الفتى اللعوب، وصورة مصارع الثيران، ونظرات الأفعوان، وأناشيد الرجل الذي يغوي جنيّات البحر. نارسيسو يشبه مصارعي الثيران، والنجوم اللامعين: فاستعراض الجمال المبهر الذي يقدّمه في حاجة إلى جمهور، وأضواء، وخطا الراقصة، وخشبة مسرح، وتصفيق.

لو أن فرداً من آل مونسالبيه حاول التسلّل إلى المدينة خلسة، لكشف آل بارّاغان أمره وصفّوه على الفور، لأن لهم عيوناً وآذاناً

t.me/qurssan

في الجدران، وعلى النواصي، وخلف الأعمدة. ولذا فآل مونسالبيه متى اقتحموا المدينة، اقتحموها بكلّ ما يملكون من قوة، خلال المُتمّمات، مُدجّجين بالسلاح، في مواكب من السيارات المُصفّحة. ويجتاحون البلدة، فيعيثون فيها خراباً كجماعات الهون المنغولية، أو القراصنة إذا داهموا سفينة، أو الأشرار في أفلام رعاة البقر.

- «يترقّب آل بارّاغان في حصنهم بكلّ ما يملكون من سلاح وذخيرة، كما جرى في فيلم ماسادا، الذي كان له أصداء واسعة في الحيّ أيضاً».

ولكن شتّان بين ذلك والمُخطّط الذي وضعه فيرنيلي، وصمّمه بطريقة أخرى. يتلقّى فيرنيلي أجره مقابل القتل، الذي ينفّذه سريعاً من دون أن يتورّع عن شيء. فهو لا يراعي القانون ولا الأخلاق، ولا يأسف لشيء، ولذا فهو قاتل لا يخيب. ولأنه أجنبي، غير معروف، يسهل عليه بلوغ المدينة من دون أن ينتبه إليه أحد، والتجوال فيها كما يحلو له، متظاهراً بأنه بائع شوكولاتة «ميلكي واي» مُهرّبة. يتتبّع نارسيسو كالظلّ المشؤوم، حتى ما عاد ينقصه أكثر من بضعة أيام ليخترق عقله الباطن، ويقف على أدقّ أسراره الحميمية.

يكتشف أول ما يكتشف أن ضحيته يفكّر في النساء دوماً. فهو إذا راقص امرأةً اغتنم الدقيقة المتاحة بين رقصة وأخرى حتى يتّصل بأخرى، وإذا أدار صفقة تورّط في علاقة بزوجة الشريك أو ابنته، وإذا شاهد فيلماً في السينما أثارته المُمثّلة، وإذا خاض معركة قانونية أغوى المحامية وشارك القاضية الفراش. يمارس الإغواء وكأنه طقس مُقدّس، ويشعر برغبة جارفة تدفعه إلى خلب العقول، حتى إنه بات عبداً لفتنته. تذوب طاقته من فرط ما يحبّ، ومن كثرة من يحبّ من النساء. لا يجد نارسيسو المقدار المناسب من الحبّ أبداً: فهو لا يحتمل ألّا يكون محبوباً، ويضيق بالمغالاة في حبّه. جميعهن من أجله، وهو من أجلهن جميعاً، وهكذا تنسلّ الحياة من بين يدَيْه في ذلك التفاني التعدّدي، المطلق، الذي يجرف ساعات عمره من دون أن يترك ثغرة واحدة

t.me/qurssan

للوحدة، ولا الحميمية، ولا الراحة، دع عنك مراعاة السلامة الشخصية.

لا يحتاج أولمان فيرنيلي إلى معرفة المزيد، فهو يعلم أنه لا هدف أسهل منالاً من رجل عاشق، والعشق لنارسيسو كالماء للأسماك والهواء لبني البشر. لا يمنعه من قتل نارسيسو فوراً صعوبة في التنفيذ، بل أمرٌ قاطع من رُعاته يلزمه بالانتظار حتى ساعة الصفر.

***

حان اليوم الذي يترقّبه الجميع، يوم زفاف ناندو، وأخيراً يفتح آل بارّاغان أبواب بيتهم، إن جاز التعبير، ذلك أنهم قد نصّبوا في الخارج جيشاً خاصّاً يفتّش المدعوين، ويتحسّس جسد الداخل، سيداً كان أو سيدة أو طفلاً أو إشبينة أو عرّاب العروس، للتحقّق من عدم حيازتهم أسلحة.

ومع أن الدعوة ليلية، يتوافد كثيرون من المدعوّين منذ المساء بغرض الدخول أولاً، ويلتقون بآخرين سبقوهم إلى هناك، وجلسوا على الأرصفة يترقّبون بدء الحفل. زد على ذلك المدعوين الزائفين: أي الحُرّاس المُتنكّرين الذين اندسّوا وسط الحضور، من ضمنهم پاخاريتو پوم پوم، وسيمون بالاس، وكاتشومبو، الذين تنكّروا في ثياب مدنية وراحوا يلهون، وإن أبقوا عيونهم مفتوحة درءاً لوقوع مشكلات أمنية.

- «كيف نميّزهم وسط هذا الجمع الغفير، ما دام الجميع يبدو مُتنكّراً؟».

تُفتَح الأبواب، فيتدفّق المدعوّون جماعات، صائحين، هاتفين، كالمُشجّعين الثائرين في الإستاد، ويجولون في البيت الكبير مُتطفّلين على كلّ شيء، فيلتقطون الصور، ويحشرون أنوفهم في الأركان، كالسائحين في حديقة الحيوان.

- «كُنّا قد رسمنا في مخيّلتنا كنوزاً، وأنفاقاً، وحجرات تعذيب، ودون ذلك الكثير من الأشياء العجيبة داخل البيت، فوجدناه

t.me/qurssan

لا يكتشف المدعوون في البيت الثروات والأسرار التي كانوا يتوقّعونها. إن هي إلّا قطع أثاث عفا عليها الزمن مبعثرة كيفما اتّفق في الحجرات والأروقة، وكأن الأعوام لعبَت في ترتيبها دوراً أكبر من ذلك الذي لعبَته الإرادة البشرية. بعض الحجرات أُقفِلَت بالمفتاح، فلم يتهيّأ لأحد أن يدخلها. يتلصّص المدعوون عَبْر شقوق الخشب العتيق، فلا يرون سوى أمكنة موحشة. وفي أحد المخادع يُفاجَؤون بسرير من البرونز غائب وسط جبال من الذرة المُكدّسة. وفي مخدع آخر، يُفاجَؤون بتيس شُدّت ساقه إلى خزانة الثياب.

وفي مقصورة صلاة صغيرة، تفوح منها روائح البخور والفئران النافقة، يكتشفون لوحات مرسومة بالزيت تصوّر جميع الراحلين من أفراد الأسرة، وتحت كلٍّ منها شمعة مُضرَمة. يرون قديساً ضخماً من الجصّ، أجدع الأنف، بردائه وسيفه. زد على ذلك المسيح المصلوب، والقناديل، والشموع، والنعش الجديد المُتوسّط الحجم، ذلك الذي يترقّب متوارياً خلف ستار: وإذا كلّ شيء مُعَدّ لتشييع جنازة التالي.

- «إنهم ناس لا يأخذهم الموت في غفلة منهم أبداً».

وحين يكتظّ البيت بالمدعوين، تظهر آنا سانتانا وقد تعلّقَت بذراع أحد أخوالها، لأنها يتيمة الأب.

- «وصلَت العروس فأُصبنا بالإحباط مرة أخرى. كُنّا نترقّب ثوب زفاف مبهراً، مُكلّلاً بالطرحة، ومُطعّماً بالدانتيل، كثوب غريس كيلي حين تزوّجَت رانييرو، أو ثوب ماريانا في الحلقة الأخيرة من مسلسل الأثرياء يبكون أيضاً».

ولكن آنا سانتانا لا يبدو عليها أنها قد تهيّأت من أجل الزفاف، بل من أجل المناولة الأولى. صنعَت ثوب الزفاف بيدَيْها، ذلك الثوب المصنوع من الساتان الرخيص، المفرط البساطة إلى حدٍّ جعله يبدو خالياً من المعالم. وعلى الرغم من شعرها المُصفّف بالبكرات

t.me/qurssan

في صالون التجميل، وعينَيْها المرسومتين بالمَسْكَرة، ووجهها المطلي بالأبيض والأحمر، فهي ما زالت الفتاة العادية نفسها، لا هي بالقبيحة ولا الجميلة. ينظر إليها الناس نظرة أسى أكثر مما هي نظرة إعجاب. تقع أبصارهم عليها وهي تبدو كالحمامة في ثوبها الأبيض، فيدور في خلدهم أن هذه الفتاة تضع رأسها بين أنياب الذئب.

لا يبدو أي أثر للإخوة بارّاغان ونساء الأسرة. بل إن الصبايا هنّ اللاتي يستقبلن المدعوين ويقدّمن لهم خدماتهن، الصبايا الصفراوات، والزرقاوات، والحمراوات، فضلاً عن بعض النُّدُل الغلاظ، الذين يفتقرون إلى الخبرة، وكأنهم قد تدرّبوا على العمل في اليوم السابق.

- «بالفعل، كانوا قد تدرّبوا على المهمة في اليوم السابق. لأنهم في واقع الأمر من الأتباع الموثوق فيهم، جيء بهم من مزارع آل بارّاغان الذين لا يكترون مَن لا يعرفون من العمّال، لأيّ سبب كان، وإلّا جازفوا بأن يخترق العدو صفوفهم. لم نكُن قد رأينا العريس، ناندو، وإن تناقل الناس شائعة تزعم بأنه قد أقفل على نفسه باب مكتب صغير، لتسيير شؤون التجارة، مثله كمثل مارلون براندو في حفل زفاف ابنه، عندما قدّم دور العرّاب».

في البدء يتولّى ناندو شؤونه الخاصة، ثم يظهر في منتصف الحفل. يرتدي ثياب كلّ يوم، قميص كاريبي من هاڤانا، القميص الذي ارتداه على مدى أعوام طبقاً للشهود العيان.

- «قد لا يكون هو نفسه، فمن المحتمل أنه يملك الكثير من الأقمصة المتشابهة».

يظهر ناندو اليوم لأول مرة على الملأ من دون النظارة الرايبان السوداء، احتفاءً بمدعوّيه. عيناه زائغتان، مرتبكتان، كما يليق بمن خلع النظارة التي لا تفارقه. يفضّل المدعوّون ألّا يقفوا أمامه، خشية النفاذ إلى حميمية تلك النظرة المحجوبة في الظلّ دوماً، والتي سقط عليها ضوء النهار بغتة. ها هو ذا يكشف عينَيْه الكرويتين، المجهولتين، لأول مرة، ويمرّ بخطا عرجاء وسط

t.me/qurssan

الجمع الغفير، مُحيّياً بأحضان دبّ قطبيّ هائلة، تطبق على أنفاس ضحاياه. أما الوحيدة التي لا تنال منه عناقاً فهي العروس نفسها، التي لا يستقبلها بأكثر من قبلة على الجبين، أخوية، مُجرّدة من الشغف.

يرفض ناندو بارّاغان كؤوس الشراب التي يقدّمها إليه النُّدُل. يذهب إلى الطعام، ويراقبها مُتمهّلاً، مُتفحّصاً محتوياتها، صينية تلو أخرى، ويتشمّم بارتيابٍ القوارض، ولكنه لا يتذوّق شيئاً. بعد ذلك يغيب عن الأنظار وسط الثياب المنشورة في الباحة قبل الأخيرة، ثم يدلف إلى المطبخ.

وهناك يجد أمّه، سيبيرينا، وقد ارتدَت ثياب المنزل هي الأخرى، وكأنه يوم كغيره من الأيام: كانت حافية القدمَيْن، تتلفّع بشالٍ طويل أسود من القطن مُزيّن بالأزهار البيضاء اللون، وتضع على كتفَيْها وشاحاً، وتلفّ حول خصرها مئزراً من المطاط. كانت قد غسلَت رأسها بصابون كروس أسول للقضاء على القمل، فيتمكّن ناندو من رؤية شعرها طليقاً، الأمر الذي لا يحدث إلّا في ما ندر.

اعتكفَت سيبيرينا في بيتها مدى الحياة، باستثناء زياراتها الدورية إلى المقابر، وعلى الرغم من ذلك لا يراها أبناؤها بمظهر يفتقر إلى الهندام، ولا يرونها بعد استيقاظها مباشرةً، ولا يعرفون في أيّ ساعة تأوي إلى الفراش، ولا ما احتياجاتها، ولا سمعوها يوماً تشكو حالها، أو تنتحب، أو تضحك: فخصوصيتها عصيّة على الاختراق. لقد عرفَت كيف تتدبّر مواطن ضعف الآخرين، وإن ظلّت مواطن ضعفها منيعةً. يسكر الآخرون فتبقى مستيقظة، يمرضون فتشملهم برعايتها، يتساقطون فتظلّ متماسكة، يشردون فيجدونها راسخةً في وسط المكان، يبذّرون فتدّخر كلّ سنت، يتهدّم العالَمُ المألوف ويتداعى فتلملم شظاياه وتثبّتها مكانها من جديد.

تعرف سيبيرينا ذويها من الداخل ومن الخارج، بينما لا يفلح أحد في كشف طلاسمها. كانت لغزاً غامضاً، لغز الهشاشة القادرة على كلّ شيء. فلطالما كانت وما زالت هناك، راسخةً كصخرة تعود إلى

t.me/qurssan

ما قبل التاريخ، وعلى الرغم من ذلك فهي تفتقر إلى الواقعية، مثلها كمثل الزمان والمكان. وفي صبرها الإعجازي وغموضها الخليق بأبي الهول يكمن سرّ نفوذها المطلق.

مات زوجها ميتةً طبيعية، ومات سبعة من أبنائها الاثني عشر ميتةً عنيفة، ومن فرط ما رأت الموت بعينَيْها صارت كائناً من مادة أخرى، يسكن أفلاكاً تقع في ما وراء آلام البشر وإمكانياتهم. تتقبّل مصيرها المُروّع مؤمنةً بالقدر إيماناً بطولياً، أو مهووساً، بَيْد أنه عصيّ على الفهم. ومع أنها أولى ضحايا تلك الحرب الدائرة بينهم وبين آل مونسالبيه، فهي لم تطلب من أبنائها أن يضعوا لها نهاية قطّ.

شيّبَت الأعوام شعرها وخفّفَت من كثافته، ولكن سيبيرينا ما زالت محتفظةً به مرسلاً حتى الخصر. يراقبها ناندو وهي تحلّه بمشط ضيّق الأسنان، ويلاحظ أنها تتلمّس الخصلات الخفيفة باللفتات المفعمة بالطاقة التي كان يقتضيها تصفيف ذلك الشلال البديع منذ أعوام. يقول في نفسه: «ها قد طعنَت في السن»، وتعتريه المفاجأة حين يتبيّن أنها تتأثّر بمضيّ الزمن.

- «ماما، أنا جائع».

تذهب أمّه إلى موقد الفحم المُضرَم -فهي لم تُرِد البدء في استخدام الموقد الكهربائي قطّ، ذلك الذي طلب الأبناء تنصيبه في المطبخ- ثم تقدّم لابنها البكر صينيّة ممتلئة إلى حافتها بالفاصولياء ذات الرؤوس السود وكأساً مترعة من ويسكي أولد پار.

- «عاش ناندو بارّاغان حياته خائفاً، خشية أن يُدَسّ له السمّ في الطعام، ولذا فهو لم يكُن يتذوّق لقمة واحدة ما لم تعدّها أمّه بيدَيْها».

- «السبب الحقيقي أنه شخص جاهل، عاجز عن تذوّق صحن قد يبدو له جديداً أو غريباً».

يـنزوي الابن والأم على نفسَيْهما في المطبخ، وينسيان الحفل

t.me/qurssan

الذي يتردّد صخبه بعيداً، وكأنه كرنفال في بلدة أخرى. يجلس ناندو إلى المائدة الثقيلة العتيقة التي أكلَت عليها الأسرة وخبزَت عجين الذرة وكوّت الثياب على مدى عشرين عاماً. تقترب سيبيرينا من الخلف، وبحكمة مُروّضي الوحوش تمسّد فروة رأسه بأناملها، كعهدها كلّما أرادت أن تهدّئ من روعه، منذ كان طفلاً صغيراً. ثم تطلب منه قائلةً: «والآن أوضِح لي السبب الذي يدفعك إلى الزواج منها. أعطني سبباً واحداً».

فيجيبها: «من الواجب على الرجل أن تكون له زوجة».

ثم يركّز على مهمة التهام الفاصولياء، ويبتلعها برشفات ساخنة من الويسكي الحيّ.

- «سوف تذيقها الشقاء يا ناندو».

- «آنا سانتانا أقوى مما تبدو».

- «إذاً فهي سوف تؤذيك. انظر إلى هذا السيرك الذي أقمتَه اليوم، لمُجرّد أن ترضيها. لم يسبق أن دخل الغرباء إلى هذا البيت».

- «كلّ شيء تحت السيطرة».

- «دائماً تقول الشيء نفسه، ودائماً تكون الخاتمة مؤسفة».

ينفتح باب المطبخ ويدخل رجل أربعيني، أبيض، أطول من المُتوسّط، زرقة عينَيْه نقيّة، هادئة، تتماشى وتلك الحمرة الصحية البادية على وجنتَيْه. يرتدي قميصاً زاهياً وبذلة رصينة داكنة تبثّ شعوراً بالثقة المهنية والطمأنينة الشخصية. إنه الأستاذ ميندیس، صديق الأسرة ومحاميها.

- «اشتهر الأستاذ ميندیس في المدينة بأنه سيّد وقور. كان صديقاً لآل بارّاغان، وإن لم يكُن بينه وبينهم وجه شبه. كان أعزب، يعيش حياة هادئة ولا يتدخّل في قضايا السلاح. بل إنه في واقع الأمر كان هو محامي الأسرتين، آل بارّاغان وآل مونسالبيه، الوحيد الذي أفلح في معاملة الأسرتين من دون أن يعادي أيّاً منهما، على مدى الأعوام».

t.me/qurssan

يدافع المحامي مينديس عن أيّ فرد من أفراد الأسرتين في مواجهة أطراف أخرى. ويؤدّي مهمته في حيادية صارمة، من دون انفعال، ولا شخصنة الأمور، كما أنه لا يتولّى المسائل التي يخوضها أحد الطرفَيْن في مواجهة الآخر، وفوق كلّ شيء، لا يتلقّى سنتاً واحداً أكثر مما يتقاضاه عن خدماته المهنية المتواضعة.

يعرف مينديس أنه يعامل أشخاصاً درجوا على تلويث أيديهم وشراء ضمائر الآخرين. ويعرف أنه متى قبل المرء نقودهم من تحت الطاولة، صار في اللحظة نفسها عبداً لهم، وملكية حصرية، وفقد الحقّ في التملّص، وأصبح الوفاء غير المشروط فرضاً عليه، فرضاً يستحقّ تاركه عقوبة الموت.

حظي المحامي باحترام الأسرتين، إذ كان في نظرهما رجلاً مُثقّفاً أميناً تفتخران بصداقته، والاعتماد على وجود شخص مثله يصبّ في مصلحة الطرفَيْن، فعلى الرغم من الحرب والموت، أو بسببهما، كان وجود نقطة تواصل غير مباشر أمراً ضرورياً، للتراسل من خلال شخص مُقرّب ولكن محايد.

- «على كلّ حال، كانت حياة المحامي مُعلّقة بخيط رفيع، لأن خطأ واحداً أو حرفاً زائداً قد يفضي إلى الإخلال بالتوازن المحسوب بالمليمتر بين آل مونسالبيه وآل بارّاغان، فينتهي جسده الصحيح مُتعفّناً في قاع أخدود».

يبدو حليق الذقن، نضراً، وكأن بشرته جديدة. يدلف المحامي مينديس إلى المطبخ ويحيّي سيبيرينا بقبلةٍ وعناق، أما ناندو فيحيّيه بالشدّ على يده.

- «كان هو الرجل الوحيد الغريب عن الأسرة الذي يحيّي نساء آل بارّاغان بقبلة. بل وكان الوحيد الذي يدخل إلى المطبخ».

تبادله سيبيرينا التحية بحرارة لا تبديها لأحد: «الأستاذ المحامي!».

t.me/qurssan

يطلب مينديس منهما الجلوس، وكأنه مالك البيت: «تفضّلا بالجلوس. يسعدني لقاؤكما معاً. فعندي ما أحدّثكما بشأنه».

الأمر يتعلّق بنارسيسو. يصرّح لهما بأنه لم يأتِ بشائعات ولم يستقِ معلوماته من آل مونسالبيه، الشيء الذي لا يقدم عليه أبداً، فهو لا ينقل شيئاً من هنا إلى هناك ولا من هناك إلى هنا. كلّ ما يريده منهما هو الوقوف على ما يراه الجميع بوضوح: نارسيسو يعرّض نفسه للخطر بلا داعي. ويظهر برفقة نساء يلفتن الأنظار في الحانات والديسكو. يحذّرهما بقوله: «لو استمرّ على تلك الحال فلن يبقى على قيد الحياة طويلاً».

فتدلي سيبيرينا بحكمها، من دون أن يبدو التأثّر على صوتها: «وراء كلّ ابنٍ قتيل من أبنائي امرأة».

وفي تلك الأثناء يهدر الحفل بأقصى قوة، في الخارج، وتعزف الفرقة موسيقا صاخبة. ومن آنٍ إلى آخر، يعلو الضجيج والنشاط حتى يبلغا أوجهما، فيرتجف الحيّ بأسره، وينتفض مُتأثّراً بالطاقة المنطلقة من بيت آل بارّاغان. ثم يخيّم فتور على الأجواء، المثقلة بالضجيج والإجهاد والويسكي، حتى تعلو الموجة مرة أخرى، وتبلغ الذروة، فيتفجّر الهياج من جديد.

- «لم يبقَ شيء إلّا وحدث في ذلك الحفل».

قرب نهاية اليوم الثاني، بعد أن تمكّن شراب الرمّ من أفراد الفرقة الموسيقية والنُّدُل والحرّاس، وانبعثت روائح الأمونيا الشديدة من المباول المُرتجَلة، كان ناندو بارّاغان قد ساوى بين رأسه وباقي الرؤوس، واختصر المسافات بينه وبين الآخرين، واندمج مع باقي السكارى في الحفل الصاخب، ووقفوا كتفاً إلى كتف، وقد أصابهم الفواق معاً.

كعهده دائماً، يضع حول معصمه الأيمن ساعة رولكس من الذهب المصمت، مُرصّعة باثنتين وأربعين ماسة، ضخمة، تغشى الأبصار، لا تمرّ على الناظر مرور الكرام. عند ذاك، أخذ واحدٌ من المدعوين يطنّ ويحوم حول الساعة، في جشع، وهو رجل ضئيل، نكرة،

t.me/qurssan

يُدعَى إلياس مانسو، مظهره يشي بثقل الظلّ، يليق ببائس مسكين، ولكنه مُدّعٍ، يعتمر قبعة خشنة ويرتدي سروالاً ضيقاً وينتعل حذاء أبيض. يطرده ناندو بعيداً عنه كالبعوضة، بضربات لاواعية من يده، فيعاود مانسو الهجوم، مخموراً، يحملق برغبة وشهوة إلى الرولكس، وكوكبة الألماسات البرّاقة التي رُصّعَت بها الساعة. يقول لناندو: «أهدِني هذه الساعة».

لا يسمعه الأخير، فيصرّ بلجاجة مُتعِبة، كالنحلة الطنّانة: «أهدني هذه الساعة».

حتى يستشيط ناندو غضباً، في واحدة من ثورات غضبه الهائلة المخيفة الخليقة بعملاق مضطرب الأعصاب، فيرفعه عن الأرض مطلقاً صيحة حادة تجمّد الدماء في عروقه وتفزعه إلى حدٍّ جعله يفعلها على نفسه. ينتبه ناندو بارّاغان إلى ذلك فيقول له: «أنت حشرة. فعلتَها على نفسك. أريد أن أعرف ما المستوى الذي قد تنحدر إليه من أجل بلوغ ما تريد».

فيهمهم مانسو مرتعداً: «ما عدتُ أريد شيئاً، ساعتك لا تروقني في واقع الأمر».

يزمجر ناندو: «لا تكذب، أنت على استعداد لبيع أمك مقابل الحصول على الساعة. سأمنحك الفرصة. أحضروا إليه صحناً وشوكة وسكيناً ومنديلاً. لو أكلتَ خراءك، على مهل، بأسلوب راقٍ، ومن دون أن تبدو عليك مظاهر الاشمئزاز، أو التبرّم، أهديتك الساعة».

يتحلّق جمع المدعوين حول إلياس مانسو، وربما كانوا تمكّنوا من مشاهدة تلك الفعلة المُنفّرة لو لم يلهب طبلات آذانهم صخبٌ عارم يتفجّر بالخارج في تلك اللحظة ويتدفّق في شلالات من الأنغام، على ألحان أغنية السوداء، التي تعزفها في حماسة خمس عشرة آلة غيتار، وعشرون آلة كمان، وثلاثة وعشرون بوقاً، وخمسٌ من فرق المارياتشي التي جرى التعاقد معها للعزف معاً. وإذا الأغنية الهادرة تنفض الحشد كالصدمة الكهربائية، فيهتاج الحضور ويسارعون بالتزاحم عند الباب لمشاهدة العرض. في

t.me/qurssan

الشارع تمضي سحابة من رعاة البقر المكسيكيين الذين يعزفون آلاتهم، وقد اعتمروا قبعات ضخمة سوداء اللون، وحشروا أجسادهم في ثياب من النسيج الرمادي مُزيّنة بالفضة.

وفي أثرهم، تنساب على إيقاع الموكب سيارة نارسيسو بارّاغان اللينكولن كونتيننتال، في صمتٍ وجلال، بلونها البنفسجي الصارخ.

- «نارسيسو هو الذي خطف الأضواء خلال زفاف ناندو. تصوّر أنه حضر برفقة هذه العدد الضخم من عازفي المارياتشي».

- «لطالما كان يخطف الأضواء».

- «جاء في موكب نصر، وكأنه غايتان الأسمر(*****) في ساحة العاصمة الكبرى».

وفي أثر السيارة اللينكولن، في نهاية الموكب، مضى جسمٌ عجيب هائل يصرّ ويترنّح، جسم لا يتّسع له الشارع، ولا يُدرك الناظر طبيعته بالعين المُجرّدة. جاء تحمله مقطورة، ويسحبه جرّار. كان مستديراً، مُسطّحاً، ويبلغ قطره أربعة أمتار.

إنها هدية الزفاف المُقدّمة من نارسيسو إلى شقيقه ناندو: فراش ضخم مستدير مُطعّم بالصدف، مُزوّد بمرتبة مائية، وطاقم من المرايا، وبار، وغطاء من أذناب الثعالب، وتكثُر فوقه الوسائد المصنوعة من الخامة نفسها، بأحجام شتّى.

يبدو نارسيسو وكأنه غارديل(******)، بشعره المُصفّف إلى الوراء، المُثبّت على رأسه بدهان لامع. أما ثيابه فناصعة البياض، بما في ذلك البذلة الضيقة التي تشبه ثياب مصارعي الثيران، وحذاء الموكاسين الإيطالي الخفيف المرن مثل القفاز.

- «كلّ هذا البياض كان مقصوداً، مقصوداً، الغرض منه أن تبدو عيناه عصيتَيْن على المقاومة، عميقتين، سوداوَيْن كليل الصحراء».

- «كان كلّ ما فيه مقصوداً، الغرض منه إثارة الفتنة».

t.me/qurssan

جاءت برفقته امرأة بدَت وكأنها قد خرجَت لتوّها من إحدى مجلات الموضة، فتاة صعبة المنال، أطول منه بعدّة سنتيمترات، لها ساقان فائقتا الطول، وشعر فائق النعومة، وثغر شهيٍ، وفتحة ثوب على شكل حرف الـ V، تصل إلى الخصر كاشفةً عن جزء لا بأس به من صدرها الممسوح.

- «لا أدري ما الذي رآه فيها نارسيسو، وهي النحيلة مثل القطة».

- «هكذا كان ينتقيهنّ، ضامرات، عصريّات، ويقول: "إن اللحم لا يُطلَب بالرطل سوى في المجزرا". كان يحبّ الدمى المرهفة، لا النساء العاديات».

يأمر نارسيسو فرق المارياتشي بعزف موكب النصر من أوبرا عايدة، وبلفتة فخمة، رائعة، يدعو آنا سانتانا إلى التعلّق بذراعه والسير برفقته: يريد أن يقدّم لها الهدية رسميّاً. يمضي بها إلى الصالة، ويحملها على ذراعَيْه بكلّ احترام، كما يليق بزوجة أخيه، ثم يودعها في منتصف الفراش، فوق الغطاء المصنوع من الفراء. يطلب الصمت من الحضور، وإزاء الترقّب العام، يدير المفاتيح الكهربائية المُثبّتة في مُقدّمة قطعة الأثاث العصية على التوصيف.

عند ذاك تتحقّق المعجزة. إذ تنطلق الموسيقا البرّاقة على موجات الراديو المُدمَج في الفراش، وتُضاء الأنوار الحمر والسود المحيطة بالهيكل المُطعّم بالصدف، وتنطلق نوابض السرير لتمسيد جسد الراقد فوقه، ويتأرجح الفراش يمنةً ويسرةً، يعلو ويهبط، ويدور 180 درجة، في دورات وئيدة.

تشيع الرهبة في نفوس الحاضرين، يتأثّرون، ويصرخون.

- «الفراش مسحورا».

- «يبدو كدولاب الهواء!».

- «أنجِدوا العروس!».

t.me/qurssan

وبين لاهية ومذعورة، تحاول آنا الحفاظ على توازنها، تتقلّب وسط الوسائد وأذناب الثعالب، ويتمزّق ثوبها الأبيض، وتفقد تاجها المجدول من زهر البرتقال، وتصيبها نوبة من الضحك العصبي، تطلب النجدة، تصرخ طالبة التوقّف... تشعر بالندم... تريد ركوب الفراش لوقت أطول... تريد النزول... تريد البقاء مكانها.

وكما لو أن أحدهم قد أدار الزنبرك، تنطلق فرق الموسيقا في العزف، والأزواج في الرقص، ويتحمّس المخمورون لمعاقرة المزيد من الشراب، والقرد الذي يستمني ما زال منصرفاً إلى عادته، والجموع تهدر، والكلّ يريد الصعود إلى السرير السحري، فيتدافعون ويتسابقون، وفي النهاية يصطفّون للصعود إلى السرير واحداً تلو الآخر.

إلى أن يصرخ نارسيسو، الذي لم يكُن بالشخص الذي يسمح لفراش بأن يخطف منه الأضواء، ويهدر قائلاً: «كفى!»، ثم يقطع التيار الكهربائي، ويفضّ المهرجان، ويستأنف دور النجومية. يعتمر قبعة تشارّو مكسيكية ويضع في عروته زهرة قرنفل ويرفع عقيرته بأغنيات الرانتشيراس المكسيكية، سائراً عَبْر الباحات، وفي أثره فرق المارياتشي المصاحبة.

يتذبذب صوته ويعلو فوق أنغام الكمان والأبواق، فيأسر قلوب المدعوين، يرفع الرجال عقيرتهم بالصيحات والزغاريد المكسيكية، «أيايايايا»، وتجهش الفتيات بالبكاء الهستيري، كما تفعل معجبات أساطير الروك. أما ناندو بارّاغان فيصيح وقد رقّ قلبه: «آه، يا أخي يا حبيب الروح!».

ويمدّ ذراعَيْه الفولاذيتين إلى نارسيسو ويرفعه في الهواء، حتى يكاد حذاء الموكاسين الإيطالي لا يلامس الأرض. يربّت على رأسه بمداعبات غليظة تليق بغوريلا حنون، ويهمس في سمعه بصوت مُتهدّج من فرط التأثّر والكحول: «اعتنِ بنفسك. لا تسمح لهم بأن يقتلوك مثلما تُقتَل الكلاب».

وكدأبه، يغتنم نارسيسو الفرصة لتقديم مشهد استعراضي. فيثب

t.me/qurssan

جالساً على كتفَيّ ناندو برشاقة غجري، وخفّة لاعب الأكروبات، فيغمر النور قوامه الأبيض، وكأنما كشّافات الإضاءة مُسلّطة عليه. يخيّم صمتٌ كنائسي، يمدّه نارسيسو دقائق طوالاً من مكانه فوق المنصة المُؤلّفة من لحم ودم، ويشلّ حركة الجموع بومضات محمومة من عينَيْه الخلّابتين.

ثم إنه يردّ على تحذير ناندو بصوت هادئ مفعم بالحنين، مُرتجِلاً خطبة سوف تُخلّد في ناصية النار: «أخي، من الخراء نحن وإلى الخراء نعود. كلانا يعلم ذلك، لأننا محكومان به. فلنشربْ حتى نتمرّغ في الأرض، ولنأكل حتى الانفجار، ولننفق مالنا حتى آخر سنت، ولنعشق النساء جميعاً، ولنقف أمام الموت، ولنبصق في وجهه!».

- «وكيف انتهى الحفل؟».

بعد مضيّ ثلاثة أيام يبدو البيت ساحة قتال بعد المعركة: يبدو ساكناً، مهجوراً، غارقاً في النفايات، يكاد يسوده الخراب بسبب اجتياح الجموع، وغزو قطعان الكلاب الشاردة الباحثة عن البقايا.

ها هي ذي آنا سانتانا وحيدة في رحابة فراش الزوجية، وقد ارتدَت قميص زفاف مُنشّى لم تمسسه يده، وقبلَت بالهجر والخضوع الزوجي في تسليم مكابر، بينما تهاوى ناندو بارّاغان مخموراً في ركن من أركان المطبخ، مطبخ أمه، وسط جبل كريه الرائحة من أعقاب السجائر، يبكي الذكرى الأليمة، ذكرى ميلينا الشقراء، المرأة التي لم ترغب في حبّه.

***

يفيق أهل المرفأ من القيلولة، يفتحون النوافذ على مصاريعها تاركين خيطاً من الضوء يغمر البيوت ويبدّد الرطوبة العطنة، رطوبة الرابعة مساء، وماني مونسالبيه، الذي لا ينام في الظهيرة البتّة، جالس إلى مكتبه يتأمّل عَبْر النوافذ الكبيرة. من خلال الزجاج العاكس يصطبغ البحر بدرجات مُفضّضة صناعية تروق له أكثر من تلك الدرجات الطبيعية، وتبدو السماء الأرجوانية رائعة،

t.me/qurssan

لاواقعية، وكأنها صورة فوتوغرافية.

يلتقي ماني بمساعده وذراعه اليمنى، تين پويوا، في اجتماع مغلق. خلع حذاءه، وراح يمرّر قدمَيْه على البساط بنعومة، البساط الذي طلب وضعه منذ زمن قصير، لأن سابقه فقد رائحة الأشياء الجديدة.

ما زال يُفاجأ بملمس الخامات الباهظة وعطورها، وهو الذي تعرّف بها كبيراً. يشعّ باللذّة حين يتلمّس المعدن المطلي بالكروم الذي صُنِعَت منه قوائم مكتبه، والرخام الذي يعلوه، والجلد الصناعي الذي يكسو مقعده القابل للطيّ، وزجاج كأسه المنقوشة التي يمسك بها في يده. وبعمق يتنشّق مُعطّر الجو النظيف الذي يفتقر إلى الشخصية. ويتحقّق من عدم وصول هدير البحر إلى المكتب، راضياً عن نفسه، ذلك أنه قد أرسل في طلب تغطية الجدران بالفلّين لعزل الصوت الذي يصدّع رأسه. يعمل مُكيّف الهواء بأقصى قوة، فيقشعرّ بدن ماني من فرط البرودة التي تروق له: فلقد تحمّل القيظ أعواماً بالغة الطول، حتى بات الصبر على البرد يبعث فيه شعوراً بالسطوة.

في المكتب، يتلقّى زيارة أسبوعية من مُهرّب يحمل إليه آخر ما توصّلت إليه التكنولوجيا من اختراعات، فيخرج المُهرّب مسروراً في كلّ مرة، لأن ماني مونسالبيه زبون دائم يقتني كلّ ما يمكن توصيله بالكهرباء. فهو يملأ خزائن بالأجهزة المنزلية التي لا يحتاج إليها، ويشتريها لمُجرّد المتعة. ويجمع بعض الأجهزة التي لا يعرف لها استخداماً. وبعناية فائقة يحتفظ بالعبوات وإرشادات الاستخدام، بل إن القدر اليسير الذي يعرفه من اللغة الإنجليزية قد تعلّمه وهو يحاول كشف طلاسم تلك الإرشادات. يشعر بشغف جارف بأجهزة الاتصالات، والشاشات العملاقة، والأنظمة الصوتية، والساعات الرقمية، والألواح الإلكترونية، ولوحات التقويم السنوي المغناطيسية، والأغطية الحرارية، وأجهزة الميكروويف، والأفران ذاتية التنظيف، والمُسجّلات التي تعيد لفّ الأشرطة أوتوماتيكيّاً، والكاميرات المُزوّدة بخاصية ضبط البؤرة تلقائيّاً، ولا سيما الهواتف.

t.me/qurssan

ليس في الهواتف الستة والعشرين المُثبّتة في مسكنه جهاز يشبه الآخر. لديه هواتف لاسلكية، وأخرى مُزوّدة بأشرطة ممغنطة، وأخرى تكاد تبعث على الهلوسة، وأخرى مُزوّدة بذاكرة، وأخرى لا يمكن اعتراضها، بعضها على هيئة حذاء، وبعضها على هيئة عبوة كوكاكولا، وبعضها على هيئة الكلب سنوپي. أما الهاتف الأثير لديه، الذي يحتفظ به على مكتبه، فهو ذلك الشفّاف الذي تظهر الآلات في داخله، الذي يتلقّى الرسائل ويرسلها، ويهدهد المنتظر على الخط بأغنية من أغاني المهد، وتنطلق منه الأنوار المُلوّنة في العتمة، مثله كمثل الصحن الطائر.

وفي حين تخلب الأجهزة الإلكترونية لبّه، تثير اللوحات المُعلّقة على الجدران في نفسه شعوراً بالارتياب. «إنه الرسم الحديث»، كما فسّر له مالك معرض الفنون الذي باعه اللوحات بأسعار مرتفعة، فدفع مُسلّماً أمره، وسمح لهم بتعليقها في المكان الذي يرونه مثالياً، بل إنه حفظ أسماء الفنانين، ولكن الحقيقة التي لا يبوح بها لأحد أن تلك اللوحات لا تروقه. لا يفهم كيف يمكن لهم أن يتقاضوا مبلغاً ضخماً كهذا مقابل بقع عصية على الفهم، أو بورتريهات تبدو من رسم الأطفال. وعلى الرغم من ذلك فهو لا يجرؤ على تبديلها. ما دام مهندسو الديكور قد اختاروها، فلا بدّ أنها جيدة.

لقد ربح من النقود أكثر مما كان يسعه أن يحلم به. ومع ذلك، يخونه حسن التمييز عند إنفاقه. لا يعرف ما الجميل وما القبيح، ما يواكب آخر صيحة وما لا يواكبها، الأمر الذي يُقلِقه إلى حد الهوس. يقول لألينا: «لا يكاد يعجبني شيء حتى يتّضح أنه لا يلائم الذائقة الرفيعة».

ولذا كان في حاجة إلى طلب المشورة، وتوخّي مبدأ السلامة، وتلافي الوقوع في الأخطاء والسقوط في الابتذال الذي يفضحه ويكشف أنه من محدثي الثراء.

مِن الأعمال الفنية ما لم يستسِغه، مثل لوحات الفنانَيْن أوبريغون Obregón أو بوتيرو Botero، والثياب ذات الماركات المعروفة

t.me/qurssan

التي يشتريها بالأطنان، ولا يرتديها لأنها تتسبّب له في التهاب، أو ضيق، أو تعرقل حركته. لطالما أهمل أظفاره: فهو يمقت مُدرّمي الأظفار، وبالمثل يمقت مُدلّكي الجسد، ومُصفّفي الشعر، والأطباء، نظـراً للخـوف المرضـي الـذي يسـتحوذ عليـه خشـية أن يلمـس أحـدهم جسـده. بـل إنـه لا يقتـرب مـن النـاس ولا يسـمح لـهم بالاقتراب منه، تفادياً لأيّ اتصال جسدي بينه وبينهم. ينام قليلاً، ويمتلك القدرة على الامتناع عن الطعام طوال أيام. لا يدخّن، ولا يتعاطى المُخدّرات، ولا يحبّ الكحول، ولا يشرب إلّا كولا رومان.

- «كان يدمن كولا رومان التي يتجرّع منها لتراً تلو الآخر ويقول إن مُركّب الأنـيلين الأحمـر فـي ذلـك المشـروب الغـازي هو الذي يحافظ على نشاطه الفائق».

ماني مونسالبيه يسأل تين پويوا: «هل عملية الليلة جاهزة؟».

يلقي عليه السؤال مشيحاً بوجهه إلى الناحية الأخرى، وكأن الأمر لا يهمّه، وكأنه لا يسأله في واقع الأمر. ثم يبرز من جيبه علكة بنكهة النعنع، ويمضغها فاغر الفم، مُتوتّر الأعصاب. فهو يريد أن يعرف ما إذا انتهَت إعدادات الهجوم على نارسيسو بارّاغان. «ماذا عن عملية الليلة؟»، يعاود السؤال من دون أن يتيح الوقت اللازم للإجابـة. لقـد اتّخـذ قراره بأن يبقى على الهامش، ويترك الأمر تحت مسؤولية شقيقه فريپي، ولا يلوّث يدَيْه، حفاظاً على راحة ضميره. لئلّا تلقي عليه أليـنا باللائمة. ولكنه قد أسرف في التعوّد على الإمساك بكلّ الخيوط، ولا يقدر على كبح تلك الاندفاعة التي تحثّه على التدخّل في المسألة: «كيف تسير عمليـة نارسيسو، ها؟».

جالساً على حافة أحد المقاعد، يقرع الأرض بكعب حذائه، وكأنه لا يترقّب سوى لحظة الذهاب، في حين يجيب تين پويوا عن أسئلة الزعيم. يتحدّث على عجل، ويمزّق بعض الأوراق الصغيرة نتفاً بكلتا يدَيْه، ثم يعيد خصلة شعره المنسدلة على جبينه إلى الوراء بحركة مُتشنّجة من رأسه.

يخبره تين بأن مُتقمّصاً على الأبواب، ولذا فمن المزمع أن يتحصّن

t.me/qurssan

آل بازّاغان في بيتهم، ما عدا نارسيسو، الذي لا يعير المُتقّمات أدنى اهتمام، وسيقضي ليلته برفقة عارضة أزياء احتفالاً بعيد ميلادها. فيرنيلي يعرف ذلك لأنه قد اعترض هواتفه. من المزمع أن ينقضّ عليه حين يبلغ نارسيسو بيت العارضة. وسوف يعترض طريقه بإحدى شاحنات الأشغال العامة، عند ذاك يوقع به في الشرك مستعيناً برجال مُتنكّرين في ثياب رياضية، يخفون الأسلحة في حقائبهم.

ينصت ماني وهو يتقلّب في مقعده، شاعراً بالضيق. لا يحسّ بمذاق العلكة، فيبصقها. يتابع تين پويوا حديثه: حصل فيرنيلي على الشاحنة بعد رشوة أحد مُوظّفي البلدية، وتمكّن من تحديد موقع بيت المرأة. انتهى من إعداد كلّ شيء وما عاد ينتظر سوى الإشارة الخضراء من فريپي.

يسأل ماني، منزعجاً: «لمَ يحيطون الأمر بكلّ هذا الغموض اللعين؟».

القتل عنده أمر هيّن، رهن بالقلب الحديد، لا الذكاء، بل إنه أقرب إلى صيد الحيوانات منه إلى التكتيك العسكري. يشعر بالسخط من كثرة الإعدادات وكثرة الابتكارات العجيبة، يستعجل، يهمّ بالاتصال بفريپي حتى يطلب منه التوقّف عن تعقيد الأمور، وصرف ذلك المدعو فيرنيلي، والذهاب معه وحدهما في السيارة الجيب حتى يرديا نارسيسو قتيلاً برصاصة في رأسه، وكفى. ولكنه يكبح جماح نفسه ويمسك عن الاتصال به. لقد اتّخذ قراراً بألّا يشارك في تلك الجنازة، وسوف يلتزم بقراره.

للمرة الثالثة على مدار اليوم يسأل تين پويوا عن رأيه في أولمان فيرنيلي، فيوشك تين على تكرار قوله بأنه لا يعرف للمرة الثالثة أيضاً، وحينئذٍ ينفتح باب المكتب فجأة.

- «يُقال إن ماني قد ذُعِر ووضع يده على المُسدّس. الأمر الذي يمكن تفهّمه، لأن شخصاً واحداً لا يجرؤ على اقتحام مكتبه من دون الطرق على الباب أولاً، ولا حتى زوجته».

t.me/qurssan

إنها ألينا خيريكو. يفلت ماني المُسدّس من يده ويدعوها إلى الجلوس وقد تملّكته المفاجأة. يسألها: «ماذا جرى؟».

فتجيبه: «لا شيء».

سرعان ما يحدس ماني بأن شيئاً خطيراً قد وقع.

ترتدي ألينا سروالاً وقميصاً من الحرير، زاهياً، فضفاضاً، وتنتعل صندلاً يكشف عن قدمَين بيضاوَيْن مثاليتين تليقان بتمثال من الرخام. وجهها خالٍ من الزينة، والهالات السود حول عينَيْها تشي بأنها قد أمضَت ليلتها وهي تصارع فرس كوابيسها السوداء. تطلّ أذناها من تحت شعرها المُصفَّف إلى الوراء، وعلى شحمتَي أذنيها تبدو ماستان صغيرتان على الرغم من صفائهما، زرقاوان مثل ڤينوس في سماء المساء.

- «أخبريني بما جرى».

- «لا شيء».

تجلس ألينا على مقعد أمام مكتب زوجها وتلزم الصمت. تحدج تين پويوا بنظرة يلتمع فيها المقت أشدّ سطوعاً من الماستين الزرقاوَيْن. تبغض الاختلاجات المُتوتّرة لذلك القاتل، ويسوءها حضوره الذي يقتحم حياتها الشخصية أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. تضع ساقاً على ساق وتزمّ شفتَيْها، لأنها لن تنبس بحرف واحد في حضور تين. ينتبه ماني إلى ذلك، فيأمره: «تين، اذهب».

يهزّ الفتى رأسه مرّتين متتاليتين ليعيد خصلة شعره إلى الوراء ثم يقف واجماً. إنه على أهبة التضحية بحياته من أجل ماني. أما ألينا، فبينه وبينها كراهية مُتبادَلة، لا يبذل أيّ جهد في مداراتها. يخرج ويوصد الباب. فيقول ماني لزوجته: «والآن، أخبريني بما يجري».

يقولها على أمل ألّا تكون المسألة مُعقّدة. فذهنه مُتشبّع بمشكلة نارسيسو ويشعر بعجزه عن تحمّل عتاب الزوجية في تلك اللحظة. ينظر إليها بعينَيْن جامدتين، وقد أدركه التعب مسبقاً من

t.me/qurssan

الجدال الذي يقترب منه. فهو يهيم بها عشقاً، ما دامت لا تتسبّب له في أيّ مشاكل.

ومن دون أن تفتح شفتَيْها، تفتّش ألينا في حقيبتها إلى أن تعثر على مظروف. تهبّ واقفة، وتودعه فوق المكتب، ثم تعاود الجلوس. في سلوكها شيء من التحدّي يليق بجيمس دين ويترك ماني مُتوفّزاً، فيتردّد قبل أن يلتقط المظروف. ينظر إلى زوجته مستفهماً بعينَيْه، يتوسّل إليها كي تسمح له بأن يلتقط أنفاسه، وتترك له مهلة حتى يمتثل لطلباتها أيّاً كانت، بَيْد أنها تردّ له النظرة بلا تنازلات.

يشعر ماني بالتِّيه. لا يدري ما الخطب، ولكن مهما يكُن من شيء، فهو أمرٌ جلل، جسيم، ثقيل، وليس هناك ما يمكن عمله، لأنه قد وقع بالفعل. يفضّ المظروف، ويفرد الشهادة المطويّة التي كانت في الداخل، ويقرأ: «مختبر الفحوص الطبية. الدكتور خيسوس أونوفري. السيدة ألينا خيريكو دي مونسالبيه. نتيجة الاختبار المناعي للحمل: إيجابية».

***

- «هل حضر أهل ناصية النار جميعاً زفافَ ناندو بارّاغان؟».

- «كاد يحضر الجميع، ولكن لا. لأن باكان وجماعته رفضوا الذهاب».

- «ومن هم؟».

- «فرقة من لاعبي الدومينو. باكان أسود أعمى تبلغ قامته من الطول مترين. كان يجعل زوجته تقرأ عليه الصحف، ويجيد الحديث في السياسة والتاريخ ويعرف كلّ شيء لأنه قد تعلّم وحده. كان صاحب نفوذ في الحيّ: بل إنه صاحب النفوذ الوحيد الذي لا يستعين بالسلاح. كان يمقت العنف، والانتهاك، والخديعة، والتكبّر. وكانت جماعته مُؤلّفة من رفاق الدومينو، جماعة من الأصدقاء يلتقون كلّ مساء، ابتداءً من الساعة السادسة، على الرصيف المقابل لبيته، حتى يفوز أحدهم بتلك البطولة التي

t.me/qurssan

بدأت منذ ثلاثة أعوام ولم يفلحوا في الانتهاء منها قطّ. في واحدة من تلك الأمسيات، قبل زفاف ناندو، قطعَت مباراة الدومينو زوجة باكان، وهي امرأة خلاسية ضخمة الجرم تصغره في العمر كثيراً، وطلبَت منه نقوداً من أجل شراء فستان لحضور الزفاف. غير أنه أجابها أنْ كلّا، بجفاء. فأرادت أن تعرف السبب، وهي التي عوّدها زوجها العجوز على التدليل. وهناك، أمام الأصدقاء والفضوليين، رفع باكان عينَيْه عن فيشات الدومينو، عينَيْه اللتين لا نفع لهما، الغارقتين في الماء الأبيض، بلونهما السماوي الضارب إلى البياض كالسماء المُلبّدة بالغيوم، وقال ما لا يجرؤ على قوله أحد في ذلك الحيّ: "لأننا لن نذهب. فلا شيء يجمعني بالقتلة"».

***

في الرابعة فجراً، في المنطقة الحمراء من المدينة، تقف سيارة مرسيدس بينز SE 500، مُصفّحة، بلون الكريم شانتي، نوافذها داكنة، ومفروشة بالجلد الأبيض. تقف السيارة بحدّة أمام جدار مطليّ بالأسود، خالٍ من النوافذ، عُلِّقَت عليه لافتة من النيون جاء فيها ما يلي: «**جنيّة البحر الزرقاء، ملهى توبليس وستريبتيز، جنيّات بحر أصليات لتحقيق أحلامك الأكثر جموحاً**». وفي الخلف تقف سيارتا تويوتا مُحمّلتين بالحرّاس المُسلّحين.

يترجّل من المرسيدس رجلٌ أعرج، في ضخامة إنسان الغاب، يدلف إلى المكان ويتفرّس في الغبش المُعبّأ بالدخان من خلال عدسات نظارته الرايبان. إنه ناندو بارّاغان، الذي ينتظر بضع دقائق حتى يتمكّن من تمييز الأشكال المتمايلة في العتمة على وقع موسيقا الميرينغي، على أنغام أغنية «التهمني مرة أخرى». يراقب البانوراما بعين ثاقبة حتى يؤلّف صورة ذهنية من الكائنات الحاضرة، كانت هناك اثنتا عشرة امرأة، شبه عاريات، شبه مُتنكّرات على النحو التالي: فراشتان، وطاووس، وجنّيّتا بحر، ومُهرّجة، ومُتحوّلتان جنسيّاً، وأرنبة، ونمرة، وعاهرتان.

يملي ناندو أوامره على حرّاسه قائلاً: «جنيّة البحر السوداء،

t.me/qurssan

والطاووس، والنمرة».

ويسارع بالخروج من المكان ويجلس في المرسيدس حيث ينتظر تنفيذ أوامره.

- «في زمن غير الزمن، قبل الهجوم الذي أسفر عن إصابة ركبته، كان ناندو يصل إلى ملهى جنيّة البحر الزرقاء، فيأمر بإقفال الأبواب، ويدفع ثمن الشراب من أجل جميع الحضور، ثم يتسلّق منصّة الرقص، حيث يتحسّس أجساد راقصات التعري، ويدسّ الدولارات في البيكيني، حتى ينتهي به الأمر وقد تجرّد من ثيابه هو الآخر».

- «وعلى المستائين من رؤيته عارياً أن يتحمّلوا».

- «قيل إن قضيبه صغير، هزليّ، وكأنه عودٌ نحيل ناتئ من جسده الهائل».

- «وقيل إنه على الرغم من صغر حجمه كان يكفيه لإمتاعهن جميعاً، بل ويسمح له بخوض جولة ثانية. قيل عنه الكثير، ولم يكُن جميع ما قيل عنه صحيحاً. فعلى سبيل المثال، يُحكَى عنه إن الشعر يكسو جسده كاملاً، وكأنه قردٌ أصيل، والحقّ أن جسده كان ناعماً أجرد، شأن ذوي البشرة الصفراء».

يقترب الحرّاس من امرأة سوداء البشرة هائلة الحجم مُتنكّرة في زي جنيّة بحر، وشقراء تعتمر تاجاً مُزيّناً بريش الطاووس، وأخرى نحيفة مُتنكّرة على هيئة نمرة، بأذنَيْها وذنبها وجلدها المُخطّط. يهمسون في أسماعهن بشيء فيسارعن بتغطية أجسادهن بالأوشحة، ويجذبن حقائبهن، ثم يخرجن إلى الشارع وهنّ يترنّحن على كعوب أحذيتهن الدقيقة مثل الإبر، البالغة من الطول تسعة سنتيمترات ونصف، ويتدافعن مثلما تفعل تلميذات المدارس، ويحدثن صخباً عالياً مثل الدجاجات.

يستقللن المرسيدس وسط جلبة وصياح وتدافع، فتجلس الطاووس في المقعد الأمامي، بينما تجلس جنيّة البحر والنمرة في الخلف. يستنكر ناندو، فيبدّلن الأماكن لتجلس الجنيّة في

t.me/qurssan

المقعد الأمامي، بينما تجلس النمرة والطاووس في الخلف. تنطلق المرسيدس والتويوتا عَبْر شوارع حيّ البغاء، فتحترق الإطارات وتصدر صريراً حاداً. وفي أوج المسير، تقرّر الطاووس أن تفتح الباب الذي أُقفِل على تاجها، فتكاد تنطلق خارج السيارة عند منعطف حادّ، ولكن أحدهم يجذبها إلى الداخل وينقذها. يتوقّف الموكب أمام ساحة الموسيقيين، وبإشارة من ناندو يذهب الحرّاس لإحضار ثلاثي موسيقي معروف، ومحلّ ثقة. يُقِلّون الثلاثي في إحدى سيّارتَي التويوتا.

تتقدّم المرسيدس الموكب الذي يتّجه إلى الساحل ماضياً عَبْر طريق جبلي يمتدّ بحذاء البحر، ويتلوّى بين الوهاد والجروف، والموج يهدر في القاع هائلاً، أسود، أخضر، بنفسجيّاً. يقود ناندو بيد واحدة على سرعة مئة وعشرين كيلومتر في الساعة، وباليد الثانية يمسك القارورة، مُداوِلاً بين رشفات الويسكي وأنفاس سجائر الپيليروخا التي تضعها النساء بين شفتَيْه. يطير طيراناً آليّاً على ارتفاع خفيض، مخموراً، متجاهلاً قوة الجاذبية التي تناديه من الأعماق عند كلّ منعطف، مطلقاً الأعيرة النارية من مُسدّسه الكولت على لافتات المرور التي تحذّره من أخطار الطريق.

أما الفتيات فيسايرن الأجواء، وقد جرفهن الصخب واللهو. يستسلمن للشراب والدخان، منشغلاتٍ بتلبية رغبات مضيفهن: فبينما تقبّله الأولى، تداعبه الثانية بفمها، وتهمس الثالثة في سمعه بكلمات الغرام. يتجرّعون ويسكي أولد پار ويطيحون بالقوارير الخاوية من النافذة ليروا كيف يتهشّم الزجاج ذو اللون البني على الأسفلت ويغدو آلاف الشظايا الذهبية التي تُضطَرّ سيارتا التويوتا إلى مراوغتها، بمناورات مذهلة من المقود، لئلّا تُثقَب الإطارات.

ونزولاً عند أوامر ناندو، تبدأ جنيّة البحر في رقصة ستريبتيز وحشية بينما هي تنشد أغنيات الميرينغي بصوت أجشّ يليق بهنديّ مريض. تحلّ صدرية بحرية تكسوها حراشف معدنية، وكأنها درع من القرون الوسطى، وإذا هما يقفزان في الهواء، بحثاً

t.me/qurssan

عن الحرية، نهداها الهائلان، اللذان يستحقّان دخول موسوعة غينيس للأرقام القياسية من فرط ضخامتهما، كلاهما مُطعّم بحلمة في المنتصف وكأنها عين السايكلوب. وإذا كلٌّ من نهدَيّ جنيّة البحر السمراء بطلٌ أسود ضخم من أبطال العالم للوزن الثقيل، فالأيمن هو الملاكم چو فريزر، والأيسر محمد علي كلاي، يلتحمان في تحدٍّ على هدهدة الطريق وهزّاته: تنعطف السيارة إلى اليسار فينقضّ فريزر على محمد علي ويدفعه إلى الحبال، ثم تنعطف إلى اليمين فيردّ محمد علي بالضربة القاضية على فريزر، وفي غمرة الإثارة والتلاحم تتصلّب الحلمتان، وتنتصبان مثل الهوائيات، فيرسلان إشارات إباحية، في دعوة إلى الحرب.

يجلس الراكبان على المقعدَيْن الأماميّيْن محشورَيْن مثل السردين المُعلّب، وكأنهما أربعة ركّاب، لا اثنان، ناندو الغوريلا وجنيّة البحر، أو بالأحرى حوت البحر، بنهدَيْها الضخمَين: فريزر وتوءمه محمد علي.

تنزع جنيّة البحر ذيل السمكة المصنوع من الأسلاك والساتان المُفضّض، لتعرّي بذلك عانتها الكثّة. أما فرجها الدفّاق العاتي كالدوامة فيطلق إفرازات حيوانية تثير ناندو، الذي يتحفّز وينفعل، فيزجّ بقارورة الشراب في تلك البركة الأمازونية اللحمية إلى أن تتلاشى وتلتهمها البركةُ كاملةً، ومعها ملصق العلامة التجارية بالرجل العجوز الملتحي المرسوم عليه.

يقول لها ناندو في خيبة أمل: «لقد خدعتِني يا جنّيّة البحر. فليس لجنّيات البحر ثقب، أما أنتِ فلكِ فجوة لو نظرتُ من خلالها رأيتُ لوزتَيْك».

وفي تلك الأثناء، تغفو الطاووس الشقراء ذات الشعر المرسل في مكانها على المقعد الخلفي، فاتحةً عينَيْها، فاغرةً فاها، فيأمر ناندو النمرة بأن توقظها وتنزع ريشاتها. أما النمرة، الماهرة على هزالها، فتنهال على الأخرى صفعاً لإيقاظها، تنفضها، تعضّها، تطبع قبلات رنانة على ثغرها، فلا تُبدِي الطاووس أدنى تأثّر، ما زالت غائبةً، تائهةً، من يدري في أيّ مطهرٍ من نسج الهلاوس تاهَت،

t.me/qurssan

مستغرقةً في شجن الكحول. عند ذاك تنقضّ عليها النمرة الضارية التي لا تغفر الإهانة، وتنشب فيها مخالبها الحادة، وتنزع الريشات عن تاجها، وشعرها الأشقر المستعار الذي يتدحرج على الأرض كاشفاً عن رأس حليق أملس يشبه كرة البلياردو. بينما النمرة، المُهذّبة، المطيعة، توجّه لها أصابع الاتهام، وتشي بها: «إنها لا ترغب في شيء، ولا تتعاون معي».

لا تأبه الطاووس، لا شيء يفتنها أو يجذبها، فهي ما زالت فاقدة الوعي، مستلقية على مقعدها. الطاووس المسكينة، السوقية، المهترئة، بتاجها المهلهل، ونهدَيْها البائسَيْن المُثقلَيْن بوزن جسدها، وقعَت مُتلبّسةً بشعرها المستعار، ورأسها الحليق المكشوف على حقيقته العارية. يتذمّرناندو بارّاغان، مُتبرّماً كالطفل الصغير: «لقد خدعَتني أولئك العاهرات. جنيّة البحر مخادعة، والشقراء أيضاً. لم يبقَ لي في هذه الحياة القاسية سواكِ، أيّتها النمرة!».

تتباهى النمرة بانتصارها وتصدر أصواتاً من أنفها وحلقها ردّاً على ذلك الإطراء. تضع شعر الطاووس المستعار على رأس ناندو بارّاغان، وتتعلّق بعنقه الذي تمرّر عليه لسانها المُتورّد وكأنها قطٌّ صغير يلعق الحليب الدافئ من صحنه. يتعقّد الوضع لأنها في المقعد الخلفي، تميل على ناندو أكثر مما ينبغي، فتدهس رأسه، وتلوي عنقه، وتلفحه بأنفاسها الكريهة، وتطيح بنظارته، وتدغدغ أذنَيْه بشواربها القططية الطويلة، وتحول دونه ودون قيادة السيارة.

ولكن النمرة لا تنثني أمام العراقيل، بل إنها تكبّ على إنجاز مهمتها أفضل من أيّ وقت مضى، فتداعب عضوه بخبرة ونتائج مضمونة. تعزف عليه أنغاماً متتالية بأصابعها، وأخرى مُنمّقة بأناملها، وتمسّده وتهزّه براحتَيْها. في مرآة الرؤية الخلفية يراها تنزع جلد النمرة، كاشفةً عن جسد المرأة، المشدود أكثر من سابقه، وإن لم يخلُ من المفاتن الخفيّة ومكامن الجمال السريّة. وأخيراً، يتحقّق له انتصابٌ مُرضٍ.

t.me/qurssan

وفي تناغم تامّ بين الآلة والرجل، تزيد سرعة المرسيدس كلّما زادت إثارة مالكها، ومع كلّ حركة غير مُوفّقة من مقود السيارة تطلّ الأنوف على الهاوية بجراءة انتحارية. تنعطف السيارة بحدّة فيتعلّق إطارا الجانب الأيسر في الهواء، بعد ذلك يتوقّف ناندو ليوجّه السيارة في الطريق السليم ويلتقط أنفاسه. وبحزن يدرك أن الحادث قد أحبط مسيرته الصاعدة نحو القذف، المسيرة التي كانت شاقّة بالفعل. فيقول للسيارة بعطف مفعم بالإيثار: «أحياناً يبدو لي أنكِ تريدين أن تستقرّي هناك، في الأسفل!».

وصلوا إلى أعلى نقطة في الطريق. عند ذاك، وبهدوء يليق بسيّد وقور دَرَج على اتّخاذ القرارات الحاسمة بيدٍ ثابتة لا تختلج، يوجّه ناندو بارّاغان مقدّم سيارته المرسيدس في اتجاه الهاوية، ويصدر أمره إلى الراكبات بالنزول إلى الأرض، ثم يترجّل هو الآخر، برشاقة غير مُتوقّعة نظراً لضخامته.

عملاقاً، جبّاراً، مخموراً تماماً، وعلى رأسه الشعر المستعار، المرسل، الأشقر، كما لو كان فارساً من فرسان التيوتون(*******)، مُروّعاً، هائلاً، كالحلقة المفقودة في السلالة البشرية، يشرع في دفع السيارة عن الحافة، ويرنو إلى البحر الذي يختلج في القاع، ويتنشّق الهواء ملء صدره، ثم يدفعها مرّة أخيرة.

أما المرسيدس بنز SE 500، بلون الكريم شانتي، فتسقط في الهاوية، مطلقةً شراراً وبريقاً، في عرضٍ لن يتكرّر، عرض سينمائي التُقِط بعدسة واسعة، مصحوباً بالمُؤثّرات الخاصة، بينما يراقبها ناندو ذاهلاً، مُنوّماً بالإيحاء، في غيبوبة، فيراها وهي تحلّق بنعومة في هواء شاسع بلا قرار، يراها تتهاوى في صمت، بالتصوير البطيء، فتمزّق السحائب وتبتر رؤوس الملائكة وهي ماضية في سبيلها، تصطدم بالصخور السّود ثم ترتدّ بنعومة، ومع كلّ صدمة تبرهن على الصلابة الألمانية وجودة الصناعة التي لا يرقى إليها شكّ، وفي ختام المسيرة السماوية تتلقّاها مياه المحيط الرحيبة، وتمتصّ الصدمة بصفحتها النابضة، ثم تنفتح بوداعة وتشقّ الطريق لموكب النصر في فورةٍ مبهجة من الزبد والفقاعات، ثم تبتلع السيارة إلى غير رجعة، وإلى أبد الآبدين.

t.me/qurssan

وفي الأعلى، يقف على حافة الهاوية ناندو بارّاغان، الرّب المخمور الأصفر، بما له من شعر مستعار أشقر يبثّ الرهبة، ونظّارة داكنة، ومُسدّس كولت كابايّو عند الخصر، وثقوب منتشرة على البشرة، وساق عرجاء. يتأمّل المشهد العظيم مشدوهاً، فاتحاً ذراعَيْه على شكل صليب، زائغ النظرات، ويحدس بأن لحظة النشوة قد بلغَته أخيراً. يشعر بسيول دافئة من الحليب تغمر جسده، فيتركها تتفجّر دفّاقةً، ويسقي كوكب الأرض بسائله. ثم يرفع عينَيْه ملآنتين بالدموع ويصرخ مفعماً بالزهو، بصوت رنّان يدوّي في السماء وفي الجحيم: «أنااااا فنّاااااان!».

- «أحقّاً أن أحدهم كان في السيارة؟ يُقال إن العائدين من ذلك الحفل الماجن على متن سيّارتَي التويوتا، برفقة الحراس، هم ناندو والثلاثي الموسيقي وجنيّة البحر والنمرة. أما الطاووس فانقطعَت أخبارها إلى الأبد».

- «كانت نائمة، ولذا فربما هوَت مع المرسيدس ولم تُفِق من نومها حتى بلغَت قاع البحر. لو سقطَت جنيّة البحر لربما نجَت بحياتها، أما الطائر الداجن...».

جاء الموسيقيون في التويوتا وهم يعزفون طوال الطريق، والآن يتحلّقون حول ناندو ويغمرونه بأغنيات البايّيناتو، ويمضون في أثره حيثما ذهب، كالظلال الوفية. أما ناندو، الذي شرب ويسكي أولد پار حتى الثمالة، وأدركه الإجهاد بعد النشوة الجنسية الكونية التي وصل إليها حين تعمّد أن يدمّر سيارة بقيمة مئة ألف دولار، فيتّخذ قراره بأن ينال قسطاً من الراحة مثلما استراح الرّب في اليوم السابع من الخلق، ويمدّد جسده على رقعة ناعمة من الرمال حتى ينال قسطاً من النوم.

يتحلّق أفراد الفرقة الموسيقية حول النائم كالمُتعبّدين، وينشدون من أجله أغنيات البوليرو الهادئة وألحاناً أخرى حتى يبثّوا في نفسه السكينة، وكلٌّ منهم جاثٍ على ركبتَيْه، ممسكاً بالغيتار، أو بخشخيشةِ الماراكا، مُتّضعين، مُحبّين، مثلهم كمثل المجوس الثلاثة: ملكيور، وغاسپَر، وبلتزار، وهم ساهرون على راحة الطفل

t.me/qurssan

يسوع.

- «اخرسوا يا أولاد العاهرات! لو عزفتم نغمة أخرى أمرتُ بقتلكم رمياً بالبنادق ثم إلقائكم عن حافة الجرف!»، هكذا يصرخ ناندو الذي لم يغمض له جفن، ويقاطعهم بحدّة وهم يعزفون لحناً من سلم ري الصغير. بعد ذلك يغرق في سباتٍ عميق، ويغطّ مثل وحوش الجبال. وفي أحلامه يضفي صبغةً واقعية على ميلينا، البعيدة عن المنال.

- «ماذا كان من أمر النمرة وجنيّة البحر؟».

- «التهمهما الحرّاس والموسيقيون بينما كان السيّد نائماً».

في نهار اليوم التالي، بحيّ ناصية النار، في المرأب المُلحَق ببيت آل بارّاغان، تقترب آنا سانتانا من إحدى سيارات التويوتا، فتراها غارقة في القيء، تفوح منها الرائحة الكريهة، وعلى المقاعد الخلفية تجد امرأة بدينة شبه عارية، شبه محشورة في ذيل سمكة هزلي، نائمة، مُمدّدة على الأرض. فتُصدِر آنا سانتانا أمرها: «قدِّمن الفطور لهذه المرأة».

فتسألها إحدى الصبايا: «هل أقدّمه لها على مائدة الطعام؟».

- «كلّا. بل هنا، في السيارة».

***

- «كانت ألينا خيريكو قد تعهّدَت بأنها لو حبلَت هجرَت زوجها. وها هي ذي قد حبلَت، فهل برّت بعهدها، وهجرَت ماني مونسالبيه؟».

- «بل إنها لم تهدّد ماني بتلك الصيغة على وجه التحديد. فهي امرأة ذات شخصية، قادرة على الوفاء بعهدها. ولكنها كانت تعشق زوجها، وتركَت له باباً موارباً. فحين تأكّد لها الحبل، قالت لماني: "إن سقط قتيل آخر بسببك، هجرتُك"».

تُقدّم ألينا لماني شهادة المختبر وتخرج من المكتب بعد أن تقول

t.me/qurssan

كلمتها الأخيرة والوحيدة: «إن سقط قتيل آخر بسببك، هجرتُك».

هناك يمكث ماني، والورقة بين يدَيْه، أخرس، مُتيبّساً، كالطائر المُحنّط، لا يدري فيمَ يفكّر ولا ماذا يقول، بينما تبدو الندبة المطبوعة على وجهه كالهلال وكأنها علامة استفهام.

وإذا تهديد ألينا ينبض أمامه، كما لو كان ضفدعاً كبيراً أسود اللون، على أهبة القفز في وجهه. يتلامس في عقله سلكان عاريان، ما يسفر عنه ماس كهربائي ورائحة شياط: ميلاد ابنه ومقتل نارسيسو بارّاغان. يستغرق بعض الوقت في التعافي من الشلل الدماغي وجمود الأوصال، وحين يدرك أن الواجب يملي عليه معانقة ألينا، وتهنئتها، أو دعوتها إلى شرب نخب ذلك الخبر، يجدها قد غادرَت المكتب بغصّة في الحلق ودموع في العينَيْن، تاركةً وراءها حفيفَ الحرير الآتي من ثيابها وذكرى قدمَيْها الخليقتين بإلهة إغريقية في الهواء المُثلّج.

ينظر ماني إلى ساعته. إنها السابعة وعشر دقائق، وبين لحظة وأخرى يُحتمَل وقوع الحادث الذي من شأنه أن يبعد ماني عن زوجته وابنه إلى الأبد. ما لم يفلح في التراجع عن العملية التي ذهبَت إلى أبعد مما ينبغي بالفعل. يمسك رأسه بيدَيْه. الآن يرغب في نجاة نارسيسو بارّاغان بشدة، مثلما كان يرغب في موته منذ أيام.

وبحركات ما زالت مُتبلّدة ينتعل الحذاء الرياضي، ويشدّ الرباط الطويل، ثم يقف على قدمَيْه. سوف يذهب في أثر ألينا حتى يهدّئ من روعها، ويؤكّد لها أن شيئاً لن يقع، ولكنه يمسك عن المضيّ قدماً: فلا يمكنه أن يهدر دقيقة واحدة. يشعر بحاجة إلى التبوّل، غير أنه يؤجّل الذهاب إلى دورة المياه: فلا وقت لذلك.

يمسك الهاتف الشفّاف ويتّصل بتين پويوا عَبْر الخط الداخلي. وفيما هو يترقّب ردّاً، يلتقط قنينة كولا رومان من ثلّاجة مُدمَجة في مكتبة خالية من الكتب. يتجرّعها دفعةً واحدة، على رشفة طويلة، ويحسّ بمسار السائل البارد عند كلّ منعطف، حتى يستقرّ في معدته. يشعر براحة في ذهنه المُتّقد ويستردّ شيئاً من رباطة

t.me/qurssan

الجأش، ولكن الحاجة المُلحّة إلى التبوّل تزعجه. يسأل تين: «أتعرف أين يمكنني العثور على فيرنيلي في هذه اللحظة؟».

- «لم تكُن مثل هذه الأسئلة تليق بماني مونسالبيه، وهو المُطّلع على كلّ شيء دوماً. ها قد أُمسِك الآن غافلاً، ساهياً، منقطعاً عما يجري، معتمداً على مساعده في التحقّق من مسألة حياة أو موت».

يلتقط أنف تين پويوا استثنائية الموقف. فلطالما كان ماني هو الذي يصدر الأوامر ويدلي بالأجوبة، حتى إنه لا يطرح الأسئلة أبداً. أما اليوم فهو لم يفعل شيئاً بخلاف الاستجواب وطلب الآراء. يشعر الفتى بتضخّم الأنا، وبزهو خفيّ، لأنه فاق رئيسه علماً بما يجري. فيجيبه بخيلاء قائلاً: «أجل، أعرف. في أوتيل نانسي، في المدينة. قال إنه سوف يكون هناك، ترقّباً لوصول تعليمات فريپي».

فيأمره ماني: «اتّصل به إذاً!».

تابعَت الكولا رومان مسيرها نزولاً، والآن تجمّعَت في المثانة، فزاد الضغط عليها.

- «عَبْر الهاتف؟».

- «أجل. فوراً».

تين پويوا لا يصدّق أذنَيْه. ها هو ذا ماني الذي لا يرتكب خطأ وقد أصدر لتوّه أمراً يفتقر إلى حسن التمييز. يستنكر تين: «ولكن، من المُؤكّد أن فيرنيلي لم ينزل في الفندق باسمه الحقيقي...».

يصرّ ماني، وكأنه ليس شيئاً ذا بال: «قلتُ لك اتّصل به».

فيمتثل تين لأمره: «مُوظّف الاستعلامات ينكر وجود نزيل باسم فيرنيلي».

ثم يقول لائماً: «لقد أخبرتُك يا ماني».

ويستجمع شجاعته ليردف: «عسى ألّا يعرف فيرنيلي أننا اتّصلنا

t.me/qurssan

من تليفون بيتك للسؤال عنه، باسمه الحقيقي، قبل ساعاتٍ من الضربة».

ماني لا يعيره سمعاً. فكل ما يهمّه ألّا يفقد زوجته، وأشدّ ما يلحّ عليه حاجته إلى التبوّل، ولا يأبه لأشياء مثل رأي تين أو سلامة فيرنيلي. وفي حين تصرخ مثانته الممتلئة طالبةً فتح الطريق، يصدر ماني أمره قائلاً: «إذاً، حدّد موقع فريبي في المدينة عَبْر اللاسلكي».

لا يوافقه تين. لا يفهم ما الخطب، ولكنه يراهن على أن ألينا خيريكو لها يد في ما يجري. ينصاع لأمره على مضض، مُتبرّماً. يُجري الاتصال. فيتحدّث ماني إلى فريبي الذي سافر إلى المدينة للإشراف على الهجوم. يطلب منه أن يبحث عن فيرنيلي في الفندق ليأمره بوقف المُخطّط.

- «سأشرح لك السبب لاحقاً».

يقولها ماني مُفكّراً أنه سوف يحظى بمُتّسع من الوقت حتى يختلق سبباً يعفيه من البوح بالسبب الحقيقي. فيجيبه فريبي: «هذا غير ممكن».

وفي اضطراب يشرح له أن المدينة قد امتلأت برجال الشرطة على غير المُتوقّع، بسبب عقد لقاءٍ رسميّ في بناء قريب من أوتيل نانسي. يحذّره قائلاً: «لا يسعني الدخول إلى المنطقة، فذلك أمرٌ محفوف بالخطر».

يصرّ ماني حتى يستجيب له فريبي، مدفوعاً إلى الامتثال بغريزة العشيرة من جهة، وبحكم العادة من جهة أخرى، فلطالما كانت كلمة واحدة من ماني كافيةً لتُنَفَّذ الأمور أو لا تُنفّذ، من دون أن يبدي الإخوة اعتراضاً أو يطلبوا تفسيراً. يتعهّد فريبي بالوصول إلى أوتيل نانسي خلال عشر دقائق، والبحث عن فيرنيلي، ثم الاتصال بماني على الفور.

ماني يأمر تين بألّا يفارق الهاتف اللاسلكي، ثم يخرج بحثاً عن ألينا. يستقلّ مصعد الخدمة حتى يصعد طابقَيْن، ويقطع رواقاً

t.me/qurssan

فسيحاً تكسو أرضيته البُسط التي تمتصّ وقع الخطا. يبلغ المخدع الرئيسي. وهناك يجدها: منبطحة على بطنها فوق السرير، وقد دفنَت وجهها في اللحاف المصنوع من الريش، تبدو مأسوية، رائعة، كالمُمثّلة رومي شنايدر في فيلم سيسّي. وقبل أن ينبس بحرف واحد، يتّجه إلى دورة المياه.

يتبوّل ماني مونسالبيه، في راحة، مطلقاً سائلاً غزيراً، فوّاراً، لونه أصفر فاتح. ثم إنه يعود إلى الحجرة شاعراً بخفّة، وارتياح، موقناً أن المرحاض قد حلَّ شطراً من الدراما لتوّه. والآن لم يبقَ مُعلّقاً سوى الشطر الثاني. يجلس بجوار زوجته ويربّت على شعرها. يقول لها بقصد إسعادها: «لو جاءت بنتاً سمّيناها ألينا».

ولكنه يريد ولداً في واقع الأمر، وهو على يقين من أن المولود سيكون ولداً.

لا يلبث أن يعود إلى حجرة الهاتف اللاسلكي ويصل في اللحظة المناسبة كي يتلقّى اتصال فريبي، الذي كان في أوتيل نانسي بالفعل، وإن لم يعثر لفيرنيلي على أدنى أثر. يقول: «لم يمرّ من هنا بعد. ربما كان على وشك الوصول».

يأمره ماني بألّا يفعل شيئاً بخلاف البحث عن ذلك الرجل، وبأن يُبقِي رجاله في الفندق حتى يروه داخلاً. يقول له إن تين پويوا ذاهب إلى هناك ومن المزمع أن يصل خلال ساعتين. يأمره بالاتصال بمُجرّد أن تبلغه الأخبار. يستقلّ تين إحدى السيارات ويتّجه صوب المدينة وقد تلقّى أمراً بمعاونة فريبي على ردع فيرنيلي، وإن يكُن رمياً بالرصاص، على حدّ قول ماني. يفكّر تين أن ماني قد جُنّ، ولكنه يخرج مُستعدّاً لتلبية الأوامر.

يمكث ماني بجوار الهاتف اللاسلكي، مُترقّباً. يلعب سوليتير بورق اللعب، مرة تلو أخرى. يفرغ قارورة رومان كولا تلو أخرى. ساعة، ساعة ونصف، ساعتان. وفي التاسعة وخمسٍ وأربعين دقيقة ليلاً يتلقّى اتصالاً من فريبي، الذي يخبره بأن تين قد وصل من فوره، أما فيرنيلي فلا يبدو له أثر. يقول: «ربما خاف حين وقع بصره على أعداد القوات المنتشرة. وربما ذهب لتنفيذ مُهمّته مباشرة،

t.me/qurssan

من دون أن يمرّ من هنا...».

تثور ثائرة ماني، ويصرخ: «أليس هناك من يفرض سيطرته على ابن العاهرة هذا؟ ما دام قد أخبركم بأنه سوف يكون في أوتيل نانسي، فعليه أن يكون في أوتيل نانسي».

يدافع عنه فريبي: «إنه يؤدّي مُهمّته على طريقته الخاصة».

فيسبّ ماني شقيقه، وينعته بأنه جاهل، وبأنه دمية يتلاعب بها فيرنيلي. يأمره بإرسال تين إلى عارضة الأزياء حتى يحذّرها من الهجوم ويطلب منها تنبيه نارسيسو. والآن حان دور فريبي في الصراخ، ونار الشكّ تعتمل في نفسه، خشية أن يكون أخوه قد باع نفسه للعدو: «كيف؟ لقد فات الأوان يا ماني! أتريد مني إصدار أمر لتين بأن يزجّ بنفسه وسط النيران؟ أتريده أن يموت لإنقاذ فرد من آل بارّاغان؟».

يدرك ماني أنه سوف يخسر الجولة ما لم يستردّ الهدوء. يتنفّس عميقاً، ويتكلّم بوضوح وبطء، مودعاً في كلّ مقطع من مقاطع كلامه كلّ ما يمكن استجماعه من السطوة.

- «افعل ما أمليه عليك. أوقِفْ فيرنيلي».

يضع فريبي السماعة ويمسح سرواله براحة يده المُتفصّدة عرقاً. يسحب نفساً طويلاً من الدخان ويخرج من كابينة الهاتف المُعبّأة بالدخان المُلوّث. يمضي إلى السيارة حيث يترقّبه تين پويوا. يسأله تين: «بمَ يأمر ماني؟».

فيقول فريبي كاذباً: «لا شيء. يقول إن الأوان قد فات، ويطلب منا ألّا نفعل شيئاً».

***

يجتمع ناندو بارّاغان بأتباعه في باحة تتوسّط البيت، والشمس الغاربة تتسلّل عَبْر أوراق التمر الهندي المتشابكة مثل الدانتيل، وتنثر غباراً من الأضواء والظلال على تلك القبيلة من ذوي البشرة الصفراء. حضر الجميع مُلتفّين حول الزعيم في إجلال، واضعين

t.me/qurssan

أنفسهم تحت خدمته بلا شروط، كدأبهم كلّما حان مُتمّم.

يترقّبون وقوفاً، مُتّكئين على الجدران، وهم يسحبون أنفاس الدخّان من سجائرهم في صمت، ويسحقون أعقابها فوق بلاط الرواق، على أهبة الخروج لنهش آل مونسالبيه عند أول إشارة. ناندو يتأمّل، مُمدّداً على السرير المُعلّق، وسط الحضور.

وباستثناء أركانخِل المنعزل في حجرته، ونارسيسو الذي لا يعرف مكانه أحد، وراكا الذي لا يكترث لأمره أحد، لم يتخلّف رجل واحد من رجال العشيرة الأحياء. أبناء العمّ الأشقاء وغير الأشقاء والأعمام والرفاق: حضر الإخوة بارّاغان غوميس، والإخوة غوميس بارّاغان، والإخوة الثلاثة غوميس أراوخو، والأخوان ذوا الشعر الأحمر أراوخو بارّاغان، وسيمون بالاس، وپاخاريتو بوم بوم، وتيخيراس، وكاتشومبو.

مستلقياً على سريره المُعلّق، يفكّر ناندو ويدخّن، وليس هناك من يجرؤ على كسر صمت المحارب القديم الذي يراجع الاستراتيجية. وإذا بدجاجة راخِم تقفز على ركبته فجأة، فيعدّها الجميع في حكم النافقة، ويتوقّعون أن يلطمها الزعيم بيده فيطيح بها نحو الجدار ويحوّلها إلى كومة من الريش البائس. غير أنه يتفضّل بترك الدجاجة وشأنها، ويسمح بحضورها الدافئ.

تشقّ مونا بارّاغان طريقها وسط الذكور دفعاً، وتقترب من السرير المُعلّق ثم تهمس لأخيها الأكبر بشيء في سمعه. عند ذاك يكسر ناندو الترقّب المُخيّم على الباحة بصوت رتيب يليق بكاهن ناعس يرفع القدّاس الإلهي بلا حرارة. ويعلن أن أحدهم قد باعه سرّاً مُؤدّاه أن آل مونسالبيه قد وصلوا إلى المدينة، وهم في واحد من فنادق وسط المدينة.

- «كيف كانت تُباع له الأسرار؟».

- «وضع ناندو بارّاغان منظومة استخبارات وتجسّس لا تخيب. فما كانت ورقة واحدة تتحرّك في المدينة من دون علمه. كانت شبكة مُؤلّفة من الجيران، وسائقي سيارات الأجرة، وماسحي

t.me/qurssan

الأحذية، وبائعي بطاقات اليانصيب، والعاهرات، ورجال الشرطة، ومُوظّفي الجمارك، وغيرهم من أولئك الذين كانوا يفشون إليه الأسرار ويبيعونه إياها مقابل النقود، والحماية، أو مُجرّد السماح لهم بالعيش في سلام».

يملي ناندو أوامره: النساء والأطفال إلى السراديب، أما الرجال فـإلى السـيارات الجـيب اسـتعداداً لمـداهمة وسـط المـدينة والتفتيش عن آل مونسالبيه في الفنادق الخمسة الآتي ذكرها: إنتركونتيننتال، وكاريبي إن، وباتشويه، وديپلوماتيكو، وأوتيل نانسي.

- «إذاً فهل كانت تُوجَد متاهة في جوف الأرض تحت بيت آل بارّاغان حقاً؟».

كان ذلك بمثابة ملاذٍ في جوف الأرض، رطب، معتم، أطلقوا عليه «السـراديب». وكـانت لـه فتحـات في مستوى الشارع تُستخدَم للدفاع عن المكان بالبنادق. في واقع الأمر، كان بيت آل بارّاغان يتألّف من بيوت مُربّع سكني كامل مجتمعة، سراديبها مُتّصلة في جـوف الأرض، وتُسـتخدَم علـى أنـها خنـادق وترسـانات أسـلحة ومستودعات بضائع ومخابئ. وكانت لها عدة مخارج، كلّها سرّيّ.

- «تنـاقلَت الألسـنة كلامـاً عـن نفـق يمتـدّ مـن ناصـية النار حتـى مشارف المدينة. ذات مرة رأينا ناندو بارّاغان يدخل إلى بيته، ثم عرفنا أنه ظهر بعد دقيقتين على مبعدة عشرين مربعاً سكنيّاً، من دون أن يطأ الشارع بقدمه».

- «قـال بعـض النـاس إن السـراديب لـم تـكُن سـوى شبكة صرف صـحي. فـي حـين زعـم آخـرون أنها كانت معجزةً من معجزات الهندسة العسكرية».

تتولّى مونا بارّاغان قيادة الباقين في البيت. كانت سمراء ضاربة إلـى الصـفرة، مسترجلة، لها أسنان وأنيـاب مـن الـذهب الأبيض، شـعرها مشـدود إلـى الـوراء فـي جـديلة مرسـلة خشنة كالحبال. أتمّت عامها الرابع والثلاثين. لسانها سليط كالمكاري، ومزاجها

عكر كالشيطان، وحياتها تجري مُوزّعة بين شغفَيْن عظيمَيْن لا ثالث لهما: السلاح والمسلسلات.

اشتهرَت بتصويبها الذي لا يخيب، وقدرتها على صيد الجرذان بالمقلاع، كما اشتهرَت بمهارتها في تحديد عيار السلاح وطرازه بمُجرّد سماع دويّ الرصاص. تتفوّق على الجميع في سرعة فكّ البندقية وإعادة تركيبها، وتهزم كل من يجرؤ على تحدّيها في مصارعة الذراع.

- «قيل في الحيّ إن مونا امرأة بثلاث خصى...».

وعلى الرغم من ذلك، فهي تشاهد التلفزيون كلّ يوم في السابعة والنصف صباحاً والخامسة مساء على وجه التحديد، وتجلس على أريكة لمشاهدة مسلسلاتها الأثيرة. فتبكي بلا حرج أمام المشاهد الحزينة، وتعشق الأخيار، وتمقت الأشرار، ولا شيء في العالَم بأسره قد يرغمها على رفع عينَيْها عن الشاشة، كما تأكّد لأهلها يومَ فاض النهر وأغرق البيت. فبينما سعى الكلّ جاهداً لإنقاذ قطع الأثاث، رفعَت هي جهاز تلفزيون -ضخم، عتيق، أبيض وأسود- ثم وضعَته فوق خزانة ثياب لئلّا تبلغه المياه، وفرغَت من مشاهدة الحلقة المعروضة من مسلسل «ماريا ببساطة».

ها هي ذي مونا، بحزام الخرطوش المائل على صدرها، وبندقية سان كريستوفر في يدها، والتنورة الواسعة، والبوط المطاطي، تجنّد فصيلها المُؤلّف من النساء والصغار، وتحثّهم عدواً على الدّرَج الأسود المفضي إلى السرداب. تنير الممرات الحالكة بمشاعل تعلّقها على الجدران الطينية العفنة، وتمضي في متاهة من الأنفاق التي غمرَتها المياه كالجنرال في ساحة المعركة.

تنظّم صفوف أنصارها صياحاً وضرباً بالعصا. توزّع على النساء قطع السلاح التي لم يحملها الرجال: تشكيلة من الأسلحة العتيقة، تبدأ بقوسٍ شرقيّ، وتنتهي بمُسدّس والتر P38 كان يملكه ضابطٌ نازيّ وجد لنفسه ملاذاً في المناطق الاستوائية بعد الحرب. تأمر بإحضار ماء الشرب، والأغطية، والمؤن اللازمة لقضاء الليل. ثم

t.me/qurssan

تودع الصبايا الخادمات والصغار في مكان جافّ. تنزل آنا سانتانا وبين يدَيْها قطعة التريكو، فتطيح مونا بالنسيج والإبر، وترغمها على الإمساك بالمُسدّس. تقول لها: «إليك، لتتعلّمي كيف تجري الأمور هنا يا بنيّتي».

- «وماذا عن أركانخِل، أصغر الإخوة؟ هل تركوه حبيس غرفته؟».

- «كلّا. بل نزل إلى السرداب أيضاً، بذراعه المُضمّدة، وأخذ يطلب سلاحاً، ويتذمّر على استحياء لأنه يُعامَل معاملة الأطفال».

- «ومونا، هل كالَت له السباب؟».

- «كلّا. فهي لا تسبّ أركانخِل أبداً. بل إنها ابتسمَت له ابتسامة ملتوية، بأسنانها المعدنية، وبصقَت في وجهه ثلاثة أوامر عسكرية، الشيء الذي يُعَدّ تعبيراً عن المودّة الخالصة بالأخذ في الحسبان أنه آتٍ من مونا. بعد ذلك ناولَته السلاح الذي طلبه. غير أنها لم تسمح له بالخروج لينضمّ إلى المشاركين في المعركة».

وفي الباحة، بالأعلى، تفوح من الليل رائحةُ عرق الرجال المحمومين، وفي الهواء ترتجف رغبة مُقدّسة في الثأر، حادّة، صامتة. الإخوة غوميس أراوخو، والإخوة أراوخو بارّاغان، وپاخاريتو بوم بوم، وتيخيراس: كلهم يتأهّب لإنزال العقاب الشعائري في اليوم المرتقب. ينقسمون إلى مجموعات نزولاً عند أوامر ناندو، ويترقّبون الإشارة الخضراء جلوساً في سيارات جيب محرّكاتها دائرة، والزبد يسيل من أفواههم كالخيول في مضمار السباق، مُتوتّرين، مشدودين، مستغرقين في التركيز كالمتنافسين في سباق المئة متر. «تأهّبوا... استعدّوا... توقّفوا. توقّفوا! عودوا أدراجكم. إنها أوامر الزعيم. أطفئوا السيارات. أغمدوا السلاح. فليرجع الكلّ إلى الباحة مرّة أخرى».

لقد علم ناندو من فوره أن الحكومة بصدد عقد لقاء بين بعض المسؤولين والمدعوين الأجانب، ما بين السابعة والتاسعة، في واحد من أبنية وسط المدينة. ولذا نشرَت الشرطة العسكرية عشرات من الرجال في المنطقة من أجل حماية المشاركين، فضلاً

t.me/qurssan

عن المرافقين والحرّاس الذين حفل بهم المكان.

أما الميليشيا الخاصة بناندو بارّاغان فما كانت تواجه أيّ مشكلة مع الشرطة المحلية التي لا تزجّ بنفسها في شيء، بموجب الاتفاق القديم الذي يعمل به الطرفان حتى هذه اللحظة، وينصّ على مراعاة المصالح المشتركة، والتعايش السلمي، والتعامي عما يجري. ولكن مداهمة وسط المدينة في حضور الشرطة العسكرية والدوريات الآتية من الخارج يعني التدخّل في صراع لا دخل لهم فيه. لا بدّ من تأجيل العملية حتى الساعة التاسعة. يقول ناندو بارّاغان: «لا يهمّ. لا داعي للاستعجال. فالوضع يشلّ حركة آل مونسالبيه أيضاً».

يعاود الرجال إشعال السجائر والاستغراق في الشجن الوئيد الذي يغمر الجيوش المُسرّحة. يصدر ناندو أمره بتوزيع أقداح منقوع السكر الخام وقطع الجبن الطازج. بعض الرجال يستلقي على الأرض ويخلد إلى النوم، وبعضهم يتجاذب أطراف الحديث في العتمة.

في التاسعة يتّخذ المنتقمون وضع القتال مرة أخرى، ويملؤون الباحة صخباً مكتوماً، بين دبيب الخطا وصوت السلاح. يرشّون وجوههم بالمياه، ويستلّون أسلحتهم، ويرسمون علامة الصليب ابتداءً بالجباه، مروراً بالصدور، وصولاً إلى الكتف اليسرى ثم اليمنى، بعد ذلك يعودون إلى سيارات الجيب، حيث يترقّبون الزعيم الأعلى.

يتأخّر ناندو دقيقتين ريثما يبتهل إلى تميمته الحارسة. يشدّ عليها بيده في ضراعة، «يا صليب كاراباكا، في قوّتك ملاذي»، وفي تلك اللحظة بعينها، يدقّ جرس التليفون.

تجيب سيبيرينا.

- «اتصال من أجلك يا ناندو».

- «ليس الآن يا أمي، ألا ترين أني على وشك الذهاب؟».

t.me/qurssan

- «مهلاً. يقول المُتّصل إنه ماني مونسالبيه».

يسمع الاسم فيتخشّب جسده، وإذا هو كالعملاق المُتحجّر، وفي غمرة الانفعال والمفاجأة يغرز في راحة يده الصليب بأطرافه الأربعة.

- «هل دار بينهما حديث شخصي ذات مرّة؟».

- «مرّة واحدة في الكبر، تلك المرّة».

- «وكيف ذاع الخبر في الحيّ؟».

- «هكذا كانت تجري الأمور. كان آل بارّاغان على علمٍ بكلّ ما يجري في المدينة، وكُنّا -أهل المدينة- على علمٍ بكلّ ما يجري في بيتهم أيضاً. بدا لنا خبر الاتصال غريباً. كان ناندو وماني عدوَّيْن لدودَيْن تناصبا العداء مدى الحياة، متنافرَيْن كالماء والزيت، أو الكلب والقطّ، لم يجمع بينهما شيء سوى تبادل إطلاق النار، وإذا ماني يُجري ذلك الاتصال فجأة. ظنّها ناندو حيلة، أو مزحة، أو خدعة، غير أنه تلقى الاتصال على كلّ حال».

ناندو لا يعرف صوت ماني. وعلى الرغم من ذلك، فهو لا يكاد يسمعه حتى يتعرّف على دمائه.

- «كيف له أن يميّز ذلك الصوت، ما دام لم يسمعه قطّ؟».

- «ميّز صوته وهو لا يعرفه، بالغريزة، بحاسة الشمّ».

يميّز صوته من أوّل ألو، بيقين الذئب الذي يميّز عواء ابن جنسه. وإذا ألم مباغت في ركبته العاجزة يؤكّد له أن المُتحدّث هو الرجل الذي أتلفها رمياً بالرصاص. فيقول لسيبيرينا وهو يكتم السماعة براحة يده المصابة: «إنه هو».

ينطق ماني مونسالبيه بأربع كلمات ثم ينهي المكالمة.

- «وما هي تلك الكلمات على وجه التحديد؟».

- «يُقال إنه لم ينطق إلّا بأربع كلمات: حافِظوا على نارسيسو

t.me/qurssan

الليلة».

غرق ناندو بارّاغان في غياهب الحيرة. فما جرى لتوّه أمرٌ غير مسبوق على مدى تاريخ طويل من الحرب الدامية.

- «يُقال إنه، بعد الاتصال الذي تلقّاه من ابن عمّه الشقيق ماني مونسالبيه، لم يعُد الرجل الذي كانه من قبل. لقد أمضى عمراً كاملاً في القتال طبقاً لقواعد اللعبة، وفجأة يظهر العدو بلا مُقدّمات حتى ينبّهه إلى الهدف من الضربة القادمة، ويفشي له سرّ الخطوة التالية...».

يفتّش ناندو عن بصيص من الضياء في أعماق الإدراك، فلا يجد إلّا سرابات، وفرضيات، وشكوكاً، ولغواً بلا معنى. لو أنهم بصدد اغتيال نارسيسو، فما الذي يدفع ماني إلى تحذيره؟ أو لعلّهم يرمون إلى غاية أخرى، والغرض من الاتصال إثارة البلبلة؟ ما الذي يدفع ماني مونسالبيه إلى الاتصال شخصيّاً؟ أهي مُجرّد حيلة؟ ينظر ناندو إلى سيبيرينا، التي ظلّت واقفةً إلى جواره، ولكنه لا يخبرها بما قاله ماني. وإنما يكتفي بسؤالها: «هل أصدّقه؟».

- «صدِّقه».

- «إذاً، فلا بدّ من العثور على نارسيسو».

في تلك اللحظة قد يكون نارسيسو في أيّ مكان -حانة، مطعم، حلبة لمصارعة الديوك، مرقص، حفل- غافلاً، فاتناً، في مرمى سلاح العدوّ. فكيف الوصول إليه قبل الرصاصة القاتلة؟ سيبيرينا تملك الإجابة: «سان أنطونيو. سأضع سان أنطونيو رأساً على عقب».

- «إنها عادة قديمة شائعة في الحيّ. فكلما بحث أحدهم عن شيء، وظيفة أو عريس أو حتى مفتاح ضائع، وضع صورة القديس رأساً على عقب، القديس الذي يعثر على أيّ شيء حتى يعود إلى الوضع السليم، وتُرَدّ له قدماه مرة أخرى».

t.me/qurssan

- «وفي تلك المرة، هل آتى الأمر ثماره؟».

- «صنع معهم سان أنطونيو المعجزة. فظهر نارسيسو في البيت قبل مضيّ نصف ساعة، بمحض إرادته، ومن دون أن يعثر عليه أحد أو يتّصل به، جاء مُعطّراً مُتأنّقاً، في طريقه لحضور حفلٍ مقام في بيت عشيقته عارضة الأزياء».

من الباب المفضي إلى الشارع، يدخل نارسيسو بارّاغان، الشاعر، مرتدياً بذلة بيضاء، في عروتها زهرة غَردينيا. يأتي مشرقاً، باسماً، وقد خرج من الحمّام التركي وفرغ من المساج الياباني لتوّه، غافلاً عن كلّ خطر يحيق به، متناسياً كلّ حرب دائرة. يحمل في سيارته اللينكولن البنفسجية أزهاراً وشامبانيا للاحتفال بعيد ميلاد الفاتنة التي يودّ مطارحتها الغرام.

- «عام جديد سعيد!»، يصرخ في رجال أخيه المُسلّحين المُتأهّبين، وشهر أغسطس في أوجِه، ثم يمرّ بجوارهم وهو يرقص رقصة كومبيا مثيرة بخطاً ناعمة.

- «أما كان يعرف أن اليوم يوافق مُتمّماً؟».

- «بلى، ولكنّه يتصنّع البلاهة».

يلتقي بسيبيرينا، فينحني ليطبع قبلة رنّانة على جبينها، وفيما هو يدندن، يطلب منها أن تقدّم له صحناً من الأرز بالحليب، ولكنه لا يكاد يقطع خطوتين وهو يرقص الكومبيا السييناغيرا حتى ينقضّ عليه ناندو بارّاغان بكتلته البشرية الهائلة ويشلّ حركته.

يركل نارسيسو بقدمَيه محاولاً الإفلات منه، يصرخ، يلعن، والشرار المُذهّب يقدح من عينَيْه البديعتين. يفقد حذاء الموكاسين. وفيما هو يقاوم سدى، تتلوّث سترته، وتنفرط بتلات زهرة الغَردينيا، وتتفرّق خصلات شعره المُصفّف على طريقة كارلوس غارديل. يعتقله ناندو، بلا تفسير ولا هوادة، ثم يجرجره ويجرجره حتى يصل به إلى السراديب، هناك حيث يسلّمه إلى مونا، ويأمرها قائلاً: «لا تسمحي له بالخروج من الآن حتى الغد».

وإذا مونا تدفع وجه نارسيسو إلى الجدار، وتغرز ركبتها في كليتَيْه، وتصوّب بندقية سان كريستوفر إلى عنقه، على مسافة بالغة القرب من أذنه، وتقول له بأقسى نبرة تملكها: «ها قد سمعتَ بنفسك. لن تتحرّك من هنا حتى الغد».

- «بدّل ناندو بارّاغان استراتيجيته بناء على الاتصال الذي تلقّاه من ماني. والآن لن يتصيّدوا الأعداء في الفنادق، لأن هدفه الرئيسي حشد كلّ ما يملك من قوى للدفاع عن البيت، أي الدفاع عن نارسيسو، الذي وصل إلى البيت بالفعل. فبات لزاماً على آل مونسالبيه، متى وصلوا، فرض الحصار على الحصن ثم اجتياحه. لو استطاعوا. ستكون المعركة الكبرى، أروع المعارك. ولقد شعرنا نحن، شباب الحيّ، برغبة في لعب دور البطولة أيضاً. فانضممنا إلى صفوف آل بارّاغان وساعدناهم على إقامة الحواجز في الشوارع المجاورة، واستعنّا على ذلك بأحجار الأرصفة، والصناديق، والصخور، وقطع الأثاث العتيقة، وجوالات الرمل.

يقيم ناندو بارّاغان أشدّ خطّ دفاع عُرِف في البلد منذ عهد القراصنة. كما يتولّى قيادة القوات المُوحّدة، قوات ناصية النار، ويثبت حضوره في كلّ مكان، في الوقت نفسه، مثله كمثل الروح القدس، فهو يقيم المتاريس، ويحدّد مواقع القنّاصة، وينظّم صفوف الفصائل، والدوريات، وقوات الكوماندوز الانتحارية، والطلائع، والسّاقَة. لم تغِب تفصيلة واحدة عن هيمنته المطلقة، هيمنة سيّد الحرب العظيم الوحيد.

***

- «كلّما حان مُتقم اندلع الهرج والمرج في ناصية النار. ولكن آل بارّاغان يملكون القدرة على الدفاع والذود عن أنفسهم. اتّخذ أطفالهم ونساؤهم من السراديب ملاذاً، تحت قيادة مونا، أما الرجال فخرجوا لمواجهة آل مونسالبيه، والهلع يخيّم على باقي أرجاء الحيّ. لم تكُن لنا وجهة نقصدها، أو ملجأ نلوذ به، فأمضينا ليلتنا ساهرين، نترقّب الأسوأ».

كانت الليلة التي سرَت فيها الشائعة الزاعمة بأن العدو سوف يأتي

t.me/qurssan

ويستهدف نارسيسو بارّاغان هي أطول الليالي. هرب الشباب من آبائهم حتى يخوضوا الحرب. أما نحن، الشيوخ والعجائز، فأقفلنا أبواب المطابخ علينا، ورحنا نترقّب. طلع علينا الكاهن والنساء التقيّات كأنبياء يوم القيامة، وقالوا إن آل مونسالبيه سوف يمرّون ببيت إثر بيت كملائكة الموت، ويضربون كلّ بِكْرٍ فيها(********)، ما لم نسلّم نارسيسو. صدّقناهم، فاندلع يوم الحساب. ولكن كيف لنا أن نسلّمهم نارسيسو، وهو ليس بين أيدينا؟ راح الأشدّ حميةً وسطنا يؤلّبون النفوس حتى نتعاون في ما بيننا جميعاً على مداهمة بيت آل بارّاغان، وأخذ نارسيسو أسيراً، وتسليم رأسه لآل مونسالبيه حتى يهدؤوا. ولكن في ساعة الجدّ لم يجرؤ واحد على رفع إصبع في وجه آل بارّاغان. إذا كُنّا نخاف آل مونسالبيه، وهم الأعداء، فالرعب هو الشعور الذي كان يبثّه آل بارّاغان في نفوسنا، وهم الأصدقاء. الشخص الوحيد الذي احتفظ بهدوئه في الحيّ هو باكان، الذي تلفّت حوله من دون أن يرى شيئاً، وأغمض عينَيْه المغسولتين بالماء، بما لهما من بصيرة، وتابع مباراة الدومينو التي لا تنتهي. أما أصدقاؤه، وأفراد جماعته، فسهروا برفقته طوال الليل، من دون أن يرفّ لهم جفن.

- «بينما يكاد الليل ينتصف، سرى خبر يزعم بأن آل مونسالبيه ومن معهم على وشك الوصول، وبأن مجموعهم يربو على ستّين رجلاً، جاؤوا في اثنتي عشرة سيارة جيب. فاحتمينا خلف الأبواب مُسلّحين بالأحجار والعصي وقدور الزيت المغلي، ورحنا نترقّب الأسوأ. ترقّبنا طويلاً، ولكن أحداً لم يصل».

***

- «عند أهل الصحراء، كان المُتمّم، أي موعد الأخذ بالثأر، هو النقطة الحاسمة في نهر الدماء. كالضربة القاضية في الملاكمة، أو الهوم ران في البيسبول، أو الشقلبة رأساً على عقب في مصارعة الثيران. ولولا المُتمّمات لما عُرِف لتلك اللعبة رأس من قفا. كان المُتمّم يدوم ليلةً واحدة، فلا يطول عن ذلك دقيقة، ولا يقصُر دقيقة، طبقاً للتقليد الصارم الذي اتّبعه آل بارّاغان وآل مونسالبيه على مدى عشرين عاماً. طوال عقدَيْن من الزمان، راعَت الأسرتان

t.me/qurssan

تلك المواعيد في إجلال، إذ كانت تنظّم حياتهما في أطوار من الموت والثأر، طبيعيّة كالصيف والأمطار والصوم السابق على عيد الفصح وأسبوع الآلام وأعياد الميلاد. ولكن في تلك الليلة مرّت الساعات ولم تأتِ بجديد. ومنذ الاتصال الذي أجراه ماني، قرابة الساعة التاسعة، انصبّ تركيز آل بارّاغان على ناصية النار لحراسة نارسيسو. ولكن شيئاً لم يقع في تمام الثانية عشرة. ولا الواحدة، ولا الثانية، ولا الرابعة.

في الخامسة فجراً يتخلّى ناندو بارّاغان عن موقعه على الجبهة ويمرّ بمطبخ سيبيرينا حتى يستريح قليلاً. تسأله: «لا شيء؟».

فيجيبها مُتعجّباً: «لا شيء».

ولكن ما زالت أمامهم ساعتان.

أصدر أوامره بأن يحذِّره رجاله عند أدنى بادرة. تدقّ الساعة السادسة فجراً، وفي الباحة ينبثق الضوء الوليد فيوقظ الدجاجات على مجاثمها، ويوقظ الشحارير المُغرّدة، والكلاب، والقرد البذيء. أما آل مونسالبيه فلا خبر عنهم.

لم تسبق لسيبيرينا رؤية ابنها مُتوتّراً إلى هذا الحدّ. راحت سدىً يخنة البطاطس بالبقدونس التي أعدّتها من أجله كي تهدّئ من روعه، وأنّاتها إذ جعلَت تمسّد فروة رأس ابنها. يخلع ناندو النظارة الرايبان، فتتراقص كرتا عينَيْه الحسيرتين، من دون محور، مُلبّدتين من فرط الحيرة. ليس هجوم الأعداء هو الذي يثير في نفسه القلق، بل امتناعهم عن الهجوم. لا يتحمّل أن يفسدوا خططه. بل إن فكرة مرور مُتمّم واحد في سلام تُخرِجه عن شعوره، وتزيد شعوره بالجزع شيئاً فشيئاً، وكأنها الحمّى.

تدقّ الساعة السادسة والنصف، والدجاج ينقر الذرة، والصبايا الخادمات يفركن الثياب في حوض الغسيل، والكلّ يؤدّي المهمات الواجبة عليه، الكلّ عدا آل مونسالبيه، الذين لا يبدو لهم أثر. يسأل ناندو الخواء بصوتٍ بليد: «وماذا لو أنهم لم يهجموا؟ ماذا لو لم يسقط قتيل واحد هذه المرّة؟».

t.me/qurssan

فتردّ له سيبيرينا السؤال، كرجع الصوت: «وماذا لو تكرّر الأمر في المرة القادمة أيضاً؟».

تكاد الساعة تدقّ السابعة، موعد انتهاء المُتمّم. فتستحوذ على ناندو وعكة شاملة، مصحوبة باكتئاب وتسارع في ضربات القلب. يتحلّق آل بارّاغان حوله، جزعين. يصدر أحدهم حكمه: «إنه على وشك الإصابة بالزكام».

فيصوّب آخر قوله: «بل إنه الإجهاد».

- «بل إنه التوتّر».

فتقول سيبيرينا: «كلّا. بل إنه الظنّ».

- «الظنّ؟».

- «الظنّ بأن الحياة قد تكون مختلفة عما هي عليه».

***

إنه راديو سانيو، صغير ولكنّه قوي. وضعه ماني مونسالبيه على أذنه طوال الليل، بصوت يكاد لا يكون مسموعاً. تسأله ألينا المُمدّدة إلى جواره عن السبب الذي يمنعه من إطفاء الراديو، فيجيبها بأنه يرغب في الاستماع إلى الموسيقا. ولكن الحقّ أنه يترقّب النشرات الإخبارية.

يمضيان ليلتهما بين يقظة وسبات، وقد خدّرهما النعاس الذي يبعث عليه صوت الراديو الرتيب، وهما متعانقان، تائهان، وسط ذلك الكَوْن المثالي، كَوْن فراشهما الملكيّ الرقيق، الناعم، بلونه البنفسجي المُتورّد، ذلك الفراش اللاواقعي، الذي لا يحدّه حدّ، المنعزل، بما فيه من ساتان وريش.

- «دقّت الساعة السابعة صباحاً، ولم يرِد في النشرات الإخبارية ذكرٌ للخبر الذي كان يخشاه ماني بشدة، خبر مقتل نارسيسو. ما يعني أن المُتمّم قد انتهى وأن نارسيسو قد نجا بحياته».

إيلا العجوز تحضر لهما الفطور إلى الفراش. أما ماني، الذي تعوّد

t.me/qurssan

على الاكتفاء بالقهوة، فيطلب بيضاً وخبزاً ولحماً مُقدّداً وفاكهة، ويفاجئ إيلا وألينا بتناول الطعام بشهيّة مفتوحة، كما لم يُرَ في أيّ وقتٍ مضى. ثم يأمر بألّا يقاطعهما أحدٌ لأيّ سببٍ كان، لأنهما سوف يخلدان إلى النوم طوال النهار.

وأخيراً يطفئ الراديو السانيو، ويتعلّق بألينا خيريكو مثلما يتعلّق الصغير بأمّه، وفي وداعة يستسلم للغوص في أعماق منطقة الأحلام الهانئة، تلك التي لم يزُرها منذ أمدٍ بعيد. يصل إلى هناك، فيتجرّد من ثيابه، ويستحمّ في غديرٍ ماؤه عذب مُثلّج، يجري بين الصخور الخضر بلا انقطاع، وفي غير صخب، حتى يصبّ في مياه البحر.

- «إنه غدير عذراء الريح...».

***

مع رائحة القهوة الدافئة الطازجة يخيّم الهدوء على بيت آل بارّاغان. يستريح الرجال في الباحة وقد ارتسمَت على وجوههم أمارات الحيرة الخليقة بمن كان يترقّب نهاية العالَم ثم بلغه أنها قد تأجّلت ليوم آخر، في اللحظة الأخيرة. تهيم الحيوانات المنزلية في غفلة تليق بمن كان على مشارف الموت وهو لا يدري. تتساقط الشمس على الجميع في سخاء، وتغمرهم بالصفح والغفران.

يصعد نارسيسو بارّاغان من السرداب كالوحش الضاري. لا يبادر أحداً بالتحية، ولا حتى يجيب سيبيرينا التي تقدّم له خبز الأريبا مع البيض وشرائح الپاپايا.

- «قلتُ لكم إنهم لن يحضروا. ترّهات، مضيعة للوقت، محض خراء!».

يدمدم حانقاً وهو ينفض البذلة البيضاء، التي تلفَت ولم يعُد إصلاحها ممكناً، تلفت خلال أطول ليالي حياته وأشدّها بعثاً على الضجر، عشر ساعات جحيميّة، أمضاها مُطوّقاً بالمزاج العكر، وزهاب الأماكن المغلقة، وغازات المقابر المنبعثة من السراديب.

t.me/qurssan

يمرّ من أمام ناندو فلا يتفضّل بالالتفات إليه، بل يكتفي بالزمجرة غاضباً. ما عاد يرقص الكومبيا ولا يغدق على الحضور من فتنته: بل إنه يركل الكلاب ويتبرّم في وجه الناس. ما عاد يشعّ بياضاً وأناقةً: بل إنه بات قذراً، منهكاً، رثّاً، وكأنه شخص نكرة مثل پاخاريتو بوم بوم، أو سيمون بالاس.

يلتقط التليفون، ويتّصل بعشيقته عارضة الأزياء، يحاول السيطرة على صوته: «ليلة أمس عجزتُ عن الحضور، يا جميلتي... ليس لي ذنب في ذلك، يا حلوتي... أجل، أعرف، عيد ميلادكِ... أقسم لك إن هذا غير صحيح... دعيني أفسّر لكِ الأمر... أنتِ مُحقّة في كلّ ما قلتِ، ولكنّي... كلّ ما هنالك... انتظريني، سأحضر فوراً».

ينهي الاتصال، ويعجّل بالذهاب إلى دورة المياه، حيث يغسل وجهه بلا صابون، ويغسل أسنانه بلا معجون، ويبدّل قميصه من دون أن ينتبه إلى القميص الذي يرتديه، ثم يخرج من البيت كما يتسلّل الدخان، منفعلاً كتلميذ المدرسة المُتأخّر على دروسه، يمشّط شعره وهو يعدو.

- «لا بدّ أنها كانت المرة الوحيدة التي غادر فيها نارسيسو بارّاغان بيته من دون أن يتأمّل صورته في المرآة طويلاً...».

- «حقّاً. لقد بلغ من الاستعجال والغضب درجة منعَته من إلقاء تحية الوداع على صورته».

ينطلق بسيارته اللينكولن الفارهة، ويضغط على الدوّاسة بقوّة كي تحلّق مثل الطائرة النفّاثة. يقطع ناصية النار مثل نيزك بنفسجي، وبمقدّم السيارة يكتسح ساتر الرمال الذي لم ينتهِ الجيران من إزالته بعد. يلتهم الكيلومترات، فلا يلتزم بلافتات «قف»، ولا إشارات المرور.

تلفح أشعة الشمس كلّاً من السيارة اللينكولن ونارسيسو، الذي يغلي في الداخل ويحسّ دواراً بسبب رائحة عطره المُكثّفة، فيفتح النوافذ الأربع ويرحّب بالهواء الشديد الذي ينساب إلى

t.me/qurssan

السيارة دفقةً تلو أخرى، ويزيل عنه الإعياء ومذاق السهر المرير.

وأخيراً يصل إلى حيّ سكني على مشارف المدينة، حيث أشجار الجكراندە تظلّل الشوارع، وتقلّ حركة السير، وتنتشر الأسوِجة المُغطّاة بالجهنّميات البرتقالية والأرجوانية. لا يرى شيئاً، ولا يفكّر في شيء، إلّا في الكلمة المنقذة التي سوف يبادر بها ليتغلّب على تمنّع امرأة تركها ليلة أمس وهي تنتظر سدىً.

لو صدقها القول ما صدّقَت الحقيقة، ولو كذبها القول ما غفرَت له الأكاذيب. كيف يفسّر لها، وهي الفتاة الراقية، الممشوقة القوام المُتحضّرة، أنّه تركها تنتظر لأنه عجز عن التخلّص من أخته المُتوحّشة التي كانت تصوّب إليه بندقيتها؟

يترك خلفه بيوتاً فسيحة، زاهية، يشبه أحدها الآخر، ملحقة بها حدائق حيث النجيل مُشذّب بعناية، وفي مداخلها سيارات فارهة. خيرٌ له أن يتعلّل باجتماع عمل امتدّ حتى مطلع الفجر. أو بمرض مفاجئ أصاب أمّه: نوبة ربو، سقطة، إنذار كاذب.

يمرّ بمُتنزّه يلعب فيه الصغار على الأراجيح وتتجاذب الخادمات أطراف الحديث. وماذا لو أنه لم يفسّر لها شيئاً مما جرى، ولتذهب إن لم يرُقها الحال؟ فما أكثر النساء! ولكن لا، أبداً. لا يريد فقدانها. فالنساء كثيرات، ولكن كبرياءه لا تسمح له بفقدان امرأة واحدة، ولا سيما هذه...

يمرّ أمام مركز تجاري، يشتمل على سوبرماركت، وصيدليات، ومتاجر ثياب، ومكتب بريد، ومتجر أزهار. لو أنه عرّج بالمتجر واشترى من أجلها وروداً، فربما... ولكن لا، فمقعد سيارته الخلفي مُكتظّ بالأزهار الذابلة، تلك التي كان ينوي تقديمها ليلة أمس...

مخبز، مغسلة، متجر مجوهرات... في وسعه أن يشتري من أجلها زمردة... ولكن الوقت مُبكّر، والمتجر لم يفتح أبوابه بعد. يترك المركز التجاري خلفه، وينعطف يميناً، فيساراً، فيساراً مرة أخرى، حتى يبلغ شارعها.

في قلب المدينة المائجة التي زحفَت عليها الأكواخ الرثّة حتى

t.me/qurssan

ابتلعَتـها، يتفرّد هـذا الحـيّ بخلـوّه مـن القمامـة المُكدّسـة علـى الأرصفة، والحُفَر المنتشرة على الأسفلت...

يباشر بعض العمال إصلاح أعمدة الإضاءة، وهم عمال تابعون لمصلحة الأشغال العامة بثيابهم المُوحّدة، الجديدة، صفراء اللون، في حين اعترضَت شاحنتهم الرمادية نهاية الشارع.

إنـه حـيّ هـادئ، سـاكن... بعض الفتيـان يلعبون كرة القدم على قارعـة الطـريق. يطلـق نارسـيسو آلـة التنبيـه حتـى يفسـحوا له الطريق.

ها قد رآها: في البيت الثالث إلى اليمين، وقد أطلّت على السقيفة القائمـة أمـام البـيت، حافيـة القـدمَيْن، بنظـارة الشـمس الكبـيرة وقميص فضفاض وسروال قصير يكشف عن ساقَيْها اللتين يُقدّر طولهما بالكيلومتر. تلوّح إليه بيدها. أهي تحية؟ إذاً فربما لم تكُن غاضـبة... ولكـن لاعبـي الكـرة لا يفسـحون الطريق. ينفد صبره، ويطلق آلة التنبيه بلا انقطاع، ويطلّ برأسه من النافذة ليصيح طالباً منهم إفساح الطريق. أما هي فتبدو مشرقةً، رائعة. قد تكون سامحَته على ما بدر منه. نارسيسو لا يطيق صبراً على تقبيلها، وإن شـعر بالضـيق لأنـه لم يحضر هدية من أجلها... لو أعطاها قوارير الشامبانيا فربما... ولكن، في مثل هذه الساعة من ساعات النهار؟ أيّ عبث! سوف يقبّلها، وكفى.

ولكن فتيان كرة القدم لا يفسحون الطريق. أحدهم، فارع القامة، أشقر، دميم، أكبر من أن يلعب مع المراهقين، يدنو إلى السيارة.

نارسيسو لا ينتبه إليه، فهو لا ينظر إلى أحد سواها، بينما هي تترقّبه عند الباب. يرى أنها تستقبله بابتسامة مشرقة، خالية من اللوم، فيشعر بالهدوء.

يدنو إليه لاعب الكرة الأشقر أكثر فأكثر، يقف لصق باب السيارة وكأنه يودّ أن يطلب منه شيئاً. وفجأة يلمح نارسيسو شيئاً مُروّعاً في تعابير ذلك الرجل: ويحدس بنيّته في القتل مرتسمةً على وجـهه. وفـي النـهاية، فـي آخـر جزء مـن الثانيـة، تنفتـح عينـا

t.me/qurssan

نارسيسو، الشاعر، تنفتح عيناه البديعتان على الحقيقة، وبعجزٍ ترَيان ذلك الهزيل الدميم وهو ينزع فتيل القنبلة اليدوية بفمه ويلقيها عَبْر نافذة سيارته اللينكولن بلونها الأرجواني المُذهّب، لون التضحية الذي يلائم المذبح يوم الجمعة العظيمة، يوم الألم والصلب.

***

تمدّد نارسيسو، أو ما تبقّى من جثمانه المهترئ، عارياً في غبش مُصلّى العائلة.

يُلبِس الموتى أولئك الذين أحبّوهم أكثر من كلّ من عداهم: ولذا يلتقط ناندو بارّاغان قميصاً من الحرير الأبيض، مُزيّناً بالحلقات، يابساً بفعل النشاء، تتضوّع منه رائحة النظافة. ثم يميل على شقيقه الحبيب ويُلبِسه القميص بمشقّة نظراً للإصابات التي لحقَت بجسده، ويسوّي معصمه التالف، المُحطّم، بارتباك طفل بليد.

يسجّي وجهه بمنديل من الحرير ويمدّد جثمانه منكفئاً على وجهه داخل النعش فوق نسيج من الدانتيل.

- «على ذلك المنديل انطبع وجه نارسيسو الجميل، وإن بدَت ملامحه مثاليةً، مثلما كانت قبل القنبلة اليدوية. وما زال هذا المنديل المُشبّع بالبارود والعطر محفوظاً في الكاتدرائية، حيث يذهب أولئك الذين شُوّهَت وجوههم أو الذين أُجرِيَت لهم عمليات تجميل من أجل التشفّع به. يُخرِج الكاهن ذلك المنديل من المقصورة ليضعه على وجوه المؤمنين، فيطلع عليهم فجر اليوم التالي وقد برئوا من التشوّهات وسلموا من الندوب».

تقرع أجراس المدينة على إيقاع جنائزي يحجب السماء كسرب من الغربان، وناندو بارّاغان يحمل النعش على كاهله، يخرج به إلى الشارع مُوجّهاً قدمَي الجثمان إلى الأمام، ثم يسلّمه للنسوة اللائي يرافقنه سيراً على الأقدام وصولاً إلى المقابر، في موكب راكد مُتّشح بالسواد، كنهر خلَت مياهه من الحياة.

t.me/qurssan

يعود ناندو أدراجه وحيداً إلى البيت، وقد جنّ جنونه من فرط ما قرعَت الأجراس. يوصد باب المكتب على نفسه، ويكزّ على عودٍ بفكّي عملاق من أكلة اللحوم، مُطلِقاً زمام الغضب والألم. ومع كل دقّة جرس تتخلّل الهواء، ينهال ناندو بجبينه على الجدران الأسمنتية، فتتصدّع تحت وطأة نطحات جمجمته القوية. يمزّع ثيابه مزقةً مزقةً، ويهشّم قبضتَيْه. يطيح بالأشياء من دون حتى أن يلمسها، بلا شيء إلّا مغناطيس ثورته.

- «أراد تمويه شقاء الروح بألم الجسد، فعلى مدى حياته القاسية الطويلة، تعلّم كيف يتحمّل الثاني، أما الأول فلا».

- «يمكن تفهّم ألمه الجارف. إذ قُتِل نارسيسو، أخوه الحبيب، في غير الأوان، بعد انقضاء المُتمّم. قُتِل بقنبلة يدوية. لم يحدث في حربهم قطّ أن اغتيل أحدٌ بتلك القسوة، وبطريقة تنتهك القواعد المعمول بها على ذلك النحو. لم يسبق استخدام المُتفجّرات حتى ذلك الوقت».

- «لا يأبه فيرنيلي بذلك، فهو يقتل كيفما اتّفق له. ولكن ناندو لا يعرف ذلك. ولا يعرف حتى بوجود فيرنيلي».

تعود سيبيرينا أدراجها من المقابر، وفيما هي على الجانب الآخر من باب المكتب المُقفَل، المُوصَد بالرتاج، تسمع ضربات العقاب الذي يوقعه ابنها ناندو بنفسه، غير أنها لا تقطع حداده، من باب الاحترام. تقرّب مقعداً من الباب وتجلس لترافقه من مكانها في الخارج، وتنتظر. تقول: «قرع الأجراس يفقدك رشدك. لن تلبث أن تسكت».

تسكت الأجراس ويخمد صدى الضربات. والآن تتمكّن سيبيرينا من سماع أنفاسه: تلك الأنفاس المُعذّبة المُتهدّجة بفعل نحيب الفحل الخائر، الوحش الذي جُرِح جرحاً غائراً وانخلعَت أنيابه وتكسَّرَت روحه.

يبقى ناندو منزوياً على نفسه، صائماً، تائباً، على مدى ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. وفي اليوم الثالث يفتح الباب ويقوم من بين

t.me/qurssan

الأموات، حيّاً، ولكن هزيلاً، منهكاً، مُغطّى بالرضوض التي انتشرَت في جسده. يتناول قنينة من المياه المنعشة، ويضع رأسه المصاب في الحوض، ثم يترك جسده يتهاوى على سرير مُعلّق ويأمر رجاله: «اكتشِفوا من قتل نارسيسو».

يطلب مشورة سيبيرينا، ويسألها عن الشكّ الذي يأكله من الداخل، والذي لا يملك أن يجلوه سواها، لأنها هي الوحيدة القادرة على كشف طلاسم دمائها: «أمي، لماذا خدعني ماني؟».

- «ليس هو الذي خدعك».

***

- «هل رأيتَ القيظ يوماً وهو يطمس الأشياء من فرط شدّته، وكأنه يواريها بحجاب؟ فالوهج يموّج الصور، مثلما تفعل أبخرة البنزين. والضوء المفرط يحرق الألوان... هكذا رأينا آل بارّاغان يتمثّلون في المقابر، في ذلك اليوم المُتوهّج حين قُتِل نارسيسو: رأيناهم كالأبخرة. وكأنهم موكب من البقع فوق صورة فوتوغرافية محترقة».

- «كانت الصحافة حاضرة في المقابر، وأوفدَت الصحف مراسليها ومُصوّريها، إذ بات مقتل نارسيسو بارّاغان خبراً ذائعاً. قيل إن المُصوّرين لم يلتقطوا صورة واحدة صالحة: فهم لم يلتقطوا إلّا بريقاً يعمي الأبصار، بريقاً ليس من هذا العالَم».

مضى بعض الوقت وما زال الجيران والفضوليون يترقّبون ظهور آل بارّاغان. وفيما هم يترقّبون، يتّقون قرع الأجراس بسدادات من القطن، ويحتمون من لفحات الشمس تحت الأجنحة التي تبسطها الملائكة المصنوعة من الجصّ، حيث الأركان الظليلة الوحيدة في المقابر.

تشغل مقبرة الأسرة القطاع الشمالي الشرقي بأسره: هناك حيث تتراكم شواهد إثر شواهد، بما تحمله من أسماء منقوشة على الرخام الأمهق الذي يتداعى ويتكلّس. بعضها يحمل كتابة من قبيل: «إكتور بارّاغان، العادل»، «ديوميديس غ. بارّاغان. بيدَيْك

t.me/qurssan

رددتَ صاعاً بصاع». «ويلمار أ. بارّاغان. المنتقم لأبناء جنسه بفضل الرّب». وفي حالة أولئك الذين ينتمون إلى آل بارّاغان من جانب الأم يُختزَل لقب الأب إلى الأحرف الأولى متبوعة بنقطة، كي تظلّ العشيرة مُتّحدة موسومةً في الحياة الأخرى أيضاً. آل بارّاغان، والمزيد من آل بارّاغان، الذين لم يلقَ واحدٌ منهم ميتة طبيعية، ويترقّبون يوم الدينونة في قبور يلفحها النجم الأبيض الكبير وكأنها أفران.

- «أينال الموتى راحتهم الأبدية في مثل هذه الحرارة؟».

- «كلا. بل إنهم يتقلّبون في قبورهم، ويُطهَون في الغازات المنبعثة منهم، وتطبق على أنفاسهم الذنوب التي اقترفوها، وتنتفخ أجسادهم حتى الانفجار».

قبل أن يرى الجيران نساء آل بارّاغان، تتناهى إليهم أصواتهن آتيةً من بعيد، فتستحوذ عليهم الرهبة: تلك الآهات الأنثوية، الأشدّ حدّةً من أعلى الأجراس صوتاً، تراها آتية من الآخرة؟ كلّا. بل إنها أصوات بشرية، ها هي ذي تقترب، ويتبيّن السامع ما تقول.

- «مسكين يا نارسيسو، يا خسارة وسامتك الضائعة!».

- «يا خسارة عينَيْك السوداوَيْن اللتين سوف يذروهما التراب!».

- «يا خسارة عينَيْك البديعتين يا نارسيسو بارّاغان، عينَيْك اللتين لن تريا شيئاً تحت التراب، ولن تعثرا على أحد!».

- «قتلوا نارسيسو، الشاعر! فعلها الأعداء! لم يرحموا جسدك، حتى روحك اغتالوها!».

وحدها سيبيرينا تصرخ بصوت خفيض، أجشّ، يغصّ بالضغينة. وتهمس بشعار المعركة سرّاً، بترتيل وثنيّ لا يطلب الغفران، ولا الرحمة، ولا الراحة الأبدية: «أُريقَت دماء ابني. ولسوف يُؤخَذ بثأر دمائه التي أُريقَت».

- «وماذا عن قبر نارسيسو، هل نُقِشَت عليه كتابة؟».

t.me/qurssan

- «أجل. كتابة غريبة، تختلف عمّا دونها، وإن أملاها ناندو بنفسه أيضاً. إليك النقش الذي حمله شاهد القبر، ولا يزال يحمله، ما لم يطمسه القيظ والزمن: "نارسيسو بارّاغان، الشاعر. هنا يرقد قتيلاً، وهو الذي لم يقتل أحداً"».

***

في سيارة مُستأجَرة، يسافر المحامي مينديس مغمض العينَيْن عَبْر شوارع المدينة. يقود السيارة تين پويوا، مساعد ماني مونسالبيه وذراعه اليمنى. هو الذي أمر المحامي بإبقاء عينَيْه مغمضتين لئلّا يعرف إلى أين يمضي به. قال له تين: «اركب في الخلف، واستند على المقعد، وأغمض عينَيْك كما لو كنتَ نائماً. ماني لا يريدك أن تعرف إلى أين آخذك، ومن مصلحتك ألّا تعرف. من فضلك، اتّبع التعليمات».

يحاول المحامي مينديس أن يخلد إلى النوم خلال الرحلة ولكنه لا يستطيع، الأمر الذي يأسف له، لأن إغماض الأجفان طوعاً كلَّ هذا الوقت ليس يسيراً، ذلك أنها تبدأ في الاختلاج، منذرةً بأنها على وشك الانفراج. زد على ذلك أنه يحسّ بدوار. كانت النوافذ المعتمة للسيارة مُقفلة، فيحسّ بالقيظ، ويشقّ عليه التقاط أنفاسه، غير أنه يفضّل تركها على تلك الحال. فلو فتح النوافذ لساء الوضع وجازف بأن يلمحه رجال ناندو بارّاغان.

غاب تورّد وجنتَيْه الصحّي، وتلاشَت نضارة وجهه المعهودة، واضطربَت خفقات قلبه. لم يستقلّ تلك السيارة بمحض إرادته، وإنما بضغط من تين پويوا، الذي قصده لدى خروجه من مكتبه، في وسط المدينة، وقال إن ماني مونسالبيه يرغب في رؤيته، وقد أرسل في طلبه. خاطبه تين مراعياً الأدب، بلهجة غير آمرة. أما المحامي مينديس، فحاول الممانعة في بادئ الأمر، مُحتجّاً بأنه في تلك اللحظة لا يملك مُتّسعاً من الوقت حتى يسافر إلى المرفأ لمقابلة ماني.

فأجابه تين قائلاً: «ماني ليس في المرفأ. بل إنه هنا، في المدينة.

t.me/qurssan

لقد سافر إلى هنا لمُجرّد اللقاء بك، وما إن ينتهي الاجتماع حتى يعود».

استقلّ المحامي السيارة من دون أن يزيد على ذلك سؤالاً واحداً، فهو يعرف آل مونسالبيه جيداً ويعرف أن المرء لا يملك الرفض أمامهم. علاوة على ذلك، فلقد أدرك بالبداهة أن الأمر عاجل حقاً، من دون شكّ، وإلّا ما زجّ ماني بنفسه في المدينة بعد مقتل نارسيسو بارّاغان بأسبوعَيْن، فاتحاً صدره أمام غضب ناندو بارّاغان.

ها هو ذا الآن يسافر في المقعد الخلفي، يشتدّ الدوار بينما ينعطف تين بالسيارة مرة تلو أخرى ليضمن أن أحداً لا يقتفي أثره. يكبح الفتى السيارة بغتة، ثم يحرّك المقود بحدّة، وفي لحظة بعينها يتولّد لدى المحامي إحساسٌ بأن تين يسير عكس الاتجاه عَبْر إحدى الجادات، مراوغاً باقي السيارات. قبل أن يركب السيارة، لاحظ ميندیس أنها سيارة مُستأجَرة، بالنظر إلى المُلصَق المُثبّت على الزجاج. يبعث الأمر في نفسه قليلاً من الهدوء: إذ يُقلّل من احتمال أن يعثر عليهم آل بارّاغان، الذين يتصيّدون آل مونسالبيه كالكلاب الجائعة.

وبعد نصف ساعة من الروحات والغدوات، يوقف تين السيارة ويطلب منه النزول مُحذِّراً: «ولكن لا تفتح عينَيْك حتى أطلب منك ذلك».

يسير المحامي ميندیس على عمى، مطأطئ الرأس، مُتعلّقاً بذراع تين پويوا. يقطع رواقاً تفوح منه رائحة نظيفة، جديدة. يصعد عدة طوابق في المصعد السريع الهادئ، ويحسّ بأيدٍ تفتّشه من قمة رأسه إلى أخمص قدمَيْه، يسمع أحدهم وهو يفتح الباب، ثم يخترق مكاناً مفروشاً بالبُسط، ويحسّ بالبرد الصناعي الآتي من مُكيّف الهواء، ويجلس على مقعد وثير، وأخيراً يتلقّى أمراً بفتح عينَيْه، فيمتثل. ولكنه لا يرى إلّا نقاطاً من الضوء على خلفية سوداء، بعد الجهد الذي بذله طويلاً حتى يبقي عينَيْه مغمضتين.

وشيئاً فشيئاً يستردّ القدرة على الرؤية حتى يظهر أمامه، جالساً

t.me/qurssan

على مقعد مماثل، ماني مونسالبيه. يبدو أنه قد استحمّ لتوّه، إذ لفّ جسده بالروب، وقطرات المياه تتساقط من شعره. يطلّ من فتحة الروب مقبض المُسدّس الذي وضعه في حزام مُعلّق من كتفه، على الجلد. يمسك عبوة كولا رومان مُثلّجة، ويقدّم له أخرى. لم يتحدّث بصوته المعهود، وإنما بصوت أكثر قتامة. حتى إن الكلمات القلائل التي يدلي بها تنطلق متدافعة. يقبل المحامي عبوة المياه الغازية ويتلفّت حوله بينما يحضرها له الآخر. «نحن الآن في جناح فندق خمس نجوم، ولقد تركونا على انفراد»، يفكّر المحامي، في محاولة لتحديد موقعه.

في مناسبات أخرى، كانت المعاملات بين مينديس وماني سلسة، وأخوية، خالية من التوتّر والمُقدّمات. أما اليوم فلا. يتمهّل ماني قبل استئناف الحديث، في حين يسكت مينديس. يفضّل الانتظار. تتساقط الثواني واحدة تلو أخرى، ثخينة، وئيدة، عالقة في عقارب الساعة.

غارقاً في مقعده، يتعمّد ماني إطالة الصمت حتى يغدو عصيّاً على الاحتمال، من دون أن تبدو عليه أدنى رغبة في كسر الحاجز، وكأنه يختبر صلابة المحامي. ينتبه الأخير إلى ما يجري ويسعى جاهداً حتى لا يفقد السكينة: يتنفّس عميقاً ويتناول رشفات من السائل في تروٍّ. ماني أيضاً يتناول كولا رومان. وفي النهاية، يقرّر المحامي مينديس أن يتكلّم: «قل لي ما الأمر. أرسلتَ في إحضاري».

يجيبه ماني: «إنها ألينا خيريكو».

يكاد قلب المحامي ينخلع من صدره، لأن ظنونه قد تأكّدَت. «أجل، الأمر حسّاس»، هكذا يدور في خلده. كلمة خاطئة ويغدو في حكم الميت. يستجمع شجاعته، ويتمكّن من الحديث بصوت يكاد يكون طبيعيّاً، فيسأل: «هل ألينا خيريكو بخير؟».

- «ربما كانت بخير، ولكنها بعيدة عني. لقد رحلَت عن بيتي يومَ قُتِل نارسيسو بارّاغان. وأخذَت معها ابني قبل أن يُولَد. استأجرت شقّة وانتقلَت إليها. أتعرف يا أستاذ من ساعدها على استئجار

t.me/qurssan

تلك الشقة؟».

- «أجل، أعرف، كما تعرف أنت أيضاً، لأنك أمرتَ رجالك بمراقبتها ليل نهار. أنا الذي ساعدتُها في العثور على الشقة، والأثاث، والستائر، ومستلزمات المطبخ... فعلتُ ما فعلتُ لأنها طلبَت مني أن أسدي إليها تلك الخدمة، وقالت إنها ترغب في العيش بعيداً عنك، لحماية ابنها».

- «قبل أسبوع، دعَت ألينا بعض الأشخاص إلى تناول العشاء في تلك الشقة. أتعرف يا أستاذ مَن حضر؟».

- «أخواتها وأزواجهم، وأنا. وقُدّم لنا الدجاج المُحمّر في الفرن والبطاطس البيوريه وسلطة الخسّ والبيرة. هل مِن معلومة لا تعرفها بالفعل؟».

- «منذ ثلاثة أيام، سافرتَ على متن طائرة من المرفأ إلى العاصمة يا أستاذ. كُنتَ ترتدي بذلة كاملة، من الصوف...».

- «أجل. وفي وقت مُبكّر من ذلك النهار كنتُ أرتدي ثياباً من القطن. ثم بدّلتُ ثيابي في بيت ألينا. ذهبتُ لأساعدها وهي توقّع عقد الإيجار، ثم لم أحظَ بمُتّسع من الوقت قبل السفر حتى أمرّ بالفندق... ولكن لا، ماني، لستُ مُتورّطاً مع زوجتك. لا تنخدع بالأوهام، فهي لم تتخلّ عنك من أجلي. لو كان ذلك حقّاً، لاكتفيتَ بإزاحتي عن الطريق... غير أن المسألة أشدّ تعقيداً، وأنت تعلم ذلك. الأمر واضح كالشمس، أوضح من أن تتعامى عنه».

ومرة أخرى يتمدّد الصمت عَبْر أرجاء الحجرة، فيُثلّج قوارير المياه الغازية الحمراء كالصقيع.

لم تكُن مسايرة آل بارّاغان وآل مونساليبه في مزاجهم بالمهمّة اليسيرة على المحامي يوماً، ولا سيما إذا تملّكهم الضيق، والغيرة، كما هو حال ماني في هذه اللحظة.

«قد لا أبصر ضوء النهار مرة أخرى»، يدور في خلد مينديس وهو يحاول النظر عَبْر النافذة. غير أنه يعجز عن ذلك، لأن الستائر

t.me/qurssan

مسدلة. يحدّق إلى لوحة ضخمة مرسومة بدرجات شاحبة من الأزرق والأخضر، بألوان البساط وفرش الأثاث. في اللوحة يرى الموج يحمل مركباً شراعياً أشدّ سكوناً مما ينبغي، ويدور في خلده أن الرسم رديء. يراقب عينَي ماني مونسالبيه، الجامدتين الشاخصتين إلى نقطة ثابتة على البساط، وكأنما تترقّبان رؤية النسيج وهو يتضخّم. يرى قطرات الماء التي ما زالت تنساب على صدره، ويتوقّف عند المقبض الخشبي الذي يطلّ من بين ثيابه. ويفكّر: «ربما استلّ سلاحه، وانتهى أمري». لا تفاجئه الفكرة. بل إن ما يدعو إلى المفاجأة ألّا يكون أمره قد انتهى بالفعل.

ينحدر المحامي ميندیس من سلفٍ أبيض، بينما ينحدر آل بارّاغان وآل مونسالبيه من السكّان الأصليين، وعلى الرغم من ذلك فهم أبناء بلدة واحدة. تعود صداقته بالأسرتين إلى ما قبل الحرب التي اندلعَت بينهما. حين تورّطَتا في التجارة المشبوهة وخرق القانون، شعر المحامي ميندیس بأن مساعدة الأسرتين، كلٍّ على حدة، فُرضت عليه، مراعاةً لأواصر التضامن القديمة. ويوماً بعد يوم زادَت أرباحهما، وكذلك خصوماتهما القانونية، فوجد المحامي نفسه يتورّط أكثر فأكثر في الدفاع عنهما. كثيراً ما حاول التملّص منهما، فلم يستطِع. ذلك أنه استقلّ قطاراً ذاهباً إلى غير عودة، من دون عمد. جمعه بكلتا الأسرتين -آل بارّاغان وآل مونسالبيه- رباط زواج لا طلاق فيه، وأمضى الشباب وشطراً من أعوام النضج في تلك المهمة المضنية، مهمة البقاء على قيد الحياة من خلال الحفاظ على التوازن التام والحياد المطلق في مواجهة العشيرتين.

يعرف أن قوانين الأسلاف التي تراعيها كلتا الأسرتين هي التي تحافظ على سلامته، بطريقة ما، وتقضي بالحفاظ على حياة محامي الخصم، وكذلك حياة النساء والشيوخ والأطفال. فلا يجوز المساس بمحامي عدوّك -رمز الحماية، لا في مواجهتك أنت، وإنما في مواجهة العالَم الخارجي- بموجب القوانين الداخلية للحرب. المشكلة تكمن في غياب قوانين تمنع الأسرة من

t.me/qurssan

تصفية محاميها. بتهمة الخيانة، على سبيل المثال. وهو الأمر الذي يوشك على الوقوع. فعند رجال الصحراء، يُعدّ المساس بالزوجة شرّ خيانة.

حين طلبَت ألينا خيريكو دعمه كي تنفصل عن ماني مونسالبيه، تنبّأ المحامي ميندیس بوقائع اليوم بكلّ وضوح -تنبّأ بمثل هذا الحديث، والشعور بالاستسلام في وجه الموت، الذي لا يعدو أن يكون تعباً مفاجئاً من البقاء على قيد الحياة- وكأنه قد رآها مسبقاً في النشرة الإخبارية على شاشة التلفزيون.

كان جليّاً أن شخصاً مثل ماني لا يتّسع رأسه لاحتمال أن يتقرّب رجلٌ آخر من زوجته ما لم يرغب في مشاركتها الفراش. زد على ذلك أنه كان مُتّقداً، مُحطّماً، شاعراً بالمهانة، تحت وطأة افتراقه عن زوجته في الآونة الأخيرة. الأمر برمّته بدا للمحامي جليّاً منذ البدء. وإن لم تكُن طباعه تسمح له بأن يرفض مساعدة ألينا وابنها المستقبلي حتى يتسنّى لهما الإفلات من لعنة حربٍ عصيّة على فهمهما. فلم يجد بديلاً عن ذلك.

والآن لم يبقَ له ما يمكن عمله. يدور في خلده أن كلّ شيء مكتوب، فيستريح على مقعده، ويسوّي ربطة عنقه، ويستردّ ثباته، ويشعر براحة الضمير، فهو لم يمسّ شعرة واحدة من ألينا خيريكو، ولا حتى ألمح إليها بشيء.

ولكن... ولِمَ يكذب على نفسه متى حانت ساعة الحقيقة الكبرى؟... لَم يكُن السبب أنه لم يرغب فيها، بل لأنها لم تترك له فرصة. زد على ذلك مراعاته لحَملها... وفوق كلّ شيء، خوفه من ماني مونسالبيه. لم تذهب علاقته بألينا إلى أبعد من صداقة مخلصة تقوم على المهنية، صحيح. ولكن السبب في الأساس قرار ألينا بأن يكون هذا شكل العلاقة بينهما. يبتسم المحامي. يتأمّل قائلاً لنفسه: «سأدفع حياتي ثمن فكرة خاطئة». يتلهّى بالفكرة ويقلّبها مرة أخرى: «الموت جزاءً على إشْتِهاء امْرَأَة القَرِيب». يبدو له ذلك عنواناً في صحيفة صفراء.

يتململ ماني هو الآخر على مقعده في ضيق، وقد استغرق في

t.me/qurssan

تـأمّل مُعـذّب ومتناقض. فـي قـرارة روحه، يعترف بصحة كلام المحامي، فهي ليست مشكلة خيانة. ليتها كانت مشكلة خيانة، لاكتفى حينها بتصفية الدبّور الذي يحوم حول امرأته. ولكن لا، فالأمر أشدّ عمقاً، وأشدّ صعوبة. فهو من ناحية يشعر بالراحة لأنه لـيس مُضـطَرّاً إلـى قتـل صديق من أصدقاء العمر، ومن ناحيـة أخرى يأبى الاقتناع بأن علاج ألمه ليس هيّناً بقدر العيار الناري إذا أُطلِق على الرأس. يخوض جدالاً ذهنيّاً بينه وبين نفسه، فيقلّب تلك العملة على وجهَيْها، ويلقي بها في الهواء مرة تلو أخرى، مُتأمّلاً الصورة أولاً، فالكتابة، فالصورة مرة أخرى، فالكتابة مرة أخرى.

يمـرّ وقـتٌ طويـل، وعنـدما يصـبح الشـيء الوحيـد الذي يتـوقّع ميـنديس سماعه هو دويّ الرصاصة التي سوف تفجّر جمجمته، يتنـاهى إليـه صـوت مـاني قـائلاً: «أصـدّقك يـا أستاذ. أصدّق ما أخبرتَني به».

لم تكُن لهجته باردة، وإنما بالأحرى عاجزة، طفولية، على الرغم من الجهد الذي يبذله كي تخرج الكلمات قاسية.

- «أهنّئك. لقد أنقذتَ حياةً لتوّك. حياتك أنت. لك أن تذهب متى شئت، سوف يعود بك تين إلى حيث كنت عندما أحضرك».

لا يشـعر المحـامي مينـديس برغبـة فـي الـردّ، ولا يقـوى علـى النهوض. ما زال هناك، ساكتاً، يشعل سيجارة، على الرغم من علمه بانزعاج ماني من الدخّان، ويأخذ وقته كاملاً ليتناول ما تبقّى من كولا رومان، وكأن لم يكُن لديه شيء أفضل من ذلك لعمله مساء ذلك اليوم. عند ذاك يهبّ ماني واقفاً، ويزيح الستائر، ثم يشرع فـي النظـر إلـى الجـادّة المقابلـة، الحافلة بالبائعة الجـائلين ممن يبســطون بضـائعهم علـى الأرض، تحـت الظـلال الشـحيحة المتسـاقطة عـن شـجرات لـوز هزيلة. ومن مقعده، يـرى الشـارع ميـنديس أيضاً، ويميّزه: كانا على بعد مربعات سكنية قليلة من مكتبـه فـي واقـع الأمـر، علـى الرغم من الجـولات الطويلة التـي قطعها تين پويوا بغرض التمويه.

t.me/qurssan

يقـول مـاني وهـو مـا زال يـرنو إلـى الخـارج، مولّيـاً ظـهره إلـى المحامي: «أليـنا لا ترغب في الحديث إليّ، ولا حتى عَبْر الهاتف. أرسلتُ إليها عشرات من الورود، ولكنها تردّها».

ينتبـه ميـنـديس إلـى شـيء غـريب فـي صـوته. يتسـاءل: «أمـن المعقـول أنـه يبكـي؟». أجـل. تتـهدّج مقـاطع كـلام مـاني مُثقَلـةً بالدموع التي يداريها. يدور في خلد ميـنديس: «منذ دقيقة، كاد يصـدر حكمـاً مسـتعجلاً فـي حـقّي، وهـا هـو ذا الآن يبكـي على كتفي». ثم يجيبه باسماً: «ماني، أمهِلها بعض الوقت، وابحث عن حلٍّ واقعي للمشكلة! فالورود والأفعال اليائسة لن تؤدّي بك إلى أيّ نتيجة».

- «وما الحلّ؟».

- «الحلّ ينقسم إلى ثلاثة بنود، ولقد تطرّقنا إليها بالفعل. أولاً: صَفِّ الخصـومةَ التـي بينـك وبين آل بارّاغان. ثانياً: اشترِ المهد لابنـك والاحتـرام لنفسـك. ثـالثاً: اغسـل أموالك مرة وإلى الأبد، حوّلها إلى أملاك وأعمال مشروعة».

- «أحاول منذ أعوام، ولكنه ليس بالأمر اليسير».

- «الآن لـديك فرصـة اسـتثنائية. فـالبنك القومي يعتزم فتـح ما يُطلَق عليه "الشبّاك السرّي" لتلقّي ما يُحمَل إليه من دولارات من دون السؤال عن أيّ شيء، لا الأصل، ولا الاسم، ولا رقم تحقيق الشخصية، ولا أيّ شيء. الشرط الوحيد ألّا يزيد المبلغ المطلوب تغييره على ألف دولار للشخص الواحد. لو أرسلتَ مئة شخص لتبديل الحدّ الأقصى صار في وسعك غسيل مئة ألف دولار في يوم واحد».

- «هلّا ساعدتَني يا أستاذ؟ أعني، هلّا ساعدتَني لأخطو الخطوات الثلاث...».

يأتي صوت ماني ممتنّاً، نادماً، يكاد يكون ذليلاً، في وجه الرجل الذي كاد يلقى حتفه على يدَيْه، والآن يعترف له ماني بأنه الجسر الوحيد إلى زوجته.

t.me/qurssan

- «بالطبع».

ينهض المحامي مينديس، ثم يفرد سترته ويمرّر يده على شعره بـرقّة، كمـن يـربّت علـى رأسـه الـذي نجـا بمعـجزة، ويتـأهّب للانصراف. يستوقفه ماني: «مهلاً يا أستاذ. أنا مدينٌ لك».

يجيبه المحامي: «انسَ الأمر».

فيصرّ ماني: «أودّ مكافأتك على خدماتك بطريقة ما. قل لي من هم أعداؤك».

يدرك ميندیس المغزى من العبارة، التي هي وصفة قديمة للتعبير عـن الامتنـان شـائعةٌ بين أهـل الصـحراء، وتعنـي: «أعداؤك هم أعدائي».

فيجيبه بابتسامة غير مصطنعة قائلاً: «لا يستحقّون أن تقتلهم».

ثم يودّع ماني في مودّة.

***

- «هل يؤرّق ماني مونسالبيه التفكير بأنه قد خان ناندو بارّاغان بذلك الاتصال الهاتفي؟».

- «قليلاً، ولكن ليس بقدر ناندو. كلاهما يختلف عن الآخر. فناندو رجل مبادئ. وماني رجل وقائع. ناندو حالم صعب المراس. وماني رجل عمليّ لا يحلم بغير ألينا خيريكو. ناندو ابن الصحراء. أما مـاني فرحـل عـن الصـحراء مُبـكّراً للغايـة، قبـل أن تتسلّل رمال الكثبان عَبْر أنفه وتترسّب في رأسه».

***

يُمضـي ناندو بارّاغان الساعات منزوياً على نفسه في المكتـب، وهـو ينـجز أمـوراً لا عـهد لـه بـها مـن قبـل. يكـبّ علـى التحليـل والقراءة والتفكير وكشف رموز لا سبيل إلى كشفها. يمتنع عن الاغتسال، فتفوح منه رائحة نمرٍ حبيس في قفصه. لا يهدر وقتاً

t.me/qurssan

مع النساء، ولا يشرب، ولا يأكل: يعيش على القهوة والسجائر البيليروخا. ولا يباشر المسائل المُتعلّقة بالنقود. أخذ نارسيسو أسرار التجارة معه إلى القبر، فلا يبدو على ناندو القلق بشأن إنقاذها، فهو كلّما احتاج إلى النقود ابتهل إلى صليب كاراباكا. أما زوجته، آنا سانتانا، فقد نسي أمرها كليّاً.

- «المرء لا ينسى إلّا ما كان حاضراً في ذاكرته يوماً، وهي لم تفلح في الوصول إلى ذاكرته».

في عينَي ناندو، لا تعدو آنا سانتانا كونها خيالاً جالساً أمام آلة الحياكة طوال النهار، أما في الليل فلها حضورٌ أنثوي، يثير في نفسه قدراً من الرغبة، قد يزيد أو يقلّ، في فراشٍ مستدير لا يرقد عليه أبداً، لأنه يفضّل السرير المُعلّق، ولأنه يرتاب في أمر كلّ فراش، ولا سيما هذا الذي يبدو وكأنه لعبة في الملاهي.

في الصغر كان يتيه مندهشاً في مدينة الملاهي التي زادَت صدأ وجموداً بمضيّ الأعوام، بعد أن تركَت في قرى الصحراء نثارة من الصواميل والمسامير. غير أنه لم يركب قطارات الملاهي ولا دولاب الهواء ولا العربات المتصادمة قطّ: كان يكتفي بمراقبتها وحسب. وهكذا لا يعتلي ناندو فراش الزوجية المُهدَى إليه من نارسيسو إلّا بين الحين والحين، لدقائق قليلة، لا تكفي لأكثر من مضاجعة زوجته مثل الديك، في صمت، لأداء الواجب أكثر منه للمتعة، ومن دون أن يتوغّل إلى الأعماق.

حتى ذلك صام عنه الآن. وأمر بأن يهجر أركانخِل محبسه الإجباري، ويبقى إلى جواره. بالنبرة الحاسمة نفسها التي لجأ إليها حين أمر بحبسه، وقرّر أن يمنحه حريته المشروطة فجأة حتى يتّخذ منه مرافقاً دائماً.

- «ما الهوس الذي جمع بين ناندو وأراكانخِل وأنساهما باقي العالَم؟».

اسم واحد فحسب. أولمان فيرنيلي.

حين ذهب الجواسيس إلى ناندو بأولى المعلومات المُتعلّقة

t.me/qurssan

بجريمة مقتل نارسيسو، لفت نظره أمرٌ بعينه. في الليلة السابقة، سُجّل اتّصال ورد من بيت ماني مونسالبيه إلى مكتب الاستقبال في أوتيل نانسي، اتّصال من أجل شخص يُدعَى أولمان فيرنيلي.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها ناندو بذلك الاسم، الذي بلغه مكتوباً على قصاصة من الورق، فقرأه بصوت مسموع، سائلاً: «كيف يُقرأ؟ أولمان أم خولمان؟».

وحين سمعه للمرة الثانية، بلغه الاسم صراخاً رهيباً خرج من السراديب ودوّى في أرجاء البيت، إذ انتزعه پاخاريتو بوم بوم من أحد شركاء آل مونسالبيه، وقع في الأسر حيّاً. كان عجوزاً يُدعَى موسكا مويرتا، باغتوه وهو يرتدي ثيابه الداخلية في بيت عشيقة له، فجرجروه من خصيتَيْه، وحبسوه في السراديب، وعذّبوه حتى اعترف.

- «وشى بفيرنيلي وقال إنه مُدبّر العملية ضد رغبة ماني».

- «إذاً، فهل أكّد موسكا مويرتا ما حدسَت به سيبيرينا؟».

- «أجل. يقولون إن ناندو بارّاغان قد نزل شخصيّاً حتى يسمع الاعتراف بأذنَيْه، وإن آلامه قد خفّت إلى النصف: ظلّ يتألّم لموت نارسيسو، وإن تخفّف من خيانة ماني. ما زال غضبه غير منقوص، ولكنه الآن مُوجّه إلى شخص واحد: أولمان فيرنيلي».

من هو فيرنيلي؟ انصرف ناندو وأركانخِل إلى توثيق حياته ومعجزاته بنهمٍ مرَضيّ يليق بجامعي التحف. يتلقّيان المعلومات من ضبّاط يشغلون مناصب رفيعة مقابل الويسكي. يراجعان الصور والبيانات مرة تلو أخرى، فلا يتفهّمان الشخصية الخارقة للمألوف المرسومة أمام عيونهم.

- «لأول مرة في تلك الحرب يُقتَل فرد من آل بارّاغان، لا على يد آل مونسالبيه، وإنما على يد فيرنيلي. ذلك المجهول. وجد ناندو الأمر عصيّاً على الفهم، وأصرّ على الامتناع عن التصديق، وكأن خرق المُتقّم وانفجار القنبلة اليدوية لا يحملان توقيع رجل غريب، توقيع دخيل، (بالاسم واللقب)».

t.me/qurssan

اشتملَت السجلّات القضائية لفيرنيلي على جرائم الفرار من العسكرية، والتورّط مع جماعات حرب العصابات، وتقديم الاستشارات الحربية. تمرّ الصور الفوتوغرافية أمام نظارة ناندو بارّاغان السوداء، تلك التي يبدو فيها فيرنيلي خلف الأسوار، أو يظهر مُحيّياً الصليب المعقوف، أو مُتغنّياً بالأناشيد تحت راية المطرقة والمنجل، أو مُتلقّياً جوائز الاستحقاق، أو فائزاً بسباقات الدراجات. يتبدّل شعره بتبدّل الصور، فهو زاهٍ حيناً، وأسود حيناً، ومُجعّد حيناً، وقصير حيناً. يبدو فيرنيلي أكثر سمنةً تارة، وأكثر هزالاً تارة. يتلوّن كلّ ما في جسده كالحرباء، عدا قبحه الذي لا علاج له: ذلك أنه يبدو مُنفّراً للعين بغضّ النظر عن الزيّ الذي يتنكّر فيه.

يشرد أركانخِل وكأنه يلعب سوليتير بورق اللعب عبثاً، في حين يرتّب الصور صفوفاً على الطاولة، ويجيل بينها نظراته الناعمة الهادئة التي خُلِقَت لتأمّل المغيب. بعد ردح من الوقت يقول بصوت خفيض: «إنه رجل أشقر، أعسر، قليل الكلام، له أنفٌ ملتوٍ، وعينان مريضتان، ويبلغ من الطول مئة وثمانين سنتيمتراً».

يقولها بذلك اليقين الخالي من التشديد الذي لا يعيره ناندو والآخرون بالاً، لأنهم يخلطون بينه وبين السذاجة.

أما التقارير الاستخبارية فتتّهم فيرنيلي بأنه عميل في الـ CIA أو الـ KGB، وقائد نقابي، ومُتخصّص في إفساد الإضرابات. تقرّ الملفّات بأنه خبير في المُتفجّرات تدرّب على يد اليمين المُتطرّف في إسرائيل، وخبير في المدفعية تخرّج في مدرسة المُتمرّدين في هاڤانا. تشير قصاصات الصحف القديمة إلى تورّطه في هجمات على ثكنات عسكرية، وسرقات مصارف، وجرائم اختطاف راح ضحيتها بعض أصحاب الملايين. يذيّل رسائله الخاصة بتوقيع أولمان، أو أليريو، أو چيمي، أو تشولو، أو فلاكو.

من هو أولمان فيرنيلي، في حقيقة الأمر؟ بدأ ناندو بارّاغان يتبيّن الأمر جلياً. ويدلي بتشخيصه: «أولمان فيرنيلي ابن عاهرة تعيس».

t.me/qurssan

وكما تفعل دوّامة الخيل في الملاهي، تدور برأسه الخيوطُ المتشابكة التي نُسجَت منها التقارير القضائية، المتضاربة، الدولية. وناندو لا خرج من بلده يوماً، ولا جرؤ على ركوب الطائرة، ولا أتقن الحديث حتى بلغته. فليُعفِه الناس من حديث الصلبان المعقوفة، والمطارق والمناجل، فهو قائد بالفطرة، مجرم سوقي، شيخ قبيلة من أكلة لحوم البشر. إنه في حاجة إلى معرفة الأمور المهمة في حياة قاتل أخيه حتى يتصيّده. ما الذي يروق له من الطعام؟ من يشارك الفراش؟ ممّن يخاف؟ ولكن ليس هناك من يُطلِعه على تلك الأمور، لأن أحداً لا يعرفها.

ينسحب الرجلان طلباً للراحة، والفجر يقترب. يغلب النعاس أركانخِل على مقعده، بينما يحسّ ناندو بجلبة الببغاوات الأولى آتية من الباحة، وبالخطا عديمة الوزن لسيبيرينا وهي تتنقّل من قفص إلى قفص، حيث تنثر العشب وقطع الموز وفصوص البرتقال. عند ذاك يحكّ رأسه الهائل ويتذكّر الأيام الخوالي شاعراً بالحنين، أيام لم تكُن الحرب على آل مونسالبيه أكثر من تبادل إطلاق نار صاخب يدور بين الفتيان، حيث الأعيرة النارية كثيرة، والجرحى قلائل. يحنّ إلى زمن غير الزمن، زاخر بالبوهيمية والحفلات الصاخبة، كان الصراع فيه يُروَى على أنغام الموسيقا الشعبية: إذ يؤلّف نارسيسو الشاعر أغنيات يهاجم فيها آل مونسالبيه، الذين يستأجرون الموسيقيين حتى يردّوا الصاع صاعَيْن نيابة عنهم، لأنهم يفتقرون إلى ملكة الشعر.

- «كانت المدينة بأسرها تتابع مبارزات الأغاني التي تُعزَف في الأعياد والحفلات، بل إن واحدة من شركات الإنتاج أطلقَت أسطوانة تضمّ مختارات من أفضل تلك الأغاني».

يواصل ناندو إرخاء زمام الذكرى حتى يصل مُتأثّراً إلى أول يوم من أيام الحرب، لمّا قتل ابن عمّه الشقيق أدريانو مونسالبيه بسبب أرملة ماركو براتشو... ومن هناك يعود إلى الحاضر، فيحاول أن يخمّن الثمن الذي تقاضاه فيرنيلي لقاء تصفية نارسيسو، ويسائل نفسه ما إن كان القتل من أجل الحبّ والقتل

t.me/qurssan

من أجل المال إثماً واحداً.

- «لا بدّ أن وقتاً طويلاً قد جرى كي يتحوّل آل بارّاغان وآل مونسالبيه من حرب الأغنيات الشعبية إلى القتل المحترف البارد، على يد رجل يُدعَى أولمان فيرنيلي...».

- «بل إن دماء كثيرة قد جرَت، فوقع ما لا مفرّ من وقوعه».

يعتصر ناندو ورجاله أذهانهم وهم يتجادلون عما إذا كان أنسب الأمور هو البحث عن فيرنيلي في المدينة أم في الجبل، مواجهته ليلاً أم نهاراً، بالسلاح الأبيض أم بالأعيرة النارية، الإيقاع به في شرك أم مبارزته رجلاً لرجل. يتناولون الاستراتيجيات بالتحليل من أجل تحطيم روحه، ويضعون المُخطّطات حتى يرغموه على سفّ التراب، ينقّبون في نفسه، يدرسون عاداته، يكشفون مواطن ضعفه. حتى ينال الضجر من ناندو، ويقول: «كفى. اتركوا الفهم لأمّه، فأنا سأقتله على طريقتي».

***

وقف رجل يصطاد على ضفة النهر ذي التيار المتثاقل، الكثيف، الكستنائي. يطلّ من شرفة بيته الكبير المصنوع من الخشب، القائم على دعامات فوق الماء، وكأنه بعوضة طويلة السيقان، مثل بعوض الملاريا الذي يطنّ حول رأسه فلا يطرده بعيداً عنه. لا يتحرّك ما لم تقتضِ الضرورة القصوى. يعود بالصنّارة إلى الخلف ثم يلقي بالخيط النايلون الذي ينتهي بخطّاف إلى مسافة أبعد. ومن آنٍ إلى آخر، يتوتّر خيط الصنارة كلّما علق بنبتة مائية، فترتجّ لزوجة الهواء على وقع الذبذبات. يكاد النهار ينتصف وهو لم يصِد السمكة الأولى بعد. يقول بينه وبين نفسه: «لقد مات النهر المسكين، وما عاد يجري فيه سوى الخراء».

- «ما اسم ذلك الرجل؟».

- «لا اسم له. كان صيّاداً وحسب».

تطلّ امرأته من باب الشرفة سائلةً: «هل صدتَ سمكاً حتى

t.me/qurssan

أقليه؟».

الرجل: «كلّا».

المرأة: «حسناً، سأحمّر موزاً».

يلتقط الرجل صنارته، ويرفع الدلو الخاوي، ثم يركب قاربه ويجدّف وصولاً إلى مصبّ جدول يتساقط من أعالي الجبل. كان قد نصب شبكته فجراً عند المصبّ لعلّه يوقع ببضع سمكات الشابل. يرى عن بعد شيئاً يعرقل مجرى المياه، فيرغمها على المرور من فوقه. لا ينخدع بالأوهام: فعادةً ما تعلق فروع الأشجار المُتكسّرة التي يجرفها الغدير.

يدنو إلى الشبكة، ويدسّ يده. كلا، ليست فروعاً. تبدو أوراقاً... يستخرج منها حفنة. ليست أوراقاً.

- «ماذا كانت؟».

إنها أوراق مالية. يستخرج حفنة من الأوراق المالية. ثم يدسّ يده ويستخرج حفنة أخرى.

- «وما وجود كل هذا المال هناك؟».

هكذا راح يسائل نفسه، مرعوباً، مندهشاً، عاجزاً عن الردّ. كان مصعوقاً: فهو لا يجرؤ على الحركة خشية أن يتلاشى الكنز. عقله ما زال مصاباً بالشلل، ولكن جيبه يتجاوب. ما عاد يطرح المزيد من الأسئلة، ولا يرغب إلّا في وضع يده على الغنيمة. يتلفّت حوله، لعلّ المالك يظهر. لا شيء، ولا أحد. لا يراقبه إلّا بضع سحالي، بأيديها التي تشبه أيدي الأطفال. يخفق قلب الصياد بعنف، ويجفّ ريقه. يلقي نظرة على الجانبَيْن، خلسة، مذعوراً، خشية أن يباغته أحدهم. يرخي الشبكة محاولاً التقاط جميع الأوراق المالية العالقة. تنسلّ من بين يدَيْه أوراق كثيرة، تنطلق في اتجاه مجرى النهر، ولكن الشبكة ممتلئة على كلّ حال. يلقي بها في الدلو، غارقة في المياه، كالعجين، أما الأوراق المالية التي لا يجد لها في الدلو مُتّسعاً فيلقي بها في قاع القارب. ولدى

t.me/qurssan

عودته إلى البيت، يقول للمرأة: «انظري ماذا أحضرت».

يراقبان الأوراق بلونَيْها الرمادي والأخضر، تلك الأوراق اللامعة الساكنة كأسماك السردين النافقة. يقول: «هذه النقود ليست من هنا».

فتجيبه: «إنها دولارات، نقود بالدولار».

- «ما الذي يمكن شراؤه بها؟».

- «راديو جديد. وتلفزيون. بل وزورق يعمل بالمُحرّك...».

- «وماذا لو كانت مُزيّفة؟ علاوة على ذلك، لا بدّ أنها ملكٌ لأحد...».

تمسك المرأة بإحدى الأوراق المالية وتتفحّصها مقابل الضوء، ثم تعضّ طرفها وتفركها بطرف السبابة. وعند ذاك تدلي بحكمها: «بل إنها أكثر حقيقيةً من الجراح السبعة للعذراء مريم سيدة الأوجاع. وهي من الآن فصاعداً ملكٌ لنا».

تضعها في بعض السلال، وتهرع كي تجفّفها تحت الشمس، وتعلّقها على السياج المصنوع من الأسلاك الشائكة بمشابك الثياب.

***

على مبعدة كيلومترَيْن من مصبّ الغدير حيث عثر الصياد على الغنيمة، يمتدّ فوق الجبل واحدٌ من أملاك آل مونسالبيه. تلقّى الخولي والعمّال أمراً من السيد ماني مونسالبيه شخصيّاً باستخراج كل الدولارات المطمورة بعيداً عن الأعين. فنقّبوا في الحُفَر، وشقّوا الكهوف، وفتحوا مغارات علي بابا، واستخرجوا براميل ممتلئة بالنقود حُمِّلَت بعد ذلك على شاحنة. كان بعض الأوراق المالية قد تعفّن، ونخرَته الرطوبة، والعثّة، والعفونة. انسلّ أحد البراميل من بين أيديهم، فتدحرج حتى وصل إلى الغدير، وتهشّم دفعةً واحدة إثر اصطدامه بالأحجار، وإذا الدولارات تفلت وثّابة، طليقة، في طريقها صوب النهر.

t.me/qurssan

- «كانت تلك هي الأوراق المالية التي عثر عليها الصياد في وقت لاحق...».

- «هي بعينها».

وفي أملاك أخرى لآل مونسالبيه يعكف العمّال على المهمة نفسها، استخراج الثروات نزولاً عند أوامر ماني ثم تحميلها على الشاحنات. وكذلك في المرفأ، في عدد من البيوت والشقق، تُهدَم الجدران وتُستَرَدّ الدولارات من دورات مياه ومرائب مهجورة. وتُنتزَع الألواح من فوق الأرض، وتُعرَّى الأسقف المُعلّقة، وتُستخرَج الحقائب الممتلئة. كما تُستخرَج أكياس بلاستيكية محشوة بالأوراق المالية ومُحكَمة الإغلاق من خزّانات المياه.

وفي تلك الأثناء، يصطفّ طابور بطول خمسة مُربّعات سكنية أمام بناء البنك القومي المُشيّد بالحجر الأصفر في مركز المرفأ، وكأن الناس مُصطَفّون أمام دار السينما يومَ العرض الأول. المئات من الأقدام تترقّب، بعضها خلف بعض، تمضي خطوة خطوة، متراً متراً، لتدنو إلى الشبّاك. تمضي الأقدام وهي تجرجر الأحذية بصنوفها كافة، من ضمنها الأحذية المصنوعة من الجلد الأسود، وذات الكعب العالي، والمفتوحة التي تكشف عن الأصابع، والمصنوعة من جلد العجل الخشن، وذات النعل المطاط والرباط المضفور حتى الكاحل. فضلاً عن الأحذية الرياضية، الجديدة، أديداس، ذات النعل المزدوج، المُبطّنة، والأحذية الرياضية المهترئة، المُمزّق نسيجها. والصنادل التي لا ينفذ إليها الماء، والموكاسين السويسرية الأصلية ماركة بالي. زد على ذلك الأقدام الحافية التي دبغها تراب الطرقات، وغلّظها أسفلت الشوارع. فضلاً عن نماذج نادرة لعشّاق التميّز من الرجال، مصنوعة من القطيفة الحمراء والزرقاء، مُرصّعة بالألماس الزائف. أما صاحبات الأحذية وأصحابها فيبدون على القدر نفسه من التباين. ولا يجمع بينهم إلّا أمرٌ واحد: في جيب كلٍّ منهم لفافة من الأوراق المالية بقيمة ألف دولار، مملوكة لآل مونسالبيه.

جميعهم على اتصال بالأسرة من ناحية أو أخرى. فمنهم

t.me/qurssan

السكرتيرات في مكاتبهم، والعمّال في مزارعهم، والمُسلّحون في عصاباتهم، والطهاة، والبستانيون، فضلاً عن جيش من أبناء العمّ غير الأشقاء، وأعمام الآباء، والأصهار، والحموات، والعرّابون، والعرّابات: فقراء يكثر أمثالهم، حاضرون على الدوام، على أهبة الإتيان بأيّ شيء ما دام يدرّ عليهم بعض المال.

جُنّدوا للمساعدة في إنجاز مُهمّة بالغة الضخامة، مُهمّة غسيل الدولارات. إذ كُلّف كلٌّ منهم بتلقّي مبلغ ألف دولار، ثم الوقوف في الطابور، والتوجّه إلى الشبّاك المشؤوم، وتحويل الدولار إلى بيزو، والاحتفاظ بقيمة خمسة في المئة من المبلغ، ثم ردّ البقية حتى يودعها رجال ماني في حسابات جارية بأسماء شركاء وهميين في البنوك المحلية. يُفسّر لهم الأمر في دقيقتين، فيتفهّمون المهمة سريعاً، من دون الحاجة إلى طرح أسئلة، ويستعدّون لأداء المُهمّة على أكمل وجه.

وفي محيط الطابور يتعالى صخب كرنفالي، على أنغام ثلاث أغنيات مختلفة في آنٍ واحد، وتتكثّف سحابة من روائح الآباط والمقالي. يحاصرهم الباعة الجائلون بخبز الجبن، والفطائر، والشوفان المطهو، وشرائح الأناناس، والثلج المجروش المُحلّى بالعصائر المُركّزة المُلوّنة. وينصب باعة الفاكهة النشطون طاولات صغيرة تعلوها العصّارات لإعداد عصير الجوافة والساپوتي والغوانابانا، بينما طبيبٌ مثير للارتياب يروّج لبيض سحالي الإغوانا منظوماً في مسبحة ويزعم بأنه يعزّز القدرة على الغرام.

أما رجال ماني، بأسلحتهم التي يدارونها عن الأعين، فيمرّون بالمُصطفّين في الطابور جيئةً وذهاباً، يراقبونهم، لئلّا يهرب أحدهم بما في حيازته من دولارات.

- «يُحكَى أن البعض قد أفلح في ذلك».

- «صحيح. يُحكَى أن آنسةً في الطابور بدأت تشكو حاجة لا تُحتمَل إلى التبوّل. أمرها القتلة أتباع ماني بالصبر، ولكنها كادت تثير فضيحة، وراحت تتلوّى على نفسها، وتضع يدَيْها على موضع الكليتين، وتتوسّل قائلةً إنهما على وشك الانفجار. وفي النهاية

t.me/qurssan

سُمِح لها بقضاء حاجتها خلف حاويات قمامة في نهاية أحد الأزقة. ولكن الماكرة لم ترغب في قضاء حاجتها الخفيفة وحسب، بل إنها بدأت في قضاء حاجتها الثقيلة أيضاً، أما المسؤول عن مراقبتها لمنعها من الهرب فاضطُرّ إلى الإشاحة عنها بوجهه، لأن رؤية امرأة غريبة وهي تتغوّط أمرٌ مُنفّر مشؤوم. عند ذاك اغتنمَت هي الفرصة، فتأكّدَت من وجود المبلغ الضخم بين نهدَيْها، وانطلقَت هاربةً مع الريح الأخيرة وكأنها دمية منفوخة ثُقِبَت بإبرة. التفت المُسلّح للتحقّق مما يجري، فوجد الكومة وقد انغرز فيها طرف دولار مطوي، وكأنه راية مرفوعة. طارد الهاربة على امتداد مُربّعات سكنية كثيرة، حتى تعب الرصاص من فرط ما أخطأ الهدف، فعفا عنها، ذلك الرصاص الذي لاحقها في غلّ حتى يوقع بها العقاب على قذارتها ووقاحتها. يُقال إن ذلك الرجل ظلّ يشعر بالجبن مدى الحياة، وما زالت قهقهاتها ترنّ في سمعه حتى الآن. يُقال إن الآنسة المذكورة ذهبَت إلى باعة البضائع المُهرّبة وأنفقَت الألف دولار على ثياب داخلية من الدانتيل الفرنسي، كما اشترَت الوصفة الشعبية المعروفة باسم حليب المعشوقة، كي تحبل من عشيقها الميكانيكي الذي كانت تواعده».

***

ناندو بازّاغان ينعت أولمان فيرنيلي بأنه: «ابن عاهرة».

فلا يمرّ قوله مرور الكرام على سامعيه، لأن أحداً لم يسمعه ينعت أعداءه الذين يحاربهم بمثل هذا الكلام.

- «ليس أقدس من الأم عند آل بازّاغان، علماً أن أمهم شقيقة أمّ آل مونساليه. والعكس. ولذا كان سبّ أمّ العدو في مقام سبّ أمّهم».

يبلغ قول ناندو جميع أرجاء ناصية النار، فتكثر الأقاويل: «ما دام يقتل أبناء خالته، فأيّ شيء يتورّع عن فعله في مواجهة ابن عاهرة؟».

منذ عرف بوجود فيرنيلي، ما عاد ناندو بازّاغان قادراً على

t.me/qurssan

التفكير في شيء أو أحد سواه. وتركَت الرغبة في القتل بصمتها عليه، كما يترك الميسمُ المُتوهّج أثره على العجل الصغير. منذ تناهى إلى سمعه ذلك الاسم لم يعاود الانشغال بالتجارة، وبات الألم لموت نارسيسو شغفاً شهوانيّاً بالثأر، أما حبّه الشجيّ لميلينا الشقراء فما عادت له القوة نفسها. وخبا حتى هوسه بماني مونسالبيه، ذلك الكائن المصيري في حياته التي كرّسها لكراهيته بكلّ ما أوتي قلبه التالف من قوة.

وطوال أيام الحداد على أخيه، ظلّ ناندو حبيس الهواء الفاسد المُعبّأ بالتبغ في مكتبه، واضعاً نظارته السوداء في ما يشبه العتمة. صار من المألوف رؤيته برفقة أركانخِل، كاتم أسراره الذي لا يفارقه في هوسه الجديد الرتيب: وضع مُخطّط الأخذ بالثأر. ما كان ناندو يعرف أن أركانخِل المشرق المسالم يهوى الحرب. ولكن منذ آخى بينهما البحثُ عن فيرنيلي، اكتشف استعداداً خارقاً في ذلك الفتى، يليق بمُنفّذ إعدام توراتي في أوج القيامة، وها هو ذا يسائل نفسه عما إذا كان القرار بإبعاد أركانخِل عن السلاح قراراً خاطئاً.

تُظلم السماء. فلا يبادر أحدٌ بإضاءة المصباح الوحيد في الحجرة، ذلك المصباح المُعلّق في خمول من طرف سلك عارٍ يتدلّى من السقف. بلغ الاستغراق بالأخوَين حدّاً جعلهما يتركان الفاصولياء تبرد، بعد أن قدّمَتها لهما سيبيرينا.

- «كانت سيبيرينا تغذّي ابنها البكر ناندو بالفاصولياء، وتغذّي ضغائنه بذكر الثأر لشرف نارسيسو طوال الوقت، من خلال التلميحات التي كانت تدلي بها كالساهية كلما دلفَت إلى المكتب وهي تحمل صينية الطعام».

- «كثيراً ما قيل إن المُحرّك الحقيقي لتلك الحرب هو سيبيرينا، وحبّ الأم المغدور الذي لا يسمح بالغفران. وقيل إن ناندو هو آلة الحرب، بينما العزيمة الصلبة التي تحرّكه تكمن فيها هي، فلا تعطّش إلى الأخذ بالثأر كذلك الذي يعتمل في نفس أمٍّ ثكلى، قُتِل أبناؤها».

t.me/qurssan

يتفاهم ناندو وأركانخِل بطريقة مثالية، في ألفة أخوية لم ينعما بـها مـن قبـل. وحـين يـدركهما التعـب مـن ابتكـار صـنوف الثـأر البطولية، يشرعان في تبادل الذكريات، شأن الأطفال في المدرسة وهم يتبادلون صور الألبومات الرائجة.

يحدّثه أركانخِل عن العاصمة، تلك التي لا يعرفها ناندو، المدينة المُثلّجة حيث الحمير غزيرة الصوف، والأزهار مزغبة، والناس يتـدثّرون بالثقيل من الثياب في بيوتهم. وبصوت مُغنّي تانغو مرتعش، يستحضر ناندو الصحراء، أرض الأسلاف، تلك التي رحل عنها أركانخِل رضيعاً، إلى غير عودة. يحدّثه عن الهنود العراة الذين يلعبون بكرة من الأسمال البالية على أرض جرداء تكسوها الرمال، وعن قرى لا تبرح مكانها، مشدودٌ وثاقها إلى الأرض، على الرغم من حسن الضيافة الذي تلقى به المشّائين القادمين من بعيد، أولئك الذين يحكون قصص الأسفار، فضلاً عن المُهرّبين الـذين يعبـرون الحـدود لـيلاً مُحمّلـين بالبضـائع ويتلـهّون نـهاراً بالمقامرة بأرباحهم على مصارعة الكلاب.

يسمح الأخ الأكبر والأخ الأصغر للذكريات بأن تعود، وللساعات بـأن تتمطّى، وللفاصولياء التي أعدّتها سيبيرينا بأن تبرد، فلا ينتبـهان إلـى الحضور الصامت الذي يترصّدهما من مكانه عند عتبة الباب.

- «كان هناك شخص ثالث... مَن؟».

- «لا أملك لاسمه ذكراً. فهو كان وما زال نذير شؤم».

- «راكا بارّاغان، المُظلِم! ثالث الإخوة الناجين...».

يتابع ناندو وأركانخِل حديثهما. بينما يقف خلفهما الوحيد الذي ما زال علـى قيـد الحيـاة مـن بين إخوتهما التسعة الذكور، المُظلِم. يتّكـئ علـى حافـة البـاب، بَيْد أنـهما لا ينتبـهان لأنفاسـه غيـر المنتظمة، ولا لوقع نبضاته المُتقلّبة، لا يريان آثار الإبر في عروقه المُتملّصـة، لا يحسّان العرق البارد الذي يخضّب سترته الأبدية المصـنوعة مـن الجلد. لا يحدسان بخفقات قلبه الثلجي تحت

t.me/qurssan

وسام عذراء الكارمن، المخيط ببشرته، على الحلمة اليسرى...

كان أكبر من أركانخِل، وأصغر من نارسيسو. ولقد أمضى راكا بارّاغان أعوامه المُعذّبة، الأربعة والعشرين، في صنع الشرّ بنفسه وبالآخرين. لولا انحناء ظهره لصار فارع القامة مثل ناندو، ولولا انطفاء نور عينَيْه لصار جميلاً مثل نارسيسو، ولولا جرعات الهيروين والمرارة التي تجري في دمائه لصار عذباً مثل أركانخِل.

عرفَت سيبيرينا أنها قد أنجبَت ابناً تعيساً لحظةَ ولدَته، في غمرة الآلام الثاقبة، إذ رأت السحابة القاتمة في قرارة عينَيْه المفتوحتين. فقالت: «يجدر بالواحد الخوف من ذلك الطفل». أدرك ناندو طبيعة أخيه المنحرفة حين رأى حماسته وهو يعذِّب قطّاً، بينما كان في الثانية من العمر.

بلغ السادسة وهو لم يتعلّم الكلام بعد، وفي الثانية عشرة تبنّاه ناندو مُعتبراً إياه تميمة لجلب الحظّ، فلقّنه فن العنف وورّطه في كل تحرّكاته.

- «درّبه حتى يكون وريثه...».

أخذ بيده ومضى به عَبْر منحدرات الأنشطة غير المشروعة والحرب، ومرّر إليه كل خبرته القتالية من دون تحفّظات. بَيْد أنه لم يحبّه قطّ. لم يُفتَن به مثلما فُتِن بنارسيسو، ولا شعر نحوه بالعطف الحارس الذي شمل به أركانخِل. عرف راكا كيف يصبح أفضل الخبراء الاستراتيجيين وأمهر الرماة، وعلى الرغم من ذلك فإن الاستهانة التي كان يبديها في القتل ومشاهدة القتلى المتساقطين كانت توقظ في ناندو ازدراءً عجز عن إخفائه، تُرجِم إلى قسوة في المعاملة وشراسة في الكلام.

- «ناندو بارّاغان، ملك المجرمين، كان يزدري أمثاله من الناس وينظر بعين الإعجاب إلى أهل السلام، والرقيّ، والدراسة، والعقل. أما ذلك الذي أتحدّث عنه ولن أسمّيه باسمه فكان مُتوحّشاً، أسوأ منه».

كان ذلك الازدراء يأكل راكا من الداخل، وهو الذي لم يتخرّج في

t.me/qurssan

مدرسة القتلة مدفوعاً بالغريزة فحسب، بل وكذلك ابتغاء لمرضاة أخيه الأكبر. كان وفاؤه نحو أخيه يتزايد كوفاء الكلاب، التي تزيد ذلّاً كلما اشتدّت عليها ضربات العصي، ولأنه لم يفهم السبب في ذلك الازدراء الأخوي، سعى جاهداً إلى التغلّب عليه بالتفوّق في الإجرام والتمادي في القسوة. حتى إنه في الخامسة عشرة من العمر بات أمير الرعب الصغير، الذي لوّث يدَيْه بدماء عدد من أبناء آل مونسالبيه.

في السادسة عشرة من العمر وقع له أسوأ ما يمكن. إذ أوقفَته الشرطة، لأول وآخر مرة في حياته، وذلك شيء لا يتعرّض له آل بارّاغان قطّ، وهم الذين لا تطولهم ذراع القانون. أوقفه رجال الشرطة خلال حملة دورية ليلية وهم لا يدرون مَن يكون، مثله كمثل أي مُخرّب، فظلّ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ حبيس زنزانة مُؤقّتة مع اثني عشر سجيناً آخرين، حتى علمَت أسرته بما جرى وتمكّنَت من إنقاذه. اثنا عشر جرذاً خسيساً: من ضمنهم المُختّثون، ومجرمو السلاح الأبيض، وتُجّار الممنوعات. كانوا أكبر منه عمراً، وأوسع خبرةً، ففعلوا به كلّ ما راق لهم. خدّروه، وقبّلوه، وألبسوه ثياب امرأة، واغتصبوه. وحين خرج لم يرغب في الحديث إلى إخوته ولا حتى النظر إلى وجوههم. ولكن ناندو عرف بما وقع، فما كان منه إلّا أن فتّش بنفسه عن كلّ فردٍ من سجناء الزنزانة الاثني عشر، وأرداهم قتلى. غير أن شعوره بالنفور من راكا بلغ حدّ الغثيان.

عند ذاك تعب راكا من تحمّل الخزي واجترار المرارة، فرحل عن البيت، ومن ذلك الحين بات قاسياً، منعزلاً، سفّاحاً، شريراً، ينتقم من الناس على الخسّة التي ذاقها على أيدي الآخرين. يسرق ممن لا يملك، ويقتل من دون سبب، ويدهس العُزّل، ويسفك الدماء الباردة، ويقيم حفلات ماجنة حيث يحرّض الصغار من الجنسيْن على الانحراف.

- «أما نحن، سُكّان ناصية النار، فاضطررنا إلى تحمّل نزواته الخليقة بمراهق فاسد. كانت أعواماً سوداً على الحيّ. فكلّما لمس المُظلِم شيئاً بيدَيْه ذبُل، وكلما دنا إليه أحدٌ تجرّع الشقاء. ومن

t.me/qurssan

ذلك الحين ما عاد أحدٌ يرغب في ذكر اسمه، بل إننا غرسنا نباتات الصبّار ونصّبنا المكانس خلف الأبواب لطرد حضوره الملعون».

الفارس الليلي المُسرنَم، راكا بارّاغان، يقود درّاجات بخارية ذات سعة فائقة وسط نيران الجحيم والكوابيس التي لا يسجّل كلّ تفاصيلها عقلُه المُحنّط في الأحماض وعقارات الهلوسة. لا معاملة بينه وبين أسرته: باستثناء مونا، التي تحبّه حبّ العبادة، أما الباقون فلا هم يحبّونه ولا هو يحبّهم. في النهار يفترش رمالاً قذرة على شطآن ضائعة، وفي الليل يهيم في أراضٍ خلاء وكهوف ومكبّات قمامة، برفقة عصابة من القتلة في حالة مزرية، لا وجوه لهم ولا أسماء، يمضون في أثره كالظلال، حيثما ذهب. ما له أصدقاء سوى بندقية G3 تشتهر باسم «القطط الثلاثة» وخنجر لقبه «جُمعة». أما عشيقاته فهن «السيدة» (رشاش آلي M-60) و«السمراء» (قفاز من الحديد يطحن العظام) و«الراقصة» (مدية آلية، تقتل بأمرٍ من سيّدها ثم تعود إليه).

- «بات الفتى أسطورةً سوداء. كان يصنع كلّ ما وسعه من الشرّ، حتى الشرور التي لم يصنعها، نُسِبَت إليه على كلّ حال. فكلّما وقعَت كارثة، وإن تكُن فيضانات، وأوبئة، وجفافاً، أُلقِي عليه باللائمة. كان الأطفال يخشونه أكثر مما يخشون الغول، والشبح، والعجوز صاحب الجِوال. أما نحن، الكبار، فكُنّا نتضرّع إلى الرّب كيما يخلّصنا من المُظلِم».

يجلس أحدهما إلى جانب الآخر. ناندو، أصفر البشرة، وأركانخِل، ذهبيّ البشرة. يتحدّثان في تواطؤ، وحميمية، وقرب، حتى يُدير رأسَيهما حفيفٌ خافت، آتٍ من سترة المُظلِم المصنوعة من الجلد. تلك السترة السوداء، البالغة العبثية والعدائية في قيظ المدينة، تلك السترة التي لا يخلعها قطّ، وكأنها بشرته الثانية. ينظران إليه، وينظر إليهما، يحاول أن ينطق بعبارة، ولكنها تظلّ عالقة بلسانه الناعس. يأمره ناندو بهدوء غير شخصي: «اذهب يا راكا، فأنت واقع تحت تأثير المُخدّرات».

يسعى إلى الحفاظ على توازنه، واقفاً على ساقَيْه المُتردّدتين،

t.me/qurssan

مُترقِّباً في وداعة تليق بالكلاب، باحثاً في الأرشيف المُتخبّط لذاكرته المعطوبة عن كلمة تعبُر الهاوية، وتقطع المسافة، وتجعله مُستحقّاً للغفران، فلا يحالفه النجاح. يكرّر ناندو من دون أن يرفع صوته: «اذهب».

يمتثل له راكا في صمت، ويسير مبتعداً عَبْر الرواق، ماضياً صوب الشارع، ناشراً في طريقه نوراً أسود تعيساً يطرد حيوانات الباحة ويلقي بالظلال على الأركان.

يقول أركانخِل مخاطباً ناندو: «لن ننفعك بشيء، لا أنا ولا راكا. فهو مفرط الشرّ، وأنا مفرط الطيبة».

- «دفعتُ راكا إلى الأمام، ووقفتُ في طريقك. ولقد أسأتُ صنعاً في الحالَيْن. يجب ألّا يُرغَم المرء على شيء».

يرجوه أركانخِل: «دعني أنادِه، وإلّا فقدناه».

- «دعه يذهب. لقد فقدناه منذ أمدٍ بعيد».

***

في الليل، بعد قضاء النهار في قاعات الاجتماعات، وحضور لقاءات الأعمال المشروعة، يعود ماني مونسالبيه وحيداً إلى بيته الكبير المُطِلّ على خليج المرفأ الساكن.

رحلَت إيلا الطاهية العجوز مع سيدتها، وهو لا يعرف حتى أسماء الذين يخدمونه الآن. في غياب سيطرة ألينا المحكمة، وضع الحرّاس أيديهم على البيت رويداً رويداً، البيت الذي خيّم عليه إهمالٌ كريه يليق بشقة عُزّاب، بعد أن كان يسوده النظام التام، وكأنه واحد من فنادق «ميامي بيتش» الفاخرة. تتناثر الجوارب على المصابيح، وتمتلئ المنافض بأعقاب السجائر، وتتفرّق الصحف، وتتبعثر الصحون بما فيها من بقايا الطعام فوق المائدة، وتستلقي البنادق فوق الأرائك المزركشة، وتبدو آثار الأحذية الموحلة على البُسط الزاهية، بينما تظلّ أجهزة الراديو والتلفزيون مفتوحة صاخبة طوال الوقت. أما المزهريات الهائلة، التي كانت

t.me/qurssan

تمتلئ بالورود في ما سبق، فباتت خاوية، وما عاد يُسمَع صوت نِلسون نِد آتياً من النظام الصوتي، وانطفأ الزجاج والرخام الذي تركه ملح البحر دبقاً. وانمحى الأثر الأنثوي الذي تركَته ألينا خيريكو على الأغراض اليومية.

وصارت حجرة ثيابها الموضع الوحيد الذي ما زال ماني يجدها حاضرة فيه، وهي حجرة داخلية تبلغ من المساحة أربعة أمتار مُربّعة، مُكتظّة بالأرفف والمرايا ومُضاءة بعدد هائل من المصابيح، وكأنها حجرة ثياب نجمة من نجمات هوليوود. هناك ما زالت عطورها، أسرارها، ذكرياتها، همومها، أوقاتها الضائعة، خيلاؤها، كلّها ما زالت حبيسة، مُركّزة، بلا مفرّ، وكأنها قد ترسّبَت في كلّ حذاء لم تحمله ألينا معها، في كلّ صورة تركَتها منسية، في الثياب الداخلية الباقية في قاع الجوارير.

ولا سيما في الصناديق... الصناديق الصغيرة حيث كانت تحتفظ بحوائجها، من مختلف الأنواع والخامات (خزائن، وصناديق مجوهرات، وعلب خياطة، بعضها من الخشب، وبعضها من القشّ، وبعضها من الصدف، وبعضها مصنوع صناعة يدوية شرقية). لم يسبق لماني أن انتبه إليها قطّ، غير أنها الآن تشغل تلك الساعات الطوال، ساعات أرقه الليلي.

يعود ماني مونسالبيه إلى أشغاله، التي تزيد مشروعية وبعثاً على الضجر والتعب أكثر فأكثر، ويقفل باب حجرته بالمزلاج، ويُصدِر أمراً صارماً بألّا يقاطعه أحد، ثم يغسل يدَيْه بعناية ويلتقط الصناديق التي في حجرة الثياب الخاصة بألينا.

يفتحها بتفانٍ، وكأنها من المُقدّسات، ثم يفرغ محتوياتها على الفراش، وإذا هي ملأى بكنوز متناهية الصغر، منقوصة، لا طائل يُرتجَى من ورائها، مُكدّسة كيفما اتّفق: أوسمة، بطاقات، قصاصات، حلقات، تُحدّثه عن لحظات حميمية ومنعزلة في حياة زوجته، لحظات لم يحفل بها وهو يعيش برفقتها، والآن يحاول استحضارها باستماتة.

يلتقط كلّ زرٍّ وكأنه قطعة لا مثيل لها، ويحاول تخمين الثوب

t.me/qurssan

الذي سقط منه. يلتقط كلّ قرط لا زوج له، ويرغب في التحقّق من آخر مرة رآها فيها وهي تزيّن به أذنها. يتناول كلّ قطعة من البورسلين المُهشّم باحثاً عن البقية حتى يؤلّف بينها ويلصقها، في جهد عقيم لترميم الشكل الأصلي، أيّاً كان، ترميم ذلك الشيء الذي لا سبيل إلى كشف طلاسمه، الذي كان تامّاً ذات مرة ثم تهشّم، فاحتفظَت ألينا بالشظايا، وها هو ذا ماني يرغب في ردّه إلى الوجود بلهفةٍ عنيدة. تنسلّ من بين يديه الليالي وهو على تلك الحال: ينقّب في صناديق ملأى بالماضي.

وفي النهار يعود ناعساً، كارهاً، إلى حاضر تتناقص أهميته في نظره شيئاً فشيئاً. يمرّ على قائمة بأسماء الشركاء الوهميين التي أعاره إياها المحامي ميندیس، حتى يغسل ماله المُلوّث، وهم رجال من ذوي الألقاب المرموقة، ملتزمين بالكاثوليكية، آباء لأسر كريمة، وأعضاء في نوادي الصفوة، يعرض عليهم صفقات هائلة حيث يشارك هو بالمال وهم بالاسم والوجه.

لإدارة شركاته، عيّن ماني فريقاً شابّاً ونهماً من أبناء الأثرياء حديثي التخرّج في الجامعات الأجنبية، يتقنون الإنجليزية ويجيدون استخدام الفاكس والتلكس والكومبيوتر.

وليبدأ حياته الجديدة بوجه نظيف، قبل ماني بخلع الجينز والحذاء الرياضي، وبدّل بها أثواباً برّاقة وأحذية زاهية وأقمصة سوداً وربطات عنق بألوان الطيف لم تحسّن مظهره البتّة، بل إنها أكّدت خطاب اعتماده الرديء، أي تلك الندبة الخبيثة، وطريقته السوقية، وجهله الشديد. «إن غاب العلم، فاتّخِذ المال بديلاً»، هكذا راح يكرّر على نفسه كلما تعامل ومواطنين بارزين، فها هو ذا يغدق المال في شكل مساهمات وتبرّعات، ويدفع الحسابات كافة، ويغالي في تقديم الخدمات.

يدسّ يده في جيبه ليوزّع الأوراق المالية بالسرعة نفسها التي كان يستلّ بها سلاحه مُوزّعاً الرصاص في ما مضى. وعملاً بتوصيات محاميه، أهدى إلى كلّ شريك من شركائه سيارة رينو 12 لم تقطع كيلومتراً واحداً، في بادرة حسن نيّة.

t.me/qurssan

يوازن المالُ الذي بيّضه عملاً الاستراتيجيةَ الجديدة، فيقرّ بأنها تؤتي ثماراً طيبة. أما الشركاء البرجوازيون فهم أضعف مما كان يعتقد أمام النقود السهلة والأرباح المضاعفة بفعل السحر. تنفتح أمامه أبواب الأنشطة المشروعة في كلّ المجالات: استيراد السيارات، وتربية الماشية، وشركات الإيجار التمويلي والتخصيم، وبيع الأسهم والسندات المالية وشرائها، وشركات التأمين، ودور الربا، والمضاربة العقارية، وغيرها كثير، كلّها تبدو له أنشطة مجهولة وباعثة على الضجر بالقدر نفسه، تُترجَم إلى رسوم بيانية تصاعدية تدخل من إحدى عينَيْه وتخرج من الأخرى.

ولكنّه إذا عقد الموازنة آخذاً في الاعتبار أموره الشخصية، بدَت النتيجة مختلفة. لمّا حان موعد أهمّ حفلٍ راقص خيريّ طوال العام، في أبرز نادٍ اجتماعي بالمرفأ، ساهم ماني بشراء خمسين في المئة من بطاقات الدخول، وبدفتر الشيكات دفع أجور الأوركسترا، وثمن أزهار الزينة، والألعاب النارية، والمائدة المُؤلّفة من ثمار البحر والشامبانيا. فكُلّل الحفل بالنجاح وجُمِعَت خلاله تبرّعات طائلة من أجل إعادة تأهيل مدمني المُخدّرات. وختاماً، أقدم لفيفٌ من السيدات البارزات على تسليم باقة كبيرة من الورود لماني مونسالبيه وسط التصفيق والامتنان الذي عمّ الحضور.

فأوصاه المحامي مينديس قائلاً: «حانت اللحظة المناسبة. تقدّم بطلب الانضمام إلى النادي».

وقد فعل. كان قبول الطلب رهناً بأعضاء مجلس الإدارة، أي شركائه. فلم يكُن رفضه معقولاً.

ولكن النتيجة بلغَته في اليوم التالي، وقد ضمّت عدة أصوات بـ«لا». رُفِض الطلب. صوّت ضده أولئك الذين يعيشون عالة عليه، ويتطفّلون على ثروته.

قال ماني للمحامي باقتضاب: «يعشقون أموالي، أما أنا فيبغضونني».

لم تشُب كلماتِه ضغينةٌ، ولا خيبة أمل، إن هو إلّا فتور وإعياء.

- «ما دام لا يأبه حقّاً سوى لأليا خيريكو، فلماذا لا يرحل ماني مونسالبيه معها ويترك كلّ شيء، الحرب والصفقات والأمر برمّته؟».

- «لأنه لن يفعل. لأن الرجال لا يأتون بمثل هذه الأمور».

أين هي أليا خيريكو؟ يبدو أنها لم تكُن في أيّ مكان. وكأن فرس كوابيسها السوداء قد جرجرَتها نحو العتمة. أو كأنها قد تبخّرَت في أحلام الحبّ، أحلام ملكة الجمال، وراحَت تؤدّي دوراً في تمثيلية أخرى. أو كأنها قد انزوَت داخل نفسها لتختبئ مع ابنها وتلوذ بذلك الملجأ الداخلي، السرّي.

والحقّ أن أليا لا ترغب في رؤية ماني، ولا تسمع رسائله، ولا تفتح خطاباته، ولا تقبل تلقّي مكالماته. ولذا فهو يقضي نهاره في التجوال بثياب المُتأنّق الاستوائي، مُنفّذاً مشروعاته المالية وملتزماً بأجندته الاجتماعية. أما حياته الحقيقية فيعيشها ليلاً، منزوياً على نفسه في المخدع، هناك حيث يسعه التفتيش عن زوجته بين الصناديق، على أقل تقدير، ومن آنٍ إلى آخر، يخال أنه قد عثر عليها، للحظة من الزمن، في فاتورة عقد مُتكسّر، أو في مفتاح شارد لا يفتح قفلاً واحداً.

***

يعدو الحصانان في درب أفعواني يخترق الجبل، والأغصان اليابسة تخدش خصرَيْهما، وشجيرات البرينغاموسا الشائكة تلهب خطمَيْهما. يقي كلٌّ من الفارسَيْن ساقَيْه بطماق من الجلد، ووجهه بحافة قبعة الساڤانا بلونَيْها الأبيض والأسود.

يخرجان إلى أرض خلاء وينظران إلى الأسفل، صوب الوادي الكبير المُتوهّج بخيوط النهار الأخيرة. يديران رأسَيْهما بحركة نصف دائرية وئيدة، ويراقبان الضيعة المدهشة المترامية تحت أقدامهما، حيث تتناثر الماشية المُحدّبة وتهيم في سلام، في بحرٍ لامتناهٍ من المنحدرات المزروعة بأعشاب الماريجوانا.

t.me/qurssan

أحد الفارسَيْن -الشاب الذي تشقّ وجهه ندبة سمراء- هو ماني مونساليبه. أما الآخر -الكهل ذو الشعر الضارب إلى الشيب الذي يدخّن التبغ- فهو شقيقه الأكبر، فريبي.

يقول ماني، تاركاً حصانه يلوك العشب: «حسناً».

ثم إنهما يتّخذان طريق العودة، فيرخي كلٌّ منهما الزمام ويترك لحصانه العثور على الطريق وحده. يُخرِج ماني قدمَيْه من الركاب، ويتركهما مُعلّقتين، مرخياً عضلاته، مغمضاً عينَيْه، مائلاً بقبعته إلى الأمام. ينتفخ قميصه المفتوحة أزراره في مهبّ الريح. يترك ماني نفسه للقصور الذاتي يسنده فوق السرج، ولخبب الحيوان يهدهده، فيغفو وقد أدركه الإعياء من المسيرة على صهوة الحصان، تلك المسيرة التي بدأت فجراً. ينتبه فريبي إلى التعب الذي ألمّ به، فيخزه بقوله: «صرتَ ضعيفاً من فرط ما رافقتَ أصحاب البشرة البيضاء».

يفتح ماني عينَيْه، مُتوتّراً مرة أخرى، للحظة واحدة، غير أنه يفضّل التغاضي عن ذلك الاستفزاز. يجيبه على مضض قائلاً: «مممم». ثم يعود مرة أخرى إلى النعاس والعرض المستمر في شاشة الذاكرة، حيث تُعرَض ذكراه الوحيدة، ألينا خيريكو.

يمضي فريبي قدُماً، هادئاً، والسيجارة مُدلّاة من شفته السفلى، بينما هو يُقلّم أظفاره بنصل المدية. ما كان أحد ليقول إن الصدام بين الأخوَيْن مونساليبه كاد يصل إلى حدّ العنف منذ زمن قصير للغاية، بسبب مقتل نارسيسو بارّاغان. غير أن النفوس قد هدأت رويداً رويداً، والفضل في ذلك يرجع إلى اتفاق عُقِد بين الإخوة جميعاً، يقضي بأن يتولّى ماني الشؤون المدنية، والقانونية، في حين يتولّى فريبي الشؤون الميدانية، والسرّية.

عمليّاً، انقسمَت بذلك الزعامة إلى اثنين، بعد أن كانت حتى ذلك الوقت واحدة فحسب. ولكن ماني رضي بالتخلّي عن السلطة في ما يشبه السرور، مقابل البعد عن المشكلات والفوز بالحرية من أجل تنفيذ مُخطّط الاتجاه إلى الأنشطة المشروعة. والآن يتولّى

t.me/qurssan

كـلٌ منـهما شـؤونه مـن دون التعـدّي علـى الآخـر، وبـين الحـين والحـين، كما فـي هذه اللحظة، يمرّ ماني بالمزارع في زيارات الغـرض منها إجـراء تفتيش سطحي، فكان يغتنم تلك الفرص لينزّه روحه في مراعي الخيل، روحه الكسيرة إثر هجران زوجته.

يهبط الليل صافياً منعشاً، ولم يعُد أمامهما سوى القليل حتى يبلغا بيت المزرعة، عند ذاك يتناهى إليهما من أعلى الجبل صدى حادّ، صدى قهقهةٍ رنّانة. فزّ ماني على السرج، وكأن تياراً كهربائيّاً قد سرى إليه. يكذب عليه فريبي: «لعلّه البوم».

بينمـا يـرهف مـاني سـمعه: «كـلّا، لـيس البـوم». كـانت ضـحكات ذكورية، صارخة، كنعيق الغراب. ينخس ماني حصانه بالمهماز، فـينطلق عـدواً نحـو مصـدر الصـوت. يمضـي فـريبي فـي أثـره. يتوغّلان في المساحة الخضراء مرة أخرى، ويسلكان درباً صاعداً إلى الجبل، من خلال الدكنة، حتى يستوقفهما صوت آتٍ من جهة اليسار، قريب جداً.

- «مَن هناك؟».

يجـيب فـريبي مـدلياً بكلمـة السـرّ: «صـبراً لحـين القصـاص مـن الخنازير!».

يسمع ماني الرجلَ الخفي وهو يشاور أحدهم عَبْر اللاسلكي ثم يصيح فيهما: «تقدّما».

الـدرب شـديد الانحـدار، ولـذا يمضـي الحصـانان صـعوداً بخطـا مُتعـثّرة حتـى يصـلا إلـى غابـة مـن أشـجار الجرومـة المُفضّضة المهيبة تحت القمر، مغروس في وسطها بيت يضيئه مصباحُ زيت إضاءة خافتة. ومن قلب العتمة الكثيفة يسأل صوت خفيّ آخر: «من هناك؟».

فيكرّر فريبي كلمة السرّ: «صبراً لحين القصاص من الخنازير!».

ومرة أخرى يُسمَع همس عَبْر الموجات قصيرة المدى، حتى يُسمَح لهما بالمرور.

t.me/qurssan

البناء ضخم، بلا جدران، يبدو ثكنة جنود تفتقر إلى النظام والنظافة، وتختمر في هواء عطن، هواء رجال قذرين، وحيدين. على أحد الجانبَيْن شُقّت مساحة خالية من أجل ارتجال هدف للتدريب على الرماية. وفي الداخل بدَت أسرّة مُعلّقة وأسلحة وأبواط وملابس عسكرية. قرب المدخل تبدو رسمة صارخة على الجدار، فيرى ماني جمجمة تعتمر بيريه أحمر، تتسلّل أفعى من أحد محجرَيْها وتخرج من الآخر، وأسفلها نُسِخَت حروف الأسطورة الآتية: «السعادة هي عدوّ قتيل».

لا أحد هناك. يدخل ماني إلى المكان. يعدّ الأسرّة المُعلّقة: ثلاثة وعشرون. يفاجئه تنوّع الأسلحة والأعيرة التي تسجّلها عيناه من أول نظرة: مدافع رشاشة مادسن، وبنادق M-1، ومُسدّسات ماغنوم 357، وخناجر قتالية، ومناظير، وتلسكوب، وقوس حديث فائق الدقّة، ومخرطة يدوية لحفر الرصاص وجعله قابلاً للتشظّي.

فوق إحدى الطاولات بقايا طعام، وقوارير شراب خاوية، وخرائط، وكشّاف، وبضعة ملصقات إنجليزية: تقنيات القتال، ودليل النجاة، وأسلحة المقاتل.

يلتقط ماني الكشّاف ويضيء القسم الخلفي: على السياج المرتفع الذي يحمي البناء من الخلف، رسم فنانو الغرافيتي الهمج جماجم أخرى تعضّ بأسنانها على الخناجر، وشعارات أخرى: «ابقِ حذاءك نظيفاً، ويدك مُلوّثة». «سافِر إلى أراضٍ بعيدة، وتعرّف بأشخاص جديرين بالاهتمام... واقتلهم!».

يطفئ ماني الكشّاف. يسأل فريبي، وإن كان قد خمّن ما يجري بيسر: «ما كلّ هذا؟ مُخيّم فيرنيلي؟».

فريبي لا يحير جواباً، وإنما يكتفي بنفخ الدخان من فمه وأنفه. يستفهم ماني مُجدّداً: «أتبقي هذا الرجل هنا، حيث يدرّب القتلة؟».

- «ليسوا قتلة، وإنما جماعة دفاع ذاتي، مُؤهّلة لحماية المزارع من

t.me/qurssan

انتهاكات الجيش أو هجمات جماعات حرب العصابات، ومن لصوص الماشية، والمختطفين... الأخطار كثيرة...».

يعرف ماني أنها أكاذيب، غير أنه يلزم الصمت. ويعرف فريبي أن ماني يعرف بأكاذيبه، ويسترعي انتباهه صمت أخيه.

- «ربما كان توزيع الأدوار يلائم ماني. أعني أن انشغاله بالقوانين والمفاوضات، في حين يتولّى فريبي وفيرنيلي وقتلته باقي الأمور من تحت الطاولة، أمرٌ لا يضيره...».

- «ولكن الشجار بين ماني وفريبي كان حقيقياً. إذ اشتبكا في صراع دامٍ للسيطرة على الأسرة. فلكلٍّ منهما كبرياؤه ورؤيته للطريقة التي يجب اتباعها في إدارة الأمور. في الأسابيع التالية لمقتل نارسيسو، بلغَت الحال بأولئك الذين يحيطون بهما حدّ الخوف من انتهاء تلك الخصومة بمقتل أحدهما. ثم هدأ الوضع شيئاً فشيئاً».

- «ربما هدأ الوضع لأن ماني عرف أنه لن يحقّق شيئاً بالتي هي أحسن. والحق أنه حين اكتشف مُخيّم فيرنيلي السرّي، لم يقُل له شيئاً».

- «عجزاً منه... أو عزوفاً عن الإدلاء برأيه في الأمر. من يدري! من المستحيل أن يعرف المرء ما خطب أولئك الناس».

يُسمَع اللغط والضجيج على مسافة أقرب من ذي قبل، ها هم ذكور الغربان ينعقون، ويصيحون، ويطلقون النار في الهواء. ينظر ماني إلى الخارج فيراهم مقبلين. يمضون نزولاً من الجبل كعصابة من الدمى، بما لهم من أزياء مُوحّدة مُموّهة ووجوه مُلوّنة بالأخضر والأسود. كانوا هجيناً من الجنود وقُطّاع الطرق والصعاليك: يلعبون بين تدافع وتضاحك، وكأنهم يتدرّبون على الرماية مُسدّدين أسلحتهم إلى أقدام بعضهم بعضاً.

ومن ورائهم، يمضي أولمان فيرنيلي نزولاً، مجرّراً قدمَيْه، صامتاً، هزيلاً، بشعره الأصفر الضارب إلى الرمادي، الملصق برأسه أسفل البيريه، ذلك البيريه الأحمر بلون عينَيْه الملتهبتين. يتعرّفه ماني

t.me/qurssan

فيعجّل بالذهاب. ليس لديه ما يقوله له. يمتطي حصانه وينطلق في الاتجاه المعاكس. ولا يكاد يشرع في نزول المنحدر حتى يسمع صوت فيرنيلي الخارج من أنفه، إذ يودّعه في تحدٍّ: «الوداع يا سيدي!».

***

- «بات ماني وفريبي وجهَيْن لشخصٍ واحد. فريبي الوجه الأسود، وماني الوجه الأبيض».

- «صحيح. كانا يتنافران كالماء والزيت، ويخاف أحدهما الآخر، وفي الوقت نفسه يعتمدان أحدهما على الآخر كالتوءَمَيْن. دع ماني يقف في الشمس ما شاء الوقوف، فظلّه سوف يتبعه حيثما ذهب».

- «فريبي. كان فريبي هو ظلّه الخبيث».

***

خفيفاً، مُذهَباً، وكأنه يسبح في ضوء كاتدرائية، أركانخِل بارّاغان يسبح فوق فراشه الذي تسوده الفوضى. في ساعة سابقة من ساعات النهار، كانت الخرساء قد دخلَت إلى حجرته، حافية القدمَيْن، منعزلة في حدادها، لتجلب إليه الفطور وتضمّد ذراعه. مضَت الأعوام وشُفِي الصغير، وعلى الرغم من ذلك فما زالت الطقوس تتكرّر بحذافيرها يوماً بعد يوم، إذ تنفق الخرساء من الوقت والجهد في الاعتناء بالندبة الموشكة على الشفاء مثل ما كانت تنفقه في الاعتناء بالجرح الحديث.

يكاد النهار ينتصف، غير أن أركانخِل لا يريد القيام، وقد اعتراه الوهن إثر الليالي المتعاقبة التي أمضاها ساهراً برفقة ناندو، والصراع الداخلي المحتدم الذي يخوضه كلّ نهار ضد حبّه الوحشي نحو خالته، الخرساء.

تفتك به رغبة في تلك المرأة المُحرّمة، رغبة عارمة مُثقلة بالذنوب العظام. عقله الغضّ وجسده المراهق ينوءان بحمل ذلك

t.me/qurssan

الإثم الرائع، الفظيع. بات يُكثِر من الصلاة في الآونة الأخيرة، طالباً الغفران. يتلو الصلاة الربّانية وقانون الإيمان، مرّةً تلو أخرى، فتقطع ذكراها صلاته في كلّ مرة. يرسم علامة الصليب ويبارك رائحة الملح التي تفوح منها، وعجيزتها الخليقة بفرس، ورحابة نهدَيْها الكبيرَيْن، وصليل الحديد السرّي، ولون لسانها المُتورّد الأخرس. يبتهل إلى القدّيسين كي تنظر إليه خالته، وتتقرّب إليه، وتقبّلَه. «ربّاه، اكتب لها أن تنفّذ رغباتي، رغبات الرجل، لا الطفل. اكتب لها أن ترأف بروحي، روح الطفل، لا الرجل. هب لي أن أفضّ حزامها الحديدي، والتوغّل إلى كهفها، والاختباء في داخلها إلى الأبد، آمين. اغفر لي يا ربّ لأني لا أدري ما أنا صانع، ولا تُنزِل بي عقابك على كلّ هذه الشرور، وكلّ هذه اللذة الجامحة».

***

يترجّل المحامي ميندیس من سيارة أجرة أمام أبنية مُجمّع شقق جديد في المرفأ، وهو يرتدي ثياباً رياضية مريحة. إنه نهار أحدٍ مشرق، وفي الحدائق تتفتّح القبلات الرقيقة بألوانها كافة، والريح الدافئة تهزّ أشجار الغواياكان وتنتزع منها أمطاراً من البتلات الصفر.

- «أكان المحامي وسيماً؟».

- «كلا، من جهة الوسامة فهو لم يكُن وسيماً. كان رجلاً فارع القوام، ضخماً، مُتورّد البشرة، من الصنف الذي يحمي الآخرين. كان له صوتٌ عميق مُحبّب، ويتميّز بعطره الذكي دوماً، كما لو أنه قد استحمّ لتوه. كلّ هذه الأمور مجتمعة تبثّ الطمأنينة في نفوس النساء».

يسأل المحامي عند مدخل البناء عن السيدة ألينا خيريكو، فيُسمَح له بالصعود. يستقلّ مصعد البرج C ويقرع جرساً واحداً من أبواب الطابق الثامن. تقابله بالترحاب ألينا غير ألينا المعهودة دوماً: إذ يبدو وجهها أكثر امتلاءً، لا مسمرّ ولا مُزيّن كما هو دأبها، وعلى الرغم من ذلك يراها هادئة. شعرها أقصر من ذي قبل، ولكنه أكثر لمعاناً. وقد حوّل الحمل منعطفاتها المثالية من قياس 62

t.me/qurssan

90-60-90 إلى قياس 90-90-90 المستدير الناعم، أما قدماها الجميلتان، الحافيتان، فتبدوان مُتورّمتين.

- «ما قولك سيدي المحامي؟ حتى الحذاء ما عاد يتّسع لقدمي».

تسمح له بالدخول. الشقة متواضعة إذا ما قورنَت بالرفاهية الباذخة التي ميّزَت بيت ماني، ولكنها مريحة وجيّدة التهوية والإضاءة، أثّثَتها ألينا بحماسة، وبما لا يلفت الأنظار، بأثاث من الخيزران، وأقمشة زاهية، وسلال فاكهة عامرة ومزهريات كبيرة. يجلسان في شرفة صغيرة، هواؤها منعش، تحت مظلّة من الكتّان، حيث تحمل إليهما إيلا عصير فاكهة اللولو مُثلّجاً. يتجاذبان أطراف الحديث عن الصحة، والطقس، وعن أيّ شيء. وبعد قليل يتطرّقان إلى الأمر المهمّ: إذ جاء المحامي بحقيبة صغيرة ممتلئة بالأوراق، لمساعدتها في الإجراءات اللازمة لإعداد الإقرار بالضريبة على الدخل وتقسيم الممتلكات.

ينشر المستندات على طاولة صغيرة مستديرة ويشرع في تفسير الحسابات وإطلاعها على الفواتير، ثم يُبرِز آلة حاسبة ويجمع ويطرح ويضرب أمام عينَي ألينا الرماديتين الغائبتين، حيث تتراكم البيانات والتواريخ والأرقام غير مفهومة، غير مُعالَجة.

- «أيبدو لك الأمر واضحاً، ألينا؟».

تجيبه بالإيجاب، وإن لم يبدُ شيء واضحاً سوى عينَيها الرماديتين، البديعتين، اللتين يميل لونهما إلى الأخضر وتمتلئان بالدموع كلّما ظهر اسم ماني مونسالبيه على الإقرار. يسعى المحامي إلى الحفاظ على الحيادية، ويحصر تركيزه في الأرقام، ويصرّ على الإدلاء بشروحه. فلا تساعده على ذلك لا الريحُ التي تذرو الأوراق، ولا فتورُ ألينا عن المسألة، ولا سحائبُ الحزن والوحدة التي تحوم حول رأسها. عند ذاك يدرك ميندیس أن الأمر غير مُجدٍ، وأن ذلك ليس هو الحال الملائم للتطرّق إلى الدخل والإنفاق والخسائر والأرباح. فيقول وهو يردّ المستندات إلى مكانها، بصوتٍ أكثر دفئاً، وأقلّ فتوراً: «دعينا نرتّب الأمر في يومٍ آخر. والآن احكي لي بمَ تشعرين؟!».

t.me/qurssan

وكأنـها قـد تلـقّت إذنـاً تترقّبـه منـذ وقـت طويـل، أطلـقَت ألينـا لـدموعها العنـان، فبـكَت بكاء طويلاً، لا سبيل إلى كبحه، يشبه أشرطة الورق الملفوفة، التي لا تكفّ عن الدوران حتى تنحل آخر حلقاتها. بين فواقٍ ودموع غزيرة، يتدفّق مثل النهر زخمٌ عارم من الكلمات والذكريات، تيّارٌ مُشوّش من الوعي حيث يتنازع على دور البطولـة مـاني مونسـالبيه، وآل بـارّاغان، والطفـل الآتـي، والماضي البعيد، والحاضر المُستمرّ، والمستقبل المبهم، والأحلام الخائبة، والكوابيس المُتكرّرة، وحدائق الوهم، وزهرة الأمل.

الآن صار ميـنديس هـو الـذي لا يفـهم شـيئاً، إلّا رغبتـه الجارفة المكبوتـة فـي معانقـة هـذه المـرأة الكسـيرة، الحبلـى، العـزلاء، الجميلة، حتى يشملها بحمايته ويساعدها على الخروج إلى الجهة الأخـرى، حتـى يشـعر بـها أقـرب ويمسـح أنفـها الـدقيق الأحمـر بالمنـديل ويمسّد شـعرها اللامـع الحـريري الذي ينتفض مع كلّ نشيجٍ بطريقة لا تُقاوَم، شديدة الإغواء.

ربما كان سيفعلها، متجاهلاً تلك التحذيرات الأخيرة المنطلقة على استحياء، تحذيرات غريزة البقاء التي كادت تمنى بالهزيمة أمام جاذبيـة زوجـة مـاني مونسـالبيه، لـو لـم تظـهر فـي الشـرفة إيلا العجـوز، حاملـةً دلـواً بيـد، وممسـحة باليـد الأخـرى، وهـي تصـرخ قائلةً إن المياه تغمر المطبخ.

وإذا الكوميـديا تحـلّ محـل التراجيـديا بـلا مُقـدّمات، فيـهرع ميـنديس وألينا خلف العجوز، ويخوضان بركاً واسعة من المياه وصولاً إلى ماسورة المجلى التي تُطلِق المياه كالرشّاش. يخلع المحامي حذاءه، ويشمّر سرواله، ويفتّش عن الصمّام، ثم يغلقه، ويخرج من الكارثة مُخضّلاً بالمياه، باسماً، منتصراً.

تعتـذر ألينـا إلـى ميـنديس عـن كلّ هـذا الإزعـاج وهـي تقطـر مـاء، ممتنّةً، ومُتحرّرة من أثقالها مُؤقّتاً. تعرض عليه أن يستحمّ جيداً بالمياه الدافئة ثم يرتدي الروب ريثما تجفّف إيلا ثيابه ثم تكويها. يوافق المحامي ويقول في نفسه: «الشيء الوحيد الذي ينقصني أن يـدخل مـاني ويجـدني بـالثياب الـداخلية». تـأوي ألينـا إلـى

t.me/qurssan

حجرتها لتبديل ثيابها، ثم يلتقيان مُجدّداً في الشرفة بعد مضيّ نصف ساعة، ويتّفقان على أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من يوم أحدٍ غارق في الدموع ومياه الصرف تكون بالذهاب إلى معرض الأزهار النادرة الذي تودّ زيارته منذ أيام ولكن روحها المعنوية لم تسمح لها بذلك.

يخرجان في سيارتها التي يقودها بنفسه. يصلان إلى المعرض ويمرّان بالصوبات الزراعية. تندهش ألينا من روعة الزنابق والأوركيد، في حين تستحوذ الهواجس على ميندیس، فلا يقرّ بذلك، وإنما يتلفّت وراءه خشية أن يكون رجال ماني في أثره.

يمرّان أمام زهرة أوركيد من آكلات اللحوم، من فصيلة أودونتوغلوسوم، فتشعر ألينا بالاختلال بسبب نقص الأوكسجين ورائحة النباتات المُركّزة. تتشبّث بذراع المحامي وتطلب منه أن يخرجا من هناك لتنشّق الهواء. يجدان باحة جيدة التهوية تتوسّطها نافورة حجرية، فيجلسان على حافتها إلى أن تتعافى ألينا التي تقول إن جوعاً ضارياً قد داهمها.

يتّفقان على تناول الطعام الإيطالي، ثم يذهبان سيراً على الأقدام إلى مطعم مبهج، مُزيّن بالأخضر والأحمر والأبيض، حيث يطلبان لازانيا ونبيذاً أبيض ومُثلّجات. كان المحامي ذو الشهية المفتوحة سيشعر بسعادة غامرة ما لم يكدّره بين حين وآخر ذلك الخوف من ردّ فعل ماني عندما يعلم بأمر تقسيم الممتلكات، وأزهار الأوركيد، واللازانيا. لا شك أن ماني سوف يعرف، عاجلاً وليس آجلاً.

في مقهى صغير، في الهواء الطلق، يتناولان القهوة حتى يفيقا من النعاس الذي خلّفه النبيذ. ثم يدخلان إلى مركز تجاري حيث يتجوّلان على مهل، وهما لا يستعجلان الوصول إلى أيّ مكان. تغمر ألينا سعادةٌ جارفة وهي تنظر إلى واجهات المحالّ، في حين يشعر ميندیس بالذعر، إذ يتخيّل الجواسيس يتربّصون به في كلّ ركن.

في متجر ألعاب تشتري ألينا للطفل صندوق موسيقا وقرداً

t.me/qurssan

يتحرّك بالزنبرك. أما ميندیس، الذي يتناسى ماني حتى ينعم برفقة هذه المرأة التي بدأ يُعجَب بها أكثر مما ينبغي له، فيطلب منها أن ترافقه لإلقاء نظرة على الأسطوانات. يتحدّثان عن الذائقة الموسيقية لكلّ منهما، ويضحكان في سرور كلّما اتّفقا على الرأي نفسه.

يتوقّفان أمام إحدى دور السينما، ويطالعان إعلانات الأفلام، فلا يقوى على مقاومة الإغواء ويسألها عما إذا كانت ترغب في الدخول إلى السينما. غير أنه يشعر براحة عندما ترفض، وتقول إنها مجهدة وتحتاج إلى رفع قدمَيْها عالياً. يدور في خلد ميندیس: «ذلك أفضل، سأتركها في بيتها، وربما نجوتُ بحياتي». ولكن سرعان ما تستحوذ عليه رغبة مستميتة في قضاء وقت أطول برفقتها. لا يخطر له ماذا يمكنه أن يقترح، من دون أن يبدو الأمر وقحاً أو طائشاً. عند ذاك يسمعها تقول: «ولكن الأفضل أن نذهب إلى البيت ونشاهد فيلماً على البيتاماكس». فيرى بعين الخيال ماني وهو يقتحم الشقة ممسكاً بمدفع رشاش، ثم يمطره بوابل من الرصاص، وعلى الرغم من ذلك يجيبها: «فكرة ممتازة». يقولها مرتاباً لا يدري ما إن كانت تمضية ساعتين أطول برفقة ألينا خيريكو تستحقّ المجازفة بحياته.

يتّخذان لنفسيهما مجلساً في الصالة، أمام التلفزيون، هو على مقعد وثير وهي مستلقية على الأريكة، رافعةً قدمَيْها فوق الوسائد. أمامهما خياران: فيلم درامي وآخر حربي. هي تريد مشاهدة الفيلم الدرامي، بينما هو يريد مشاهدة الحربي. يقترعان، يلعبان صورة أم كتابة، فيربح هو، ومع ذلك يشاهدان الفيلم الآخر. تحضر لهما إيلا عصير الفاكهة الطازجة. كان الفيلم رائعاً، قصة الحيّ الغربي، بطولة ناتالي وود، ويحكي قصة حبٍّ نشأت بين فتى وفتاة من فرقتين متنافستين. تخلب الموسيقا والرقصات لبّ ألينا، في حين تُشعِره النهاية التراجيدية بخيبة أمل. تتساءل مُعقّبة: «ترى، لماذا ينتهي كلّ شيء بالموت، حتى في السينما؟».

فيجيبها ميندیس: «كلا يا ألينا. لا ينبغي أن ينتهي كلّ شيء

t.me/qurssan

هكذا. فالقتل والموت اختيار، ولكن مِن الرجال مَن يستقرّون على اختيارات أخرى».

- «قدِّم لي أحدهم إذاً، فأنا لا أعرف أيّاً منهم».

ينظر ميندیس إلى ساعته التي تشير إلى الثامنة ليلاً، فيندهش من تأخّر الوقت. صبيحةَ اليوم، حين دخل من باب البناء الذي تسكن فيه ألينا خيريكو، أقسم على ألّا يبقى هناك أطول من ساعة واحدة، ما تقتضيه الضرورة القصوى لمساعدتها في الإجراءات. ثم انتهى به المطاف وقد أمضى يوم الأحد كاملاً برفقتها، في العلن أول الأمر، ثم خلف باب الشقة المُقفَل. كان يتودّد إلى زوجة ماني في منطقة آل مونسالبيه، تحت سمعهم وبصرهم. يدور في خلده: «لا أعتقد بأني سوف أعيش لأحكي ما جرى».

على مدى أعوام، كان حذراً بشدّة في علاقته بهم، ولم يرتكب خطأ واحداً. وإذا هو الآن يرتكب الأفعال الجنونية فجأة، ويلعب بالنار كما لو كان عديم المسؤولية. والأدهى من ذلك أن لديه موعداً مع ماني في اليوم التالي، لمشورته في أعماله. في ما سبق، اضطُرّ إلى تقديم مبرّر للعلاقة التي تجمعه بألينا حتى يُطمئن ماني، وبصعوبة أفلح في النجاة بنفسه. وغداً يُضطَرّ إلى تفسير الأمر مرة أخرى. أيفلح في النجاة بنفسه هذه المرة أيضاً؟ هذا إن لم يكُن تين پويوا في الشارع، في هذه اللحظة، يترقّبه حتى يأخذه إلى سيّده الذي يستشيط غضباً من فرط الغيرة.

يقول ميندیس في نفسه: «كلا، يكفيني ما جرى». إن تحدّي ماني بهذه الطريقة انتحار. يتّخذ قراراً حاسماً بألّا يعاود رؤية ألينا طوال شهرَيْن أو ثلاثة أشهر على الأقل. سوف يستمرّ في مدّ يد العون لها، أجل، ولكن من خلال آخرين. لن يفعل ذلك بصفة شخصية أبداً. وهذا قرار لا رجعة فيه، فحياته على المحكّ، ولا سبيل إلى الرجوع. يطلب سيارة أجرة عَبْر الهاتف، وترافقه ألينا حتى الباب.

- «أشكرك يا أستاذ على هذا اليوم اللطيف للغاية. إنه اليوم الهادئ

t.me/qurssan

الوحيد الذي لم أنعم بغيره منذ أعوام...».

- «الهادئ؟».

- «أعني، مع الأسرة».

- «أها، فعلاً. حسناً. أراكِ لاحقاً».

تقف أمامه ويداها على خصرها، وتميل إلى الأمام ببطنها البادئة في البروز، ثم تزيح عن وجهها خصلة منسدلة من شعرها الزاهي. ترنو إليه بعينَيْن شفيفتين، وتسأله بصوت ناعم يشوبه النعاس: «متى تعود يا أستاذ؟».

- «ماذا؟».

- «أسألك متى تعود...».

- «أها... الأسبوع المقبل».

- «أتعدني؟».

يتردّد المحامي مينديس أولاً، ثم يجيبها: «أجل، أعدك».

يقولها حاسماً، مهزوماً هزيمة منكرة، وهو يعرف أنه سيكون حاضراً هناك يومَ الأحد المقبل، وسيقرع جرس الباب نفسه، ما لم يمنعه ماني من ذلك رمياً بالرصاص.

***

رجل عجوز، فقير، أبتر اليد، يقترب من القتلة الذين يحرسون ناصية النار، ويسأل عن ناندو. لولا ذراعه المبتورة، تلك العلامة التي تميّزه، لبات الرجل الضئيل خافياً عن العيون، لأنه عديم الأهمية، فقيراً، نسخة طبق الأصل من أيّ رجل سواه.

- «قولوا لناندو إن رفيقه موتشو جوميس يودّ الحديث إليه، ابن آل جوميس، من الصحراء».

بعد الإجراءات والتفتيش، يمثل العجوز أمام زعيم آل بارّاغان.

t.me/qurssan

يخلع قبّعته، شاعراً بالرهبة، ويجلس على حافة مقعد، ويحتسي القهوة على رشفات صغيرة، مُتردّدة، صاخبة، كأنها تحرق شفتَيْه، وقد أمسك أذن الفنجان بيده الوحيدة، وأسنده من الأسفل بالجدعة المُتبقّية من ذراعه. يطلب الانفراد بناندو في إجلال، ويتكلّم في توتّر.

- «ناندو بارّاغان، جئتُ أبيعك سرّاً».

- «قد لا يعنيني».

- «بل يعنيك. أعرف أين يمكنك الإيقاع بأولمان فيرنيلي».

- «وأنا سأشتري منك هذا السرّ. إذا أصبتَ كافأتُك عنه ذهباً. وإذا كان فخّاً أرديتك قتيلاً».

***

واحد، اثنان. واحد، اثنان. واحد، اثنان. العريف غييرمو ويلي يركض، ويرفع الأثقال، وينطّ الحبل، ويمارس تمارين الضغط. شهيق، زفير. يبذل جهداً، ويلهث. يتفصّد عرقاً حتى يغرق قميصه. يفرض هيمنته على المكان بحركات حادّة، فتيّة، بعنف. وخلفه أركانخِل يحذو حذوه، بتركيز، وصمت، على أطراف الأصابع: يمارسان التمارين البدنية معاً، في الباحة الخلفية. في ما سبق، كانا يتمرّنان تحت سقف حجرة أركانخِل، منعزلَيْن، ثم رفع ناندو الحَجْر. في البدء كان أركانخِل يأبى الخروج، مُتشبّثاً بحماية الجدران الأربعة. ولكن في النهاية أقنعه العريف بالعدول عن رأيه، وأصرّ على أن الحبس يبثّ الوهن في الرئتين.

كان الشابّان في عمرٍ واحد، وعلى الرغم من ذلك فالعريف قد نضج بالفعل. أما أركانخِل فما زال طفلاً، بالحكم على صوته الذي ما زال عذباً، وخصلات شعره الناعمة، والزغب الذي يكسو بشرته الرقيقة مثل قشرة الخوخ، وحركاته التي لا تتأثّر بالجاذبية، حركات طفل يهوى التحليق. أما جسد العريف فقد نضج مُتأثّراً بركلات الحياة في الثكنة العسكرية. ودبغَت الشمس بشرته السمراء كأديم العجل. وحُلِق رأسه حتى صار كالفرشاة. وبات

t.me/qurssan

قوياً مفتول العضلات، وإن ظلّ قصير القامة.

يفرغان من تدريبات الصباح وقد أدركهما الإجهاد، فيلفّ كلٌّ منهما عنقه بمنشفة ويتّجه إلى المغتسل حتى يزيل عن جسده الحرارة والتعب، بدفقات من المياه الباردة. يغمس أركانخِل الوعاء في المغطس، ثم يرفعه فوق رأسه تاركاً خيط الماء البارد يتساقط فوق جسده، ينزل خيط الماء على ظهره مُتفجّراً في ومضات خاطفة. يرتعش، يفرك جسده بقطعة من الصابون، ثم يشطفه مرة أخرى. تنساب الرغوة على ساقَيْه، وتسري على البلاط، ثم تتلاشى عَبْر فتحة الصرف.

يملأ الطفل فمه بالماء، ثم يرشّه وينظر مسروراً إلى قوس قزح متناهي الصغر الذي يتشكّل في الهواء، فوق مسار رذاذ الماء المتطاير كالغبار. يرى صديقه شارداً، يتحدّث إلى ببغاوات الغواكامايا، عند ذاك يرشّ وجهه بدفعة أخرى من الماء. فيجدل العريف غييرمو ويلي إحدى المناشف ويتّخذ منها سوطاً يضرب به أركانخِل الذي يضحك ويناور اللسعات. يشتبكان في حرب تدور بين دفقات مياه، ودفعات، وخطا زلقة، ثم تنتهي فجأة، بمُجرّد أن تطلّ سيبيرينا برأسها وتصيح فيهما بألّا يُغرِقا الرواق.

- «كانا يحبّان كلٌّ منهما الآخر كأخوَيْن».

- «كان العريف صديق أركانخِل الصدوق. بل صديقه الوحيد».

يستلقيان على سريرَيْن مُعلّقَيْن في الباحة الأخيرة، بين حبال الغسيل. يراقبان الصبايا وهنّ يركضن حولهما، يلعبن المسّاكة، حافيات، داكنات البشرة، وعلى شعورهن أشرطة زرق. يأتي العريف بالمُسجّل، ويضع القابس، ويشغّل أغنية «الجدار» لفريق پينك فلويد. تقدّم لهما الخرساء يخنة السانكوتشو بالدجاج والمياه الغازية على الغداء. يكاد أركانخِل يكتفي بتذوّق صحنه. بينما يلتهم العريف صحنه وكلّ ما فاض عن الآخر. وحين يفرغان من تناول الطعام يقول العريف لأركانخِل: «لم تُرِني مُسدّسك».

- «لا يروق لناندو أن أخرجه».

t.me/qurssan

- «متى كانت آخر مرة نظّفته فيها؟».

- «منذ أيام».

ينزل كلّ منهما عن سريره المُعلّق ويمضيان إلى حجرة أركانخِل. حانت الساعة الساكنة، ساعة قيلولة الأحد، وخيّم الصمت على البيت حتى بدا مهجوراً. لا تتحرّك الحيوانات لئلّا تثير القيظ. ما عادت جلبة الصبايا تُسمَع في الباحة. وأوى كلٌّ من تيخيراس وكاتشومبو إلى الظلّ، حتى ينالا قسطاً من النوم.

يبرز أركانخِل المُسدّس من تحت فراشه، من طراز والتر P38، ألمانيّ الصنع. المُسدّس الذي أعطَته إياه مونا في السراديب، ليلة الإنذار الكاذب. يطلب منه العريف قائلاً: «دعني أرَه».

- «ما كان يُسمَح لأحد، كائناً من كان، بالدخول مُسلّحاً إلى بيت آل بارّاغان. قالت الخرساء إن العريف غييرمو ويلي محلّ ثقة، وعلى الرغم من ذلك يُفتّش لدى دخوله على أيدي رجال ناندو، دائمي الارتياب».

- «ماذا عن الحرّاس أنفسهم؟ ألم يكُن بينهم خونة؟».

- «لم يكُن بينهم خونة، فكلّهم من العائلة. كلّهم من آل بارّاغان: أبناء عمّ غير أشقاء، وأعمام فقراء، وأبناء أشقاء، وأبناء في المعمودية. لم يكُن ناندو يوظّف أحداً ما لم يكُن من دمه. حتى سيمون بالاس وتيخيراس وكاتشومبو والآخرون: فهم من آل بارّاغان جوميس، أو من آل جوميس بارّاغان، أو من آل جوميس أراوخو، أو من آل أراوخو بارّاغان. وكان بينهم توءمان، من الرماة المُميّزين، يحملان لقب بارّاغان مونسالبيه. غير أنهما قد أقسما على الولاء لناندو، ولم يحنثا بقسمهما. أما الرجل الوحيد الذي كان يُسمَح له بالدخول إلى ذلك البيت على الرغم من دمائه الغريبة، إلى جانب المحامي مينديس، فهو غييرمو ويلي كينيونيس. ولذا كان الرجال يرتابون في أمره».

- «ومع ذلك، سلّمه أركانخِل المُسدّس».

t.me/qurssan

يمسك غييرمو ويلي بالمُسدّس الوالتر: ويحسّ برودة الفولاذ الأسود بين يدَيْه. يتلمّسه شاعراً بلذّة، كما لو كان بشرة امرأة. يُخرِج الرصاصة التي في الحجيرة. ينزع الخزانة، والأسطوانة. يناوله أركانخِل فرشاة، فينظّف غييرمو ويلي الماسورة. يرفعها إلى مستوى عينه ويضع خلفها عملة بيضاء حتى يتأكّد من خلوّ الماسورة من الرصاص. يمدّ له أركانخِل ممسحة، فيشرع غييرمو ويلي في مسح الفتحات لتنظيفها من بقايا البارود. يناوله أركانخِل قارورة زيت ثلاثة في واحد، فيشحّم العريف الإبرة والأسطوانة والزناد والمطرقة...

- «ولم يقع شيء؟».

- «لم يقع أيّ شيء».

- «لو أراد العريف غييرمو ويلي، لاستغلّ الفرصة وقتل أركانخِل».

- «لو أراد، غير أنه لم يُرِد».

***

يصعد ماني مونسالبيه الدّرَج الحجري الفسيح ببطء. وفي طريقه، يلفّه هواء ساكن عتيق، فيحاول طرده عن أنفه بيده. وفي حذر، يخطو بحذائه المصنوع من الشامواه القيّيني، مرتاباً في نعومة السلالم، التي صُقِلَت وبليَت تحت وطأة الأقدام على مدى قرنَيْن من الزمان.

لطالما كره تلك الرائحة العتيقة. كلّما اشترى سيارة، أو بساطاً، أو قطعة أثاث، ميّز خلاصةَ الرخاء والثراء والسعادة في عطرِ الأشياء التي لم تُستخدَم بعد. انتقل إلى ذلك السكن الذي اشتراه في الآونة الأخيرة، وعلى الرغم من ذلك، فرائحة المُستعمَل تفوح من كلّ ما فيه. يفكّر: «إن عطن المتاحف يفوح من هذا المكان». يرفع منخرَيْه إلى الأعلى، نحو السقف العالي الذي يقوم على دعائم من الخشب، فيلتقط أنفه الرطوبة. قبل الانتقال، أرسل جيشاً من البُناة لإصلاح مواضع تسريب المياه، ومواسير الصرف المعطوبة، والتدهور الذي عمّ المكان. وبينما كان كبير العمّال

t.me/qurssan

الذين نفّذوا المهمة يناوله الفاتورة، قال له: «أنجزنا ما في وسعنا. ولكن تلك القصور الكبيرة، الاستعمارية الطراز، يتعذّر إصلاحها. فلا يكاد الواحد يصلح عطلاً، حتى يظهر آخر...».

يصل ماني إلى الطابق الثاني ويمرّ بنصف دزينة من الحجرات الهائلة، الحافلة بقطع أثاث داكنة وبُسطٍ حمر ذات حواف مُنسّلة خيوطها قليلاً. ومن السقف تدلّت مراوح بالغة الخمول، حتى إن أذرعها لا تبدّد الهواء الحبيس، وإنما تقلّبه. بينما الستائر الكثيفة تحجب شمس الغروب، وفي قلب الغبش تتردّد دقّاتٌ غير متناغمة، آتية من الساعات ذات البندول التي تدقّ معلنة عن التوقيت، مُتأخّرةً سنوات عن موعدها.

بضع خادمات صامتات يمسحن الغبار. ومن دون أن ينظر إليهن، يأمرهن ماني: «افتحن النوافذ حتى يدخل الضوء إلى هذا الكهف».

تتجرّأ الخادمات الخفيّات ويقلن له إن الضوء لو دخل تسلّل معه القيظ أيضاً، غير أنه يتابع في سيره، وهو لا يلقي بالاً لتفسيرٍ لا يهمّه في شيء.

عيّن ماني خبيرةً في العلاقات العامة والمظاهر، إنها الآنسة مِلبا فوكون، التي وُلِدَت في العاصمة وتلقّت تعليمها في لندن. وقد عيّنها لتشور عليه بالملابس التي يجب عليه ارتداؤها، وكيفية استعمال الفضّيات، والعطر الذي ينبغي له استخدامه، والكلمات التي يجب عليه حذفها من قاموسه. جاءت تعليمات الآنسة فوكون صارمة: فعليه أن ينسى البيت الباذخ المُطلّ على الخليج، ذلك الذي يليق بالأثرياء الجدد، وينتقل إلى بيت آخر يلائم شخصه الجديد.

قبِل ماني مونسالبيه سعياً إلى كسب المشروعية والاحترام واستعادة ألينا خيريكو، على حساب ذائقته وغريزته الأساسية. بعد أن درسَت جميع الاحتمالات بتأنٍّ، استقرّت مِلبا على قصرٍ استعماريّ الطراز في الحي التقليدي بالمرفأ، كانت تملكه منذ الأزل أسرة مرموقة أبدَت استعدادها للتخلّص من ميراثها في

t.me/qurssan

هذا البلد لتبدأ حياة جديدة على پومپانو بيتش، في فلوريدا.

- «كانوا يرغبون في الرحيل هرباً من أمثال ماني على وجه التحديد...».

- «ولكنّهم باعوا كلّ شيء لأمثال ماني، لأن أولئك هم الذين يملكون المال. وأمثالهم كثر».

عن طريق المحامي مينديس، وامتثالاً لمشورة فوكون، قدّم لهم ماني مونسالبيه عرضاً في اجتماع مغلق، يشمل جميع ما حوى القصر: الأصونة، وخزائن الثياب، والشفونيرة، واللوحات الزيتية، وآنية روزنتال، وفضيات كريستوفل، والبيانو، والنحاسيات، والمفارش الدانتيل، وبورسلين ليموج، والدوارق، وكريستال باكارات، والمكتبة بكلّ ما حوَت من كتب: ألفا كتابٍ باللغة الفرنسية، والأصونة الإسبانية، وشجرة العائلة، وزوج من الكلاب الأفغانية، وكبير خدم أصلع مثليّ الجنس، وثلاث خادمات مُدرّبات.

اصطحبَته مِلبا فوكون ليتعرّف بالقصر الذي سيكون ملكاً له، فنظر ماني كئيباً إلى مقاعد منحوتة من خشب القلب الأرجواني، وإطارات مذهّبة بورق الذهب جيء بها من مدينة كيتو، وقديسين يعودون إلى العهد الاستعماري تركَتهم القرون مبتوري الأطراف أو الرؤوس.

- «إن هذا المكان يليق برئيس أساقفة».

كان ذلك هو التعقيب الوحيد الذي لم يُدلِ ماني بغيره، قبل أن يأمر بإنزال حقيبته الممتلئة بالدولارات من السيارة المرسيدس، مغلوباً على أمره، ويسلّمها إلى الوسيط مقابل حزمة المفاتيح. وهكذا بات يملك ما بدا له أطلالاً خربة، لا يصلح لشيء سوى دكّها بالجرافة وإقامة مرأب أو بناء من ثمانية طوابق بدلاً منها.

ترك جميع ما يملك في البيت الذي شارك ألينا العيش فيه، وترك جميع ما كان يعتبره حتى ذلك الوقت أنيقاً، جميلاً، باعثاً على البهجة: مُكيّفات الهواء الجليدية، وأنظمة الصوت فائقة الحداثة،

t.me/qurssan

ومغاطس الجاكوزي، وشاشة البيتاماكس العملاقة، والأجهزة المنزلية، ومجموعة الهواتف.

اضطُرّ إلى هجر الفراش الكينغ سايز الوثير ذي المرتبة المائية والملاءات الساتان، وبدّل به فراشاً آخر عالياً، صلباً، ضيّقاً، له مظلّة وناموسية، ويوضع تحته مرحاض مُتنقّل من البورسلين. في ذلك الفراش نام سيمون بوليڤار ذات ليلة وهو في سبيله إلى جامايكا. إنه أثرٌ تاريخي، قطعة تليق بالمتاحف، ولكن ماني يستلقي على الفراش فيحسّ بالاختناق ونقص الأوكسجين، ويحلم بأنه قد مات ودُفِن داخل تابوت. والأدهى من ذلك أن السرير مفروشٌ بملاءات من الكتّان المُنشّى، ويحمل الحروف الآتية مُطرّزة يدوياً: HC de R. وفي أرقِه المغموم، الذي يتكرّر ليلةً تلو أخرى، يتساءل ماني من عساه يكون HC de R. ويقول مستنكراً: «سحقاً! ماذا أنا فاعل على فراش سيمون بوليڤار، مُحرّر أميركا اللاتينية؟ لا ينقصني الآن سوى أن تحضر روح HC de R، وترقد إلى جواري!».

تخلّصَت الآنسة فوكون من الثياب القديمة لرئيسها في العمل، وجدّدَت خزانته كاملةً، ابتداءً من المناديل حتى المظلّات. لم تسمح بنقل أيٍّ من قطع الأثاث القديمة، ولا حتى لوحات الفنانَيْن غراو وأوبريغون التي كثيراً ما أزعجَت ماني حين عايشها، ولكنّه بات يحنّ الآن إليها كلّما قارن بينها وبين مجموعة اللوحات الزيتية التي لا تطاق، حيث يظهر كهنة شاحبون وأبطال ملتحون وسيدات مرموقات ورجال بارزون مجهولون، تلك اللوحات التي ازدحمَت بها الجدران الموغلة في القدم، من أعلى إلى أسفل.

وحدها الصناديق... وحدها الصناديق الخاصة بألينا خيريكو لا يملك ماني مونسالبيه استبدالها ولن يقبل الاستغناء عنها. كلّ ما عداها يمكن الإبقاء عليه أو الاستغناء عنه، بيعه أو شراؤه. أما تلك الصناديق فلا. حتى إنه حزمها بنفسه ورتّبها في مخدعه الجديد، فوق إحدى الخزائن، أمام الفراش. أحياناً، عندما يطبق الحزن على أنفاسه ليلاً، يفتحها مفرغاً محتوياتها على المرتبة، ويلوذ بتلك الطقوس التي بدأها في البيت المطلّ على الخليج.

t.me/qurssan

ولكنّه من فرط ما تلمّسها بيدَيْه، أخذَت تلك الأشياء تفقد جوهرها شيئاً فشيئاً. قبل ذاك، كانت ألينا تنبثق منها كلّما فتحها، كما يخرج الجنّي من القمقم. فما عاد ذلك يتحقّق له. إذ نضبَت الطاقة التي كانت مخزونة في قرارتها، كالعطر الزنخ في القارورة. ما زال ماني يتلمّسها، ويربّت عليها، ويمرّ بكلّ زرٍّ، وكلّ قرط، وكلّ وسام. ولكن حتى هذه اللفتات المُقدّسة باتت روتينية، وإن لم ينتبه إلى ذلك. ما زال يتشبّث بطقوسه، وإن نسي مغزاها.

يصل ماني إلى الباب المزدوج المفضي إلى الصالون الفسيح، ويفتحه. في الداخل يطفو غبشٌ دائم، بصعوبة يكسره بريق الأيقونات المُذهّبة، في حين يطنّ صمتٌ عتيق تراكم على مدى عقود من زيارات المجاملة، حيث الأصوات الخفيضة والهمهمة في الأركان والمؤامرات المرسومة في الظلال وأحاديث الحبّ الهامسة.

يسير على الأرض البرّاقة -التي تصقلها الخادمات الثلاث يوميّاً بالشمع ونشارة الخشب حتى يلمع الخشب كالمعادن- وينصت إلى خطواته، ثم إلى رجع صداها. ينظر إلى صورته الوحيدة منعكسةً إلى ما لا نهاية على المتاهة المُؤلّفة من معرض المرايا. يمضي قدُماً حتى يبلغ مركز الصالون، ثم يتربّع على عرشٍ صلبٍ من خشب السنديان المنحوت. حتى هو يبدو من خشب السنديان المنحوت: مغموماً، مُتخشّباً، شاعراً بعدم الارتياح، لا يدري ما العمل، لا يحسّ جوعاً، ولكنه ينتظر أن يخبره رئيس الخدم بأن العشاء جاهز، إذ لم تكُن لديه خطّة أفضل منها.

في غياب ألينا خيريكو، انحصرَت حياته الشخصية والمنزلية في حلقات مُطوّلة من الوقت الضائع الذي يديره رئيس الخدم والخادمات الثلاث ويقسّمونه إلى مواعيد الفطور والغداء والعشاء -كلها يُقدّم في صوانٍ وصحون وكؤوس ومراسم أكثر مما ينبغي- فكان يترك طعامه على المائدة، ويكاد لا يمسّه.

مع بزوغ فجر كلّ نهار، يفتح عينَيْه ويرى أن زوجته ليسَت بجواره، فتنفضه وخزة من الألم الثاقب، وإذا هو يهبّ جالساً على

t.me/qurssan

فراشه الذي لا يقابله بالترحاب، فراش البطل. يحسّ وكأنه أفاق من التخدير بعد استئصال عضو من جسده. ولكن كلّما تقدّم النهار، كما يجري في جميع حالات النقاهة بعد العمليات الخطيرة، انسحب الألم الذي لا يُطاق رويداً رويداً، في وجه إحباطٍ بليد يصيب المرء جسداً وروحاً، في وجه ضربٍ من الخمول التام الذي يترك في الروح المُعذّبة أثر المُهدّئ.

وعلى وجه العموم، في ما عدا لحظات الإفاقة من النوم ولحظات الانتكاس العرضية، العنيفة، تغلّب ماني على الحسرة الجارفة، والغيرة، والكبرياء الجريحة، فوجد نفسه عالقاً على حافة مائعة، بلا ألم ولا لون، حيث الحاجة المُلحّة إلى العودة لألينا لا تُترجَم إلى ضربات السياط المفاجئة على اللحم العاري، وإنما إلى هوسٍ رتيب بيروقراطيٍ يلازمه في كلّ ساعة، هوس بليد، مُضنٍ، يشبه سير الحمار المطيع. كلّ ما يصنعه ماني، يصنعه لكي تعود إليه. فلقد صار اجتذاب ألينا هو شغله الشاغل، الذي يوجّه دفّة قراراته وأعماله. لم يتبدّل شيء من ذلك، ولكن الفارق أن روحه الآن تتمرّغ في ذلك الهدوء الناشئ عن الهزيمة التي تجرّعها مُقدّماً، والهاجس الماكر الذي يحدّث فؤاده بأن ألينا لن تعود أبداً، مهما فعل.

وعلى الرغم من ذلك، تمرّ به نهاراتٌ يُفلح خلالها في إقناع نفسه بعكس ذلك. يستحمّ بمياه مُثلّجة، ويطلب أن يُقدّم له البيض على الفطور، ويشعر بأنه يستردّ المثابرة التي خالها قد ضاعت، وينطلق مُتأهّباً لزلزلة الأرض والسماء حتى يتمكّن من استرداد ألينا خيريكو.

مثلما كان حين وافق على إقامة مأدبة رسمية، يحدوه إلى ذلك دافعان، أولهما مُعلَن، وهو افتتاح مقرّ سكنه الجديد، وثانيهما حقيقي، وهو رؤية زوجته السابقة في مكان مختلف من شأنه أن ينسيها وحشية الماضي وهمجيته.

تولّت الآنسة مِلبا كلّ شيء، ابتداءً من قائمة الطعام وصولاً إلى قائمة المدعوين، وسعَت جاهدة لإبراز جميع رموز الوجاهة

t.me/qurssan

الجديدة. فمرَّ الكلبان الأفغانيان بالصالونات يقودهما أحد الخدم ممسكاً بالمقود، ووضع رئيسُ الخدم شعراً مستعاراً لأول مرة كي يداري رأسه الأصلع، وظهرَت الخادمات الثلاث في مآزر سود ومريولات وقبعات وقفازات بيض. ظلّت المدفأة مُوقدَة على الرغم من دفء الليلة الاستوائية، وامتلأت المزهريات بورود بلون السلمون، وأُضيئَت النخلات السامقة الملكية في الحديقة بكشّافات الإضاءة، وامتدّ صفٌّ من المشاعل ليرافق الضيوف على امتداد البهو المُؤدّي إلى المدخل الرئيسي.

أما مِلبا فوكون، التي لا تتهاون في اختيار المدعوّين، فلم تدرج في القائمة سوى قلّة قليلة من شخصيات مجتمع المرفأ.

- «يُقال إنها رفضَت الإكثار من دعوة أهل الأقاليم، لأن ذلك يؤدّي إلى انحدار المستوى».

- «كما أنها لم تدعُ ملكات جمال ولا عسكريين، من أولئك الذين زخرَت بهم حفلات ماني السابقة».

- «أما الإخوة مونسالبيه، فإياك والتفكير حتى في دعوتهم. كانت تحسّ بالاشمئزاز من أولئك الأجلاف بهيئتهم المُنفّرة وخواتمهم الماسية وسلاسلهم الذهبية التي تكسو أجسادهم كاملةً. لم يحدث أن وطئوا بأقدامهم أرض البيت الجديد حتى تلك اللحظة، وما كانت مِلبا فوكون لتسمح بذلك تحديداً يوم الحفل، وإلّا ضاع كلّ شيء».

وبدلاً من ذلك، استأجرَت طائرةً جاءت من العاصمة مُحمّلة عن آخرها بالشخصيات المهمة، من أولئك الذين تلقّوا دعوة تشمل الإقامة في الفندق، ومن ضمنهم وزيرٌ حاليّ، وعميد معهد خاص، ومدير إحدى القنوات الإذاعية، ومالك مجموعة مالية قوية، والمذيع الرئيسي في التلفزيون القومي، ونجمة المسلسل الأكثر مشاهدة.

تلقَت ألينا خيريكو بطاقة مختومة، ولكنها لم تؤكّد حضورها من عدمه، على الرغم من طلب التأكيد على الحضور المشار إليه في

t.me/qurssan

البطاقة، الأمر الذي جعل ماني يتحرّق انتظاراً، لأن الاحتمال ظلَّ وارداً.

ليلةَ المأدبة -وطبقاً لرأي الآنسة مِلبا وترتيبها- استقبل المضيفُ مدعوّيه بسموكينغ أبيض من «إيڤ سان لوران»، ممسكاً بكأس ويسكي بالثلج.

- «ولماذا، ما دام لا يشرب؟».

- «لم يتناول رشفةً واحدة طوال الليل، ولكنه كلما ترك كأسه الملآنة فوق طاولة، سارعَت الآنسة فوكون بمناولته كأساً أخرى، لأن بعضاً من الوجاهة يكمن في الإمساك بها. خاضت حرباً لا هوادة فيها على سلوكيات ماني وعاداته المرذولة، وخرجَت منها بنتائج مرضية في غالب الأحوال. باستثناء بعض الإخفاقات الوخيمة، مثلما كان عندما حاولَت إقناعه بالإقلاع عن كولا رومان، ذلك المشروب الغازي الشعبي بلونه الصارخ، والاستعاضة عنه بالكوكاكولا، التي تلقى قبولاً دولياً».

كانت مِلبا فوكون راضية بما حقّقَت. وراحت تراقب ماني مونسالبيه من شتّى زوايا الصالون، فرأت فيه رجلاً مرَّ بتحوّل حقيقي منذ الأمسية التي تعرّفَت عليه فيها، حين كان يرتدي ثوباً عجيباً بلون حساء القرع، وحذاء باللونَين الأسود والرمادي، وربطة عنق تبدو عليها أشكال مُربّعة، خضراء اللون. أما الآن، ورغم أنها جعلَت تتفرّس فيه بعينٍ مُترصّدة بحثاً عن العيوب الواجب إصلاحها، وعلى الرغم من المهنيّة اللاجنسية التي استعانت بها لكبت حساسية الأنثى في دخيلة نفسها، انجذبَت خبيرة المظاهر والعلاقات العامة إلى الجاذبية الرجولية لرئيسها الغريب، وفوجئت حين تأكّد لها كم يليق السموكينغ الفرنسي بجسده الرياضي مثاليّ الأبعاد. بل وذهبَت فوكون إلى التعقيب الذي أدلَت به إلى أحدهم سرّاً، فقالَت: «إن تلك الرشاقة البديعة التي ميّزَت حركات ماني مونسالبيه، والتي اكتسبها لكونه من الطبقة الدنيا من المجتمع، قد تبدو في عين الناظر وكأنها مرونة رياضية، أو أناقة أرستقراطية، لولا لون بشرته الأخضر الحائل

t.me/qurssan

-تتنهّد مِلبا- ولا سيما تلك الندبة التي تفضحه، وتسمه في منتصف وجهه بسمة المجرمين»...

رأت ماني يبتعد عن الحضور وينزوي على نفسه، فتوجَهَت مِلبا فوكون إليه كي توصيه بأمرَيْن من شأنهما تحسين مظهره. وبنبرةٍ تتراوح بين الصلف من جهة والخوف إلى حدّ الموت من جهة أخرى -تلك النبرة التي كانت تحدّثه بها دوماً وكأنها لا تدري ما إن كانت تخاطب نادلاً أو مالك الكَوْن- قالت له: «سيّد مونسالبيه، أوصيك بأن تأخذ حمّام شمس لمدة عشرين دقيقة كلّ يوم، ابتداءً من الغد، و... لا تأخذ قولي على محمل الإهانة... لكني أرى أنه من الواجب عليك إجراء عملية تجميل لإزالة تلك الندبة...».

وكما لو أن الآنسة ليست على قيد الوجود، أخذ ماني مونسالبيه ينقّل عينَيْه بين ساعته وباب الصالون، ثم يعود إلى الساعة، ثم إلى الباب من جديد. أدركَت أنه لا ينصت إليها، وخطر لها أن اللحظة غير مواتية: فلا بدّ أنه مُتوتّر بسبب المكانة الرفيعة للحضور. عندئذٍ قالت له، مُبدّلة مجرى الحديث إلى مسألة بدَت لها أكثر ملاءمةً: «تعالَ معي، فمن الملائم أن تتحدّثا قليلاً أنت والسيد الوزير الذي شرّفنا بحضوره، وبهذه المناسبة دعنا نغتنم الفرصة حتى نلتقط صوراً تجمعك به».

- «ليس الآن. بدلاً من هذا، اذهبي وأحضري المحامي مينديس».

استحوذ على ماني شاغلٌ وحيد: الساعة الآن التاسعة والنصف ليلاً، ولقد حضر المدعوون جميعاً، وما زالَت ألينا لم تظهر بعد. ما كان ليكترث لو سقط الباقون موتى -السيدات والسادة المُوقّرون، وسعادة الوزراء- وقضوا نحبهم في ذلك الموضع تحديداً، على أرضية الصالون، في بيته. دع الآنسة فوكون تتحدّث إليهم، وتلقي إليهم بالنقود التي يطلبونها. أما هو فلا يتّسع رأسه لشيء سوى البحث عن الطريقة المناسبة لاجتذاب ألينا. خطر له أن يطلب من خبيرة العلاقات العامة أن تتّصل بها عَبْر الهاتف، ولكنّه عدل عن الفكرة لأنها عبثية وغير فعّالة. عندئذٍ قرّر اتخاذ خطوة مضمونة. فغلّظ قلبه، وازدرد مشاعر الغيرة

t.me/qurssan

والريبة، ثم طلب من المحامي مينديس، الذي كان بين المدعوّين، أن يذهب إليها ويقنعها.

- «كيف كانت العلاقة بين ماني والمحامي في تلك الأيام؟».

- «مُعقّدة. كثُرَت لقاءات مينديس بألينا، في حين كان زوجها يعرف كلّ ما يدور بينهما، بل وحتى ما يتطرّقان إليه في حديثهما أحياناً، ذلك أنه وضعهما تحت المراقبة أربعاً وعشرين ساعة يوميّاً».

- «ولذا عرف أن ما بينهما ليس علاقة غرامية...».

- «أجل، ولم يأمر بقتل المحامي. زد على ذلك أن مينديس كان يلعب دوراً مفتاحيّاً، لا من أجل مُخطّط الاتجاه إلى الأنشطة المشروعة وارتقاء السلم الاجتماعي فحسب، وإنما لأنه كان نقطة التواصل الوحيدة بينه وبين ألينا. كان عليه الوثوق به. وإن أدرك بحاسّة الشمّ أن المحامي ليس أهلاً لثقته المطلقة».

ما لبث المحامي أن أومأ برأسه وخرج مُتّجهاً إلى شقة ألينا في سيارة ماني المرسيدس الشخصية، بينما جلس تين پويوا خلف المقود. أدرك مينديس أن ما هو على وشك فعله يفتقر إلى المنطق واللياقة، وكان على يقين من رفضها. فمن العبث أن يظهر أمامها في مثل هذه الساعة، بعد أن أوت إلى فراشها، ويعرض عليها حضور المأدبة التي أقامها ماني، مع أنها قد أعربَت له بألف طريقة أنها لا ترغب في معرفة أيّ شيء عن زوجها.

بَيد أنه قَبِل الذهاب إليها لأن المُبرّر الذي يتيح له رؤيتها بمنزلة هدية، حتى وإن لم يرَها لما يزيد على نصف ساعة، أضف إلى ذلك أن الموقف الذي ينتظره قد استأثر بفضوله: زيارة زوجة ماني، نزولاً عند أمره، وفي سيارته، ومع سائقه الخاص. بدَت له دعابة في عمل كوميديّ رخيص، بل إنه كان سيضحك لولا علمه أنه يكاد يتجاوز حدوده مرة أخرى، مراهناً على حياته من جديد. لا أحد يستهزئ بماني مونسالبيه، ومَن استهزأ به لم يطلع عليه فجر اليوم التالي إلّا وقد صار جثة هامدة ملقاة في أخدود،

t.me/qurssan

واستقرّت رصاصة في رأسه. «ولكنّه لا يستطيع أن يأمرني بالحضور، ثم يقتلني رمياً بالرصاص لأني امتثلتُ لأمره»، هكذا فكّر المحامي مُتلهّياً بينما هو يقرع جرس الباب أمام شقّة ألينا. كان على وشك أن يقرع الجرس مرة ثانية، شاعراً بالأسف لأنه سوف يوقظها ويرغمها على القيام من الفراش، عند ذاك فتحَت الباب وقد صفّفَت شعرها، وتزيّنَت، وتعطّرَت، وارتدَت ثياب الحفلات.

- «أيّ مفاجأة سيدي المحامي! كنتُ على وشك الخروج في هذه اللحظة لحضور المأدبة التي أقامها ماني...».

فقال المحامي مرتبكاً، مدركاً أنه قد أخطأ التقدير: «حسناً، كنتُ هناك، فجئتُ من أجلكِ، حتى آخذكِ».

- «رائع. هيا بنا! أنذهب في سيارتي؟».

شعر المحامي ميندیس بالاستياء حين أجابها بأن ذلك شيء غير ضروري، لأنه جاء في سيارة ماني المرسيدس، ولم يجرؤ على البوح لها بأنه جاء برفقة تين پويوا. عند ذاك سألَته عمّا إذا كان ماني قد أرسله حتى يقلّها -بصوتٍ شابَهُ جزْسٌ يشي بالمفاجأة، أخذه ميندیس على محمل الاستخفاف- وفي تلك اللحظة تهشّمَت خيلاؤه الذكورية وصارت شظايا: رأى نفسه غبيّاً، قوّاداً، ذليلاً، رأى صورته منعكسة على حدقتَي ألينا الرماديتين، فوجد نفسه نسخة طبق الأصل من التعساء الكثيرين الذين كانت حياتهم وكرامتهم وحتى موتهم رهناً بمشيئة ماني مونسالبيه.

- «تبدو ألينا رائعة الجمال، في ثوبٍ أسود من الحرير، فضفاض، يُبرِز حَملها، وإن كان في الوقت نفسه مثيراً، يكشف بشرتها التي لا تشوبها شائبة عند موضع الظهر والكتفَين».

- «عمّا تحدّثا في السيارة؟».

- «لا شيء. انطلق تين پويوا بسرعة انتحارية. كانت ألينا في منتهى الاضطراب، وبدا عليها القلق من لقائها بماني. مضى المحامي مُتحيّراً، ساخطاً على نفسه، وفي الوقت نفسه كئيباً،

t.me/qurssan

منفطر الفؤاد: فلقد ظنّ اهتمام ألينا بماني يتضاءل يوماً بعد يوم، والآن يدرك أنه كان على خطأ».

- «كانت لديه أسبابٌ وجيهة تدفعه إلى الحيرة، فلطالما أقسمَت له إنها لا ترغب في رؤية وجه ماني ولا حتى في الصور...».

- «لا ترغب في رؤيته وتتحرّق لرؤيته في آن. هكذا هي حال المحبّ: صاحب أهواء».

- «حقّاً. هكذا هي الحال، يحالفك النصر يوماً، وتُمنَى بالخسارة يوماً. انظر إلى المحامي الذي اختال بنفسه لأنه قد استهزأ بماني، ثم عاد كسيراً لأنه صار هو الأضحوكة...».

- «رأى ماني ألينا حاضرة في بيته، بكلّ ما لها من جمال، وحمل، فكاد يصاب بنوبة قلبية. لقد أمضى شهوراً وهو يحلم بتلك اللحظة. ما لبث أن خرج بها إلى الشرفة كي يتحدّث إليها على انفراد، ولكن الحضور كانوا يقاطعونهما في كلّ حين، بعضهم لشرب النخب، وبعضهم للإعراب عن الامتنان، وبعضهم لعرض الصفقات. كما أزعجَتهما الآنسة فوكون، التي أرادت من ماني الاحتفاء بمدعوّيه».

- «إذاً فلم يتحدّثا في شيء».

- «بل تحدّثا، ولكن قليلاً، وبحدّة. حاول أن يطلب منها العودة، ولكن ما إن رفضَت ألينا حتى احتدم ماني، ومن دون عمد اشتبكا في نزاع على مسألة حرجة: لمن تكون حضانة الابن بعد الولادة؟ ألقى كلٌّ منهما في وجه الآخر بكلامٍ فظيع، قاسٍ، وبدلاً من إصلاح العلاقة، زادَت سوءاً. وعادت ألينا لخفقات القلب المتسارعة، والغموم، وقضم الأظفار، كما في أيام الفراق الأولى، وبعد وصولها إلى هناك بنصف ساعة كانت تشعر بندمٍ قاتل على الحضور. فطلبَت من المحامي أن يعود بها إلى شقّتها».

- «إذاً فالمحامي هو من ضحك أخيراً...».

- «كلا، لأن ألينا ظلّت تبكي طوال طريق العودة، فلم يحاول حتى

t.me/qurssan

أن يواسيها، لشعوره بالغيرة، وانزعاجه من أداء الدور الذي عُهد به إليه. كانت ليلة حزينة على ثلاثتهم».

***

الآن تتـوارى شـمس المغيب خلـف البيت المجاور، وشظايا من خيوطها الأخـيرة، بلونها البرتقالي السـائل، تتسلّل إلى الصالون الرئيسي عَبْر الشُّرّاعات التي تحمي النوافذ. في حين يقتل ماني الوقت، والفتور، والذكريات، جالساً على كرسيّ مهيب من خشب السـنديان. لا يفـكّر فـي شـيء. بـل إنـه ينظـر إلى فتـائل الضوء المُخضّبة بلون الميكروكروم وهي تتراقص على قطع الأثاث، في الغبش.

ومن الأسفل تصله أصواتٌ مكتومة يكاد لا يميّزها: مُحرّك سيارة يُدار، ورجال يتكلّمون بصوت عالٍ، وشخصٌ يملي أوامره. تأتي الأصوات من القبو، حيث كان مهجع الحرّاس، ومستودع السلاح، وحجـــرة الاتصـالات، والمـرائب، وزنـازين الحـجز، وعـدد مـن الدراجات البخارية. الآن صارت تُدعَى «المكاتب»، وباتت مُموّهة تحت الأرض. يكاد ماني لا ينزل إليها قطّ، ولا يُصرّح بالصعود إلى المساحة الاجتماعية من البيت لغير واحد من رجاله فحسب، تين پويوا. غير أنه لا يطلّ بأنفه ما لم تدعُ الضرورة إلى ذلك، لأن المكان يبدو له مريباً ومشؤوماً.

في بعض الأمسيات، يداهم ماني الحنين إلى تلك الرفقة الفظّة المبهجة التي كانت تجمعه بفتيانه متى حانت ساعة الخطر. عند ذاك يـنزل إلـى القبـو حـيث يجلـس مع تـين پويـوا على المقاعد الخلفية في إحدى سيارات اللاند روفر، ويحتسي كولا رومان من فوهة القنينة، بينما هو يتجاذب وإياه أطراف الحديث. الأمر الذي يندُر تكراره شيئاً فشيئاً.

مُتبرّماً، كئيباً، جالساً على عرشه وسط الصالون الشاسع، يفرغ مـاني مونسـالبيه رأسـه ويتـرك الـوقت يمضـي، ضـجراً، منـعزلاً، كالملوك.

t.me/qurssan

وبعد مضيّ وقت طويل يُبرِز من جيبه مُقلّم أظفار ويشرع في تقليم أظفاره. وكلّما سُمِع صوت المُقلّم «كليك!»، طار ظفرٌ بوقاحة في الهواء ثم وقع قرب رفاقه، على بساط من الصوف الأحمر القرمزي.

على الجهة المقابلة، فوق المدفأة المُبجّلة عديمة النفع، تلك التي كانت مُطفأة ومُزيّنة بشمعدانات ثقيلة من الفضّة على الجانبَيْن، استقرّت لوحةٌ زيتيّة مُثبّتة في الجدار، تبثّ الرهبة في النفوس. إنه بورتريه يصوّر جنرالاً كثّ السوالف، أبيضها، صدره مُثقّل بالأوسمة، وقد نخرَت بشرته البقع الخضر التي طبعَتها الرطوبة على النسيج. له عينان زرقاوان صارمتان، يبدو وكأنه يحدّق بهما إلى ماني في دهشةٍ واستنكار. لكنّ ماني لا يأبه، وإنما يصبّ تركيزه على إزالة الزيادات الجلدية بمُقلّم الأظفار.

أبلغَته الآنسة فوكون بأن الرجل العسكري صاحب اللوحة هو بطريرك البيت، الجدّ الأكبر لمُلّاك البيت السابقين، البطل الذي خاض الحروب الأهلية في القرن الماضي. سألها ماني: «وما صلتي بذلك العجوز المُتهدّم؟ لماذا يجب عليّ احتماله وسط الصالون الخاص بي؟».

أجابَته بأنه سرعان ما سيألف رؤيته، فهو جزء من عملية تهدف إلى كسب أرضية وماضٍ عريق. تنبّأت له خبيرة المظاهر قائلة: «سيد مونسالبيه، بعد مضيّ بضعة أعوام، سوف يقسم الجميع إن ذلك الجنرال هو جدّك الأكبر، حتى أنت سوف تصدّق الحكاية».

***

- «من تلك التي طارحها أركانخِل الغرام مساء اليوم؟».

- «فتاة هزيلة، سمراء، أخذَتها الخرساء إلى حجرته».

- «ماذا تُدعَى؟».

- «لم يعرف اسمها أحد. حتى أركانخِل لم يسألها عنه».

يخلع ثيابها من دون غلظة، من دون فضول، ويستلقي عارياً إلى

t.me/qurssan

جوارها، ثم يسألها عن ندبة يراها أسفل ركبتها. تجيبه بأن سلكاً شائكاً أصابها وهي طفلة، وتسأله عن جرح ذراعه: «أيؤلمك؟». فلا يحير جواباً.

للفتاة ضفيرتان، يحلّهما أركانخِل بعناية حتى لا يجذبها من شعرها، المائج، الغزير. يمسك بطرف خصلة ويمرّره على بشرتها، كمن يمسك بالفرشاة: يرسم أجفانها، حاجبَيْها، عنقها، شفتَيْها، أذنَيْها، حلمتَيْها. يقول لها: «لا تضحكي. إن ضحكتِ، خسرتِ».

تريد الفتاة أن تبدو جادّة، هادئة، ولكن تغلبها الدغدغة والخجل، تتلوّى في دلال، وتطلق ضحكات كهديل الحمام. فيعتلي أركانخِل جسدها المرهف ويبدأ في مطارحتها الغرام، نصف لاهٍ، ونصف جادّ، مُفكّراً في أمور أخرى، ناظراً إلى جوانب أخرى.

عيناه العذبتان، بلون السكّر الخام، تمرّان على الجدار الذي طُلِي منذ أعوام بالأزرق السماوي، ثم بات رماديّاً يتساقط طلاؤه. يتمهّل عند صدعٍ تتحرّك داخله حشرة داكنة، برّاقة. ربما كانت مزغبة، مثل العنكبوت. عنكبوت أسود متوارٍ في مخبئه، مُموّه تحت الظلال، خفيّ، يفرز ريقاً من الحرير الذي يغزل به خيوطه.

تنزل عينا أركانخِل على الجدار شيئاً فشيئاً، وتمرّان بوسادة الريش التي زحف عليها شعر الصبية كاللبلاب الشره، ثم تمضيان في سبيلهما، وتُنعمان النظر إلى شامة على حافة شفتَيْها، شامة صغيرة طريفة تكاد تكون مغروسة عند ملتقى الشفتين، وكأنها قد فرّت لتوّها من داخل ثغر الفتاة، وكأنها حشرة صغيرة تعيش في كهف الفم، أطلّت برأسها، وتودّ العودة إلى مخبئها مرة أخرى. بَيْد أنها لا تتحرّك: فهي لا تعدو أن تكون شامة، تُكشَف طلاسم سرّها في لحظة واحدة، فينسى أركانخِل أمرها.

يعلو جسده ويهبط فوق الفتاة، وصليب كاراباكا المُدلّى من عنقه بسلسلة يتمايل على وقع حركاته، مثل بندول من الذهب. ينهمك عضوه في العمل، بينما تشرد عيناه، وتنزلان مروراً بالملاءة، وصولاً إلى الأرضية ذات البلاط المُربّع، بلونَيْه الأخضر والعاجي مثل رقعة الشطرنج، يمرّان على الأرض حتى يبلغا الركن الذي

t.me/qurssan

بقيت فيه صينيّة الفطور، وهناك تكتشفان صرصورَيْن نحاسيّيَن يرتعان فوق بقايا الطعام، بمجسّاتهما التي لا تخيب، المُهيّأة للكشف عن الأخطار. يتأرجح أركانخِل فوق الفتاة السمراء، يعلو ويهبط كالأرجوحة، ويراقب هذين الصرصورَيْن القويَّيْن بدروعهما المُكوّنة من الكيراتين، وقد نجيا من حملات الإبادة الشهرية التي تشنّها الخرساء، وسخرا من تفتيش المكنسة الصباحي. ولكن مهما عمّر الصرصور، فهو كائن تافه. ولذا يفقد أركانخِل اهتمامه.

وأسفل جسده، تتأوّه الفتاة التي لا اسم لها، وتطلق آهاتٍ مكتومة، في محاولة لجذب انتباهه على استحياء. يهيمن عليها أركانخِل وكأنه آلة، من دون أن يلقي إليها بالاً، بالحركات المنضبطة الآلية نفسها التي يؤدّيها وهو يمارس تمارين البطن اليومية مئتي مرة، أو يركب الدراجة الثابتة. يأتيها في غير اشتهاء، يطارحها الغرام بلا غرام. إنها فتاة كغيرها الكثيرات. مهما بلغَت من الجمال، فهي فتاة نكرة، وتافهة هي الأخرى.

أما العنكبوت... ذلك العنكبوت الذي ينقّب، ويغزل، ويترصّد... ذلك العنكبوت المشؤوم يترك أركانخِل مُتوجّساً. تعاود عيناه التفتيش عنه، فيتسلّقان الجدار من جديد حتى يعثر عليه مدفوناً في كهفه، يعلوه الغبار، حيّاً، نشيطاً، مُتربّصاً، ذكيّاً. في ذلك الكائن شيءٌ عصيّ على التفسير، شيء يرغم أركانخِل على مراقبته. مغناطيس. قوة مألوفة. بريقٌ شُوهِد من قبل. يُصدِر العنكبوت إشاراتٍ محمومة يعرفها الصغير بالفعل. يميّزها ببطء. لم يكُن العنكبوت عنكبوتاً. بل إن سيقانه أهداب، وحركاته اختلاجة جفن، وبريقُه -القويّ الرطب- رغبة. كان العنكبوت عيناً بشرية. إنها عين الخرساء الفاحصة التي تختلس النظر من وراء الجدار، عينها المغناطيسية، المزغبة، آكلة اللحم... عين العنكبوت الصياد، التي تنوّم الفريسة بالإيحاء وتستدرج ابن الأخت الشاب إلى أعماق الصدع الذي في الجدار، وتفتح وتغمض كي تلتهمه حيّاً بكلّ ما له من جمال حديث العهد.

«إذاً، فما يُقال صحيح. الخرساء تأخذ الفتيات إلى أركانخِل كي

t.me/qurssan

تسترق النظر إليه وهو يطارحهن الغرام».

مُتّقدةً بغرامها السرّي، تائهةً في الدغدغة التي تسري تحت حزامها الحديدي، تتوارى الخالة المنعزلة في حجرتها المجاورة وتراقب ابن أختها المعبود...

- «ربما كانت تداعب نفسها وهي تتجسّس عليه خلسة...».

- «ما كانت لتقدر. كيف والحزام يمنعها بأسنانه الحادة؟ ست وثلاثون سنّاً من الأمام وخمس عشرة سنّاً من الخلف».

- «قد لا يكون لمثل هذا الحزام وجود».

- «إذاً، فلماذا يدّعي الناس وجوده؟».

- «أولاً، لأن الناس يدّعون أموراً. وثانياً، لأنهم لم يعرفوا لها رجلاً قطّ. وثالثاً، لأن ذلك هو التفسير الوحيد لصليل المعدن الذي يُسمَع كلما مرّت الخرساء، كصوت سلاسل تُجَرّ برفق. التفسير الوحيد لرنين الحديد الآتي من أسفل تنورتها».

- «ماذا فعل أركانخِل الصغير حين أدرك أن خالته تتلصّص عليه؟».

- «في تلك اللحظة بعينها أصبح رجلاً ناضجاً».

«أهذه أنتِ، أيّتها الخرساء؟ أنتِ هناك؟ أهذا جسدكِ؟ أهذه روحكِ؟». في تلك اللحظة، حين يميّز حضور خالته، ويتخيّلها بين ذراعَيْه، يتحوّل أركانخِل بارّاغان إلى عملاق. وإذا فورةٌ من الرجولة تجعل عضوه الرقيق صلباً، وأحلامه القطنية رغبةً في السطوة والتملّك.

شاخصاً إلى عين خالته، مستغرقاً فيها برأسه، مخبولاً في حبّها بقلبه، يتضخّم عضوه ويهتاج من فرط الشهوة، وإذا الصغير السماوي يغدو شيطاناً أحمر منتصباً. يجمع الفتى كما لو كان هزّة أرضية، فيرفع الفتاة الهزيلة المستلقية على سريره في الهواء، ثم يتركها تسقط ويلقي بنفسه فوقها وقد استحوذ عليه جوعٌ

t.me/qurssan

وحشيّ، يعتصرها كما لو كانت مزقةً من القماش، يطبق على أنفاسها بلسانه، ينهل منها بقبلاته، يناديها بخوار حيوان هائج، يلحسها، ينهشها مُتلهّفاً كالكلاب، يهزّها، يَلِجها، يأكلها عن آخرها، كما يلتهم النمر فريسته.

- «وماذا عن الفتاة، ماذا فعلَت؟».

تبلغ اندفاعة الفحولة والشهوة من المفاجأة والروعة حدّاً يبثّ في نفسها الذهول في بادئ الأمر، ثم الخوف، وأخيراً يتركها خائرة القوى من فرط اللذة. وإن كانت طوال الوقت على يقين عجيب بأنها ليست ملهمته في ردود الأفعال المتناقضة التي بدرَت عنه: فلا هي التي ألهمَته عدم الاكتراث اللاهي في بادئ الأمر، ولا تلك الفورة العنيفة في خاتمة المطاف.

أما الصغير الذي بات رجلاً ناضجاً، واعتلى بجسده تلك الفتاة التي لا اسم لها، وشرد بذهنه في خالته الخرساء، شاعراً بندمٍ بلا نهاية، وامتنان بلا نهاية، فيتوجّه بالشكر إلى السماء في تلك الأثناء، ويطلب الغفران.

«اغفري لي أيتها الخرساء، كما أغفر لكِ أنا أيضاً، تذوّقي اللذة معي، وليجرِ ريقكِ معي، بينما أنزع كلّ الثياب السود عنكِ، وأتعرّف بلحمكِ الناضج، وأرنو إليكِ، وأتنشّق رائحتكِ، وأحطّم الحزام الحديدي الذي يكبّلكِ فيغدو ألف شظية، وأنتهك أقفالكِ، وأكسر صمتكِ. أتوسّل إليك، آمركِ، أطلب منكِ: فلينطق ثغركِ، فلينفرج فخذاك لأني في طريقي إلى الدخول. وافتحي عينَيكِ أيضاً، انظري كيف أتغذّى عليكِ، وأرضع من قوّتك، ثم أخرج حتى أفجّر العالَم، وأعاود الدخول حتى أمتصّ منكِ الطاقة، ثم أعاود الخروج، ثم الدخول، أخرج وأدخل، أخرج وأدخل، أخرج وأدخل، وإذا الحبّ المُروّع الذي طالما فتك بي يتفجّر نجوماً، فأنال راحتي أخيراً، في حضنكِ. أغمض عينَيّ، وأوصد النوافذ، وأسدّ الأبواب، وأمحو الذكريات، وأنسى الموتى، وأُبعِد كلّ المخاطر إلى الأبد. تهدهدني كلماتكِ التي تقولينها الآن لي، وأغفو على صدركِ، مُتشبّثاً بيدك، وعسى أن يغفر الرّبُ القدير لي ولكِ».

t.me/qurssan

***

العنوان يشير إلى مرأب. ذلك هو السرّ الذي اشتراه ناندو بارّاغان. مرأب في المدينة. سوف يضع يدَيْه على أولمان فيرنيلي في أيّ لحظة ابتداءً من الآن. يكفيه الجلوس وانتظار أن يمرّ ذلك الرجل ليستقلّ شاحنته الصغيرة التي يواريها عن الأعين هناك. لا أكثر. كلّ هذه الليالي التي أمضاها ساهراً، يتحقّق من بياناته، ويحلّله نفسيّاً، كلّ هذا العصف الذهني وهو يتتبّع أثره، ويدبّر العمليات، ويبطلها، وها هي ذي الطريدة تسقط الآن من تلقاء نفسها، كالثمرة الناضجة، وقد وشى بها كائنٌ مُشوّه جاء زحفاً وسلّم فيرنيلي بلا مُقدّمات، مقابل حفنةٍ من النقود.

يعرف موتشو أن فيرنيلي يخفي شاحنة فورد، باللونَيْن الأحمر والأبيض، منذ ثلاثة أشهر، في ذلك المرأب. ويستعين بها كلّما جاء لقضاء شؤونه في المدينة. قد يمرّ ليأخذها في أيّ لحظة. ربما جاء في منتصف الليل، أو في الصباح، ثم يعود ليتركها في اليوم التالي، وقد لا يظهر طوال أسابيع.

يمتقع ناندو، فيبدو وجهه كسطح القمر بما عليه من فجوات. قبل أن يفرغ موتشو من حديثه، يلقي ناندو بالكرسي خلفه ويهبّ واقفاً، مُتوحّشاً، أخرق، مثل روبوت أدار أحدُهم مفتاحَ تشغيله من فوره. يتضاءل موتشو مذعوراً في وجه آلة الحرب التي بدأت في الحركة. يُبرِز ناندو الكولت كابايّو -المُسدّس الذي قتل به ابن عمّه أدريانو مونسالبيه- ويحشوه برصاصٍ فضّيّ نُقِشَت عليه الحروف الأولى من اسمه. ثم يأمر الرجل الضئيل ذا الجسد المنقوص قائلاً: «هيّا بنا. خذني إلى مكان فيرنيلي».

يعجز موتشو عن الوقوف من فرط الخوف، وكأنه أبتر الساقَيْن أيضاً، مثلما هو أبتر الذراع. فينتظر مرتجفاً حتى يرغمه العملاق على الوقوف دفعة واحدة، ولكنه يراه يتجمّد مكانه بحدّة، وتوقّف نشاطه بغتة. ثم يقول ناندو: «تمهّل لحظة واحدة».

ثم يجلس مرة أخرى ويشعل سيجارة پيليروخا على مهل. يفرغ المُسدّس الكولت بيدَيْه الثقيلتين، ومن فمه تخرج كلمات قاطعة،

t.me/qurssan

بصوت منخفض: «اترك لي ضماناً».

- «على الرغم من رغبته العارمة في الإمساك بفيرنيلي، سيطر ناندو على غريزته القاتلة في الدقيقة الأخيرة، وأجّل التحرّك. أراد أن يؤمّن ظهره تحسُّباً، لعلّه كان فخّاً. لن تكون هذه هي المرة الأولى التي يشتري فيها آل مونسالبيه الرجال حتى ينصبوا له شركاً».

- «اتفقا على أن يكون الضمان والد موتشو الطاعن في العمر وابنه الأصغر. يجب عليه أن يحضرهما من القرية ويتركهما في بيت آل بارّاغان، رهينتين. وإن سار كلّ شيء على ما يرام، أهداه ناندو الأرض التي يعيش عليها، وفوقها مبلغاً من الدولارات. أما إن سار على غير ما يرام، قُتِل العجوز والفتى. ولإنهاء الاتفاق، يتوعّده ناندو بقوله: "وسوف أذيقهما العذاب أولاً، قبل أن أقتلهما"».

***

- «في تلك الفترة التي عاشها في القصر الاستعماري الطراز، بات ماني مونسالبيه أثرى من أيّ وقتٍ مضى. إذ انهالت عليه الصفقات المالية من كلّ مكان. وتساقط عليه الشركاء من السماء. في حين لعبَت الآنسة مِلبا فوكون دوراً مفتاحيّاً: إذ هيّأت له الفرصة للتغلّب على الأحكام المسبقة التي يصدرها عليه أبناء الطبقة الراقية. عرفَت كيف تصل إليهم وتستميلهم. وجمعَتهم برئيسها في العمل على مائدة واحدة، وأتخمَتهم بأمواله».

- «كلّا، بل إن الشيء الحاسم كان تقسيم العمل بين ماني وشقيقه الأكبر. إذ بقي فريبي في الظلّ، يكسب المال المُلوّث، في حين تصدّر ماني المشهد وتولّى غسيل الأموال. وعلى الرغم من مشاعر الغيرة المتبادلة، فلقد شكّلا في ما بينهما فريقاً ناجحاً».

- «أما آل بارّاغان فكانوا يزيدون وحدةً وفقراً يوماً بعد يوم».

- «مات نارسيسو فنسوا أمر الأعمال. ولم يجنوا بيزو واحداً من ذلك الحين».

t.me/qurssan

- «إذاً فلقد نجح مُخطّط فيرنيلي: الإفلاس أولاً، والقتل ثانياً».

- «أجل، نجح المُخطّط. وإن لم يكُن قد تبقّى لهم من الثروة إلّا القليل حين مات نارسيسو، طبقاً لما يبدو».

- «وماذا عن تلال الدولارات التي كانوا يحتفظون بها في السراديب».

- «نفدَت. بدّدوها على الحفلات، والحروب، ومظاهر البذخ. كان زفاف ناندو وآنا سانتانا آخر مناسبة يهدرون فيها مبلغاً ضخماً من المال. في الأيام الخوالي، كان ناندو بارّاغان يلقي بالسيارات الجديدة من فوق الأجراف كي يتلذّذ برؤيتها وهي تتحطّم وتغدو شظايا. كان يتباهى في الشوارع ويشعل السجائر بأوراق مالية من فئة المئة دولار. وكان يروق له نثر الدولارات في الهواء، حتى يتهافت عليها فتيان الحي. كانت تلك هي الطريقة التي يتّبعها لشراء الولاء وزيادة شعبيته، وفي الوقت نفسه كان يتسلّى بمشاهدة أبناء الجنس الواحد وهم يتقاتلون على حفنة من النقود، ويخدشون بعضهم بعضاً، ويمزّق أحدهم الآخر إرباً، في شراسة الضواري. وكان العمود المُشحّم هواية أخرى من هواياته الأثيرة. فكان يأمر بتنصيب عمود مُضمّخ بالزبد وسط الساحة أيام الأحد وفي الأعياد، عمود يبلغ من الطول ستة أمتار، على قمته حقيبة ممتلئة إلى حافتها بالمال، فنكاد نجنّ ونحن نحاول تسلّق العمود حتى القمة والحصول على الغنيمة، أما هو فيكتفي بمشاهدتنا وقد تحوّلنا إلى قرود مُشحّمة، جشعة، مُمتنّة، حتى يشعر بأنه هو الملك. لم يتمكّن أحدنا من بلوغ القمّة يوماً، ولم نفلح في التسلّق أعلى من ثلاثة أمتار، أو أربعة، ننزلق بعدها إلى الأسفل. ذات أحد، نجح في تسلّق العمود فتى كُنّا ندعوه فوسفوريتو، شعره شديد الحمرة، صموت. فانطلق الحيّ بأسره هاتفاً ومُصفّقاً، «براڤو فوسفوريتو!»، «أحسنتَ صنعاً يا ذا الشعر الأحمر!»، غير أنه لم يأخذ الحقيبة، بل إنه حين بلغ القمة أطال النظر إلينا كمن يأسف لحالنا، ويهزأ بنا، ثم فتح ذراعَيْه كما يبسط الطائر جناحَيْه، ألقى بنفسه في الهواء، فهوى رأساً، وارتطم بالأرض. في عزائه الذي أقيم مساء ذلك اليوم شربنا البيرة حتى

t.me/qurssan

سكرنا، وفي أوج السكر شرعنا نبكي ونلعن حياتنا، تلك الحياة المحفوفة بالموت. كان زمناً مجنوناً، عصيباً، حافلاً برنين النقود، وأنهار الدماء الجارية، والقنابل المُدوّية. ما عاد الناس يعرفون من هم، ولا ماذا يُدعَون، ولا ما الذي يجب عليهم فعله».

- «هل كان أهل ناصية النار جميعاً يتقاضون من ناندو بارّاغان المال؟».

- «ليس جميعهم. إذ كان باكان وجماعته من لاعبي الدومينو يفتخرون بأن ناندو لم يفلح في تلويث أيديهم قطّ. ولقد أزعج فقرهم الراقي بعض الناس ممن أخذوه على محمل التحدّي. ذات ليلة، في ظلّ ملابسات مُشوّشة، تجرّأ أحدهم وأطلق النار على بيت باكان، الذي كان في موضعه المعهود دوماً، جالساً في الخارج على كرسي متأرجح من الخيزران، ناظراً إلى اللاشيء الأبيض الخاوي، منصتاً إلى ذلك الصوت الغنائي، صوت امرأته الخلاسية التي كانت تقرأ له آخر الأخبار من جريدة قديمة صادرة في العاصمة. سمع دويّ الرصاص، فلم يخفض حتى رأسه. مرّت سبع رصاصات على مقربة، من دون أن تمسسه، فغاصَت في الجدار خلفه، وما زالَت هناك. ومن ذلك الحين سرَت شائعات تقول إنه حتى الموت يهابه».

- «ألم يعترض على آل بارّاغان سوى باكان وجماعته؟».

- «بل كان هناك آخرون من أمثالهم. ولكن الكثيرين درجوا على تلقّي المال مقابل التواطؤ. وحين أمسك آل بارّاغان عن توزيع المال، ما عاد أولئك الناس يخشونهم أو يهابونهم، بل إنهم بدؤوا يشيحون عنهم. سرَت الشائعات الزاعمة بأن سنواتهم العجاف قد بدأت، فما عادوا يملكون ما يكفي حتى لدفع أجور الحرّاس. ذات يوم، علم أهل الحي بأن الأخوات قد بعن ما تبقّى من سيارة الراحل نارسيسو الأرجوانية، من دون علم ناندو، السيارة التي احتفظوا بها حتى تلك اللحظة كالأثر المُقدّس. بيعَت السيارة لأنهم ما عادوا يملكون ولا حتى ما يكفي للتسوّق. على مدى أعوام، تعوّدوا على لفائف النقود التي كان ناندو يتركها كلّ نهار

في جارور مائدة المطبخ. فكان كلّ من احتاج إلى شيء من النقود أخذ منها. لم يشغل أحدٌ نفسه بمتابعة الحسابات، ولا بعمل الميزانية. وما الداعي، ما داموا يملكون من المال أكثر مما يسعهم إنفاقه. ذات يوم فتحوا الجارور فوجدوه خاوياً. وفي اليوم التالي أيضاً. لم يجرؤ أحد على الشكوى إلى ناندو، فعُرِضَت الليموزين لنكولن كونتيننتال للبيع بدلاً من ذلك. بيعَت إلى مُتعهّد جنازات أصلح الضرر الناجم عن انفجار القنبلة اليدوية وحوّلها إلى سيارة جنائزية. سرَت النميمة من لسان إلى لسان، فكانت تلك بداية النهاية».

***

تهيم آنا سانتانا كالظلّ في أرجاء بيت آل بارّاغان. في البدء شعروا نحوها بالكراهية، أما الآن فحتى الكراهية ما عادوا يضمرونها لها. يبدو وكأن ليس هناك من ينتبه إلى حضورها الخجِل حين تقطع الأروقة وتسقي أزهار الغرنوقي، حين تخرج من الحمّام وهي ترتدي روبها الباهت بشعرها المُبتلّ الملفوف بالمنشفة، أو حين تجلس على آلة الخياطة السنجر لترتق ستائر حجرتها أو ملاءات فراشها المستدير الذي تعطّل وما عاد يبدو طريفاً. لا أحد يبادرها بالحديث، ولا هي تجيب أحداً، بل إنها راحت تضيف حجراً جديداً كل يوم إلى جدار الصمت الذي يطوّقها.

ربما كانت تلك العزلة التي فرضوها على آنا سانتانا هي التي جعلَت ناندو ونساء آل بارّاغان لا يلحظون أنها استأنفَت العمل بالطلب منذ شهور مضَت، وعادت تتقاضى الأجر من الجارات مقابل تفصيل الموديلات السهلة، ورتق الثياب، وطيّها، وإعادة تفصيل الثياب العتيقة. أما صديقاتها، اللاتي لم يقع بصرهن عليها منذ ليلة الزفاف، فتخيّلنها وهي تعيش حياة الملكات، مُتوّجة بذهب زوجها، وشعرن بالحسد نحوها، في حين كانت في حقيقة الأمر تدفع نفقاتها الخاصة بما تجنيه من نقود: الشامبو، والفوط الصحية، وجوارب النايلون، والأعشاب المُهدّئة، والخيوط من ماركة كادينا، والأشرطة، والأزرار، ودون ذلك من الأغراض اللازمة

t.me/qurssan

للوفاء بالاحتياجات الأولية والعادات الروتينية المتواضعة لشابة مجتهدة ومحتشمة، ما زالت على عهدها كما كانت وهي عزباء.

يؤلمها معصماها. لقد صارَت العزلة والحرمان من الحبّ جزءاً من جسدها، إذ اتّحدا به على هيئة التهاب في المفاصل يطحن معصمَيْها، ويرغمها على تعليق العمل في كثير من الأحيان. تنحّي جانباً تلك التنورة ذات الطيّات المصنوعة من البوليستر الأزرق التي تفصّلها من أجل إحدى بنات أختها، ثم تخرج من حجرتها وتتّجه إلى المطبخ لتنال قسطاً من الراحة وتتناول فنجاناً من القهوة. تمرّ من أمام المطبخ أولاً، وهي تختلس النظر إلى الغبش المُلبّد بالدخان ورائحة البصل: تتأكّد من غياب سيبيرينا، إذ لا تحتمل آنا سانتانا حضور حماتها العدواني المهيب، ولا عينَيْها القاسيتين بسبب الضغائن، المُحمرّتين بسبب الألم. لم تكُن هناك. تدلف آنا، وتمسك بركوة القهوة الدافئة المُحلّاة بالسكّر الخام التي ما زالت فوق الموقد، وتصبّ قليلاً في أحد الفناجين. وفيما هي تهمّ بالخروج، تلمح خيال الخرساء، التي تأكل الجوافة اللاذعة في عتمة مخزن المؤن. تقول لها آنا: «لم أرَك».

تخشى آنا باقي نساء البيت. في حين فازت الخرساء باحترامها. كانت تبثّ في نفسها الطمأنينة بطاقتها العنيدة، وعزوفها عن التباهي، ورسالة الخدمة المثابرة التي نذرَت حياتها من أجلها. تعتقد آنا بأن مونا سفّاحة، أما الخرساء فقويّة. وبخلاف الخرس الطوعي الذي تلجأ إليه سيبيرينا، المترع بالسموم والمحظورات الخفيّة، كان صمت الخرساء القسري يبدو لآنا كالأرض المحايدة، الهادئة، التي تعد بكتمان الأسرار وتدعو إلى الثقة.

لم تكُن آنا سانتانا هي الوحيدة التي تقع أمامها في غواية البوح، بإسهاب، ومن دون أيّ تحفّظات. فجميع أهل البيت يقعون في تلك الغواية من آنٍ إلى آخر، على علمهم بأنهم لن يتلقّوا منها رداً، ولا تعقيباً، ولا مشورة. أو ربما كان ذلك تحديداً هو السبب الذي جعلهم يرونها الشخص المثالي لسماع الاعتراف: الشخص الوحيد الذي يرهف سمعه منصتاً إليهم، مُطبق الشفتين.

t.me/qurssan

تصارحها آنا سانتانا، وهي تتّخذ لنفسها مقعداً بجوار الخرساء: «ليلة أمس تكلّم ناندو في نومه مرة أخرى عن تلك المرأة، ميلينا. دخل إلى الحجرة في ساعة مُتأخّرة، جاء وهو في غاية الاضطراب بسبب واقعة لم يُرِد أن يطلعني عليها. استلقى على السرير المُعلّق، كعادته دوماً، وتركني وحيدةً في الفراش. دخّن خمس سجائر پيليروخا، سيجارة تلو الأخرى، وسحق الأعقاب على الأرض، ثم راح في سبات، فانتبهتُ إلى ذلك لأنه بدأ يغطّ. ولكنه راح يتكلّم عنها، كما فعل مرّاتٍ أخرى، مسرنماً، مجيباً عن كلّ أسئلتي. ثم أولاني ظهره ولم يزِد على ما قال شيئاً. في حين رحتُ أنا أبكي حتى مطلع الفجر».

عينا الخرساء اللتان لا يُسبَر لهما غور تراقبان آنا، وتنفذان من خلالها، تخترقانها طبقةً تلو أخرى. أولاً بشرتها البيضاء التي تليق بدمية عتيقة، ثم قوامها المغلوب على أمره، قوام الفتاة الفقيرة، وصولاً إلى قرارة نفسها، حيث روحها المُعذّبة النازفة التي تصرّ على التمرّغ فوق نصال الكبرياء الكسيرة، وحلم الحبّ المهيض، والغيرة المُستنّة، كما لو كانت من الحواة. لا تقوى آنا سانتانا على مقاومة النظرة التي تحرقها. تقف، تصبّ المزيد من القهوة، ثم تعاود الجلوس، تفرك معصمَيْها المُتألّمَيْن وتتابع الحديث: «أردتُ أن أعرف متى تعرّف بها. منذ أعوام قال لي إنه قد تعرّف بها ساعة المغيب، في مأوى طيور الفلامنغو المُتورّدة. كان مسافراً، فترجّل من السيارة الجيب مُترقّباً عودة سرب الطيور. وفي اللحظة نفسها، حين رأى الطيور تلوح في الأفق، اقتربَت منه صبيّة في الثانية عشرة من العمر. كانت من بنات البؤس: نحيلة، قذرة، أسنانها معطوبة. طلبَت منه قائلةً: "خذني في سيارتك الجيب". فضحك وسألها: "إلى أين تريدين مني أن آخذكِ؟". "بعيداً. إلى حيث لا يعثر عليّ زوجي"».

الخرساء تعرف. فلعينَيْها قدرة الأشعة السينية على النفاذ من خلال الأشياء، وتعرفان أكثر مما ينبغي، عينَيْها اللتين يظلّلهما حاجبان كثّان، وأهداب طويلة. ذات مرة راقبَت أخاها ناندو في نومه، ورأت في أحلامه طيور الفلامنغو، سبع دزّينات منها، تعود

t.me/qurssan

كما هو دأبها كلّ ليلة، إلى الموقع نفسه حيث أمضَت لياليها على مدى أجيال. تأتي وقد أدركها التعب، خافقةً بأجنحتها خفقاً وئيداً في سماء الغروب المُتوهّجة. ناندو في ريعان الشباب، وحيداً، على الشاطئ المهجور الذي يكسوه الملح، مُشمّراً عن ساعدَيْه، وقد اقشعرّت بشرته في مهبّ النسائم الباردة. يترامى البحر أمامه، وبياض الصحراء الكلسي ينبسط على جانبَيْه، ووراءه، على مدّ البصر.

خلا الشاطئ من البشر، إلّا من هنديٍّ عجوز، أجشّ الصوت، قليل الكلمات، عهدَت إليه الحكومة بمهمة بيروقراطية الغرض منها إحصاء عدد الطيور: ولذا يدوّن كلّ مساء، بخطّ يده الطفولي، عدد الطيور الواصلة، وساعة وصولها بدقة، وعند الفجر يسجّل الساعة التي تحلّق فيها. كانت تلك مهمته الوحيدة، فضلاً عن تضييق الخناق على الزائرين المُتفرّقين حتى يتبرّعوا بمساهمة طوعية ويذيّلوا دفتر السياح بتوقيعهم. يعرفه ناندو لأنه كثيراً ما عرّج على ذلك المكان. ولكن العجوز ليس هناك الآن، بل إن الصبية هي التي تقترب لتطلب منه توقيعه. الصبية زوجة الهندي العجوز.

- «أكانت زوجته أم ابنته؟».

- «كانت زوجته، ويُرجّح أنها كانت ابنته أيضاً».

إنها صبية ماهرة، مخادعة، خبيرة في فنّ البقاء على قيد الحياة. تراقب ناندو، تتلصّص عليه. تتحيّن رؤيته مستغرقاً في مشاهدة الطيور الواقفة الآن على سيقانها الطويلة في المياه المُذهّبة، وتمضي خلسةً إلى السيارة الجيب، وتتسلّل من النافذة إلى الداخل في غمضة عين، ضئيلةً، خفيفةً، كالسحلية، ثم تسرق الحقيبة. ينتبه ناندو إلى ما يجري، فيطبق على عنقها بيده، ويرفعها ويهزّها كما لو كانت خرقة بالية. يأمرها: «اتركيها يا لصّة».

تنشب أسنانها في لحم ذراعه، بينما يضربها على مُؤخّرتها ضربة عنيفة، فتُسقِط الغنيمة.

t.me/qurssan

تسأل آنا سانتانا: «أفهمتِ يا خرساء؟ تلك الصبية هي ميلينا الشقراء، غير أنها لا كانت تُدعَى ميلينا ولا كانت شقراء حينذاك. لم يقوَ ناندو على نسيانها منذ اليوم الأول، حين ساعدها على الهرب من زوجها. بسببها لا يحبّني أخوك، حتى قبل أن يعرفني».

***

في عذوبة يقترب البحر وديعاً، أسود، من قدمَي راكا بارّاغان. كان جسده مُمدّداً، تتناثر عليه قطرات المياه، ويسري إليه صدأ النحاس العتيق وجموده. تستكشف السراطين الليلية بشرته العارية، فلا تؤذيها. والقمر يغمره ببريق أزرق يكشف جريان الدماء في عروقه المفتوحة وتساقطها الوئيد، قطرة قطرة، على الرمل الذي يتشرّبها. علامات سماوية، مُرحّبة، تدلّ على هذه الليلة التي طلع فيها البدرُ تامّاً، ليلة موته. أخيراً سطع النور على المُظلِم، وحلَّ السلامُ مُخفّفاً عنه شقاءه. وبات النطق باسمه ممكناً: فما عاد مشؤوماً، ولا مرادفاً للهول.

«لن تعدم الروحُ بحراً يحملها أبداً»، هكذا قال له أخوه نارسيسو الشاعر. ولمّا حانَت سكرة الموت، تذكّر كلماته راكا. وبالرمق الأخير من حياته اقترب من البحر وخرَّ على الضفة. أنعم عليه الماء المالح بالغفران، وردّ له الموتُ ذلك الحسن الذي أنكره عليه هذا العالَم: وأخيراً بات جميلاً، قدّيساً.

- «بمَ قتلوه؟ بسلاح أبيض، أو سلاح ناري؟».

- «قتلوه بغِلٍّ: رمياً بالرصاص أولاً، ثم طعناً بالسكين».

- «ومَن قتله؟».

- «فيرنيلي وأتباعه القتلة، في حفل دمويّ ماجن. سطروا بأيديهم نهاية المُظلِم (وضع في الحسبان أني أقول «المُظلِم»، تجنّباً لتسمية ذلك الكائن باسمه)، ونهاية عصابته عن آخرها. قتلوا سبعة، وبعد ذلك مزّقوهم إرباً. لم تسِر أمور فيرنيلي على ما يرام هو الآخر، مع أنه باغته وهجم عليهم من الخلف. ولكنه لم يحسب

t.me/qurssan

حساباً لشراسة راكا، الذي قتل أربعة من رجاله قبل أن يخرّ صريعاً، كان بينهم اثنان من آل مونسالبيه، من إخوة ماني. أولهما يُدعى أوغو، وثانيهما ألونسو لويس، وقد اشتغلا بالقتل تحت أوامر فيرنيلي، إذ لم يصلحا لشيء آخر. ما لا يعني أنهما لم يعودا من آل مونسالبيه. كانت تلك أول مرة يتعرّضون فيها لردٍّ قوي منذ أمد بعيد: فانخفض عدد الإخوة الباقين على قيد الحياة إلى خمسة في ليلة واحدة، بعد أن كانوا سبعة. لو عاد ذلك الذي لا يجب عليّ أن أسمّيه باسمه إلى البيت، لأقام آل بارّاغان حفلاً طوال أيام احتفاءً ببطولته. ولربما ألّفوا الأغنيات من أجله، وحملوه على الأكتاف... لكن مَن يدري! فناندو لم يرغب يوماً في الاحتفاء به ولا الاعتراف بجدارته في أيّ شيء. والحقيقة أن المُظلِم لم يصل إلى بيته. غير أنه تمكّن بشقّ الأنفس من بلوغ البحر، حتى يقضي نحبه هناك، بينما ظلّت جثامين أصدقائه متناثرة على الطريق، وسط فوضى من الحطام والدراجات البخارية المشتعلة».

شبع جسده طعناً، وراح يدمى كالمسيح، وعلى الرغم من ذلك فلقد أفلح ذلك الذي لن أسمّيه باسمه في الهرب من جلّاديه. ألقى بنفسه على العشب، بعد ذلك تدحرج نزولاً وسط الآجام وقد عميَت عيناه وصمّت أذناه وانطفأ رأسه، وصار بلا أفكار ولا إرادة. ولكن غريزة عنيدة تشبه غريزة السلاحف قد أرشدَته إلى اتجاه البحر ليلاً، فكانت الرغبة الدائمة المستميتة في نيل الغفران واللهفة الطفولية إلى الحنان هما اللتان زوّدَتا جسده الخامد بالطاقة الكافية ليمضي سيراً على القدمَيْن، مجرجراً نفسه، زاحفاً وكأنه كلب طُحِنَت عظامه ضرباً بالعصي، قاطعاً كيلومتراً كاملاً، ثم كيلومتراً آخر، حتى بلغ الشاطئ.

أخذ يخلع ثيابه شيئاً فشيئاً خلال المسير. وهكذا عُثِر على سترته الجلدية قرب الطريق، وقد ترك فيها الرصاص أربعة ثقوب صغيرة مستديرة. الأول في الظهر، على مستوى عظم اللوح الأيمن، والثاني فوق الكتف اليسرى. أما الأخريان ففي البطن، على مستوى الخصر.

t.me/qurssan

- «في اليوم التالي أتمّ الطبيب الشرعي إجراءات التعرّف على هوية صاحب الجثمان. ارتدى قفاز جراحة من البلاستيك ودسّ أصابعه في أربع فتحات تركها الرصاص، وتسعة عشر جرحاً تركَتها السكاكين».

في موضع تالٍ عُثِر على البوط الأسود ذي النعل الضخم، المُخصّص لرجال الشرطة: بوط عالٍ له أربطة طويلة يُرجّح أنه قد أرغمه على التوقّف عن مسيرة الاحتضار. لا بدّ أنه توقّف، ومال على البوط، مُحرّكاً يدَيْه بالقصور الذاتي. هكذا وحسب تمكّن من خلعه. وعلى مبعدة أمتار وُجِد سرواله مُلقىً، وقد استحال كرة تعيسة من الخيط. أما أسلحته المُدلّلة، التي رافقَته دوماً، فلم يُعثَر عليها. لا الرشاش الذي أطلق عليه «السيدة»، ولا «القطط الثلاثة»، ولا حتى «جُمعة»، ولا المدية الآلية.

- «ربما بُوغِت المُظلِم وهو أعزل...».

- «مستحيل. وإلّا فكيف قتل الأربعة؟ يُرجّح أن القتلة استولوا على أسلحته. في وسعي أن أتصوّر فيرنيلي وهو يعلّقها على الجدار، على سبيل التذكار».

أما الشيء الوحيد من مقتنياته الذي احتفظ به حتى النهاية فهو وسام عذراء الكارمن، شفيعة المهمات الصعبة وحامية القتلة، ذلك الوسام المخيط ببشرته، فوق موضع القلب. وصل إلى المياه خفيفاً، بريئاً، عارياً، كالطفل حديث الولادة.

لفّه الليل الدافئ بالضباب وخفّف القشعريرة القاتلة التي راحت تنفض جسده. مرّر البحر لسانه على الجروح وكوى الألم. روّت الأمواج عطشه وأخمدَت نيران جزعه. نفذَت أصغر الأسماك إلى فمه، وسبحَت في أحشائه، فأفرغَتها تماماً من القسوة التي وقعَت عليه، والقسوة التي أوقعها على غيره. توّجَته أشعة القمر بهالات شاحبة، وأودع ملاك بحري في يده إكليل الشهادة: لأنه عاش شهيداً، واستشهد على يدَيْه عدد لا يُحصَى من الضحايا. وإذا بلسم الأعشاب البحرية الشافية يعالج جسده المصاب، وأسراب القواقع تلملم أشلاء رأسه المُتحلّل بإفرازاتها اللزجة، والمحار

t.me/qurssan

المُتلهّف يشكّل درعاً من اللؤلؤ حول عضوه العنيف، وأناشيد المهد الناعمة تنساب إلى سمعه المُخدّر، وتترنّم بها الريح.

ينحسر المدّ تاركاً جسده مستلقياً على الرمال. يودّعه البحر وهو يكاد يداعب أخمص قدمه. وكأنه تمثال من البرونز، بات راكا بارّاغان بلا حياة، ولا ألم، ولا آثام. يتألّق في عزلته، أبدياً، لا يُهزَم، كإلهٍ شابّ. «عاش مُظلِماً، ومات مضيئاً»، كما ورد في الشاهد الذي لن يضعه أحد على قبره، وإن رسمَته النجوم في السماء تكريماً للراحل، ثم تلاشى بعد لحظة.

***

تحمّر ألينا خيريكو فطراً بالزبد في المقلاة التيفال. لم تكُن قد أبدَت اهتماماً بالطهي قطّ، ولا اضطُرّت إليه، لأن إيلا أستاذة في الطهي. ولكنها منذ فترة بدأت تهتمّ بكتب الطهي ووصفات الطعام السهلة الواردة في المجلّات النسائية.

اليوم، كما هو عهدها كلّ ثلاثاء، تعدّ الطعام بنفسها. تذهب إلى الثلّاجة وتصبّ قدحاً من الكوكاكولا بالثلج، ثم تعود إلى المقلاة وترشّ الملح والفلفل وعصارة الليمون على الفطر. تتبّل اللحم البقري الذي تنوي وضعه في الفرن لاحقاً، تستغرق وقتاً طويلاً في غسل أوراق الخسّ الطازجة: تشعر بلذّة وهي تتلمّسها بينما ينساب الماء البارد بين يدَيْها. بلغَت طوراً مُتقدّماً من الحمل وصار بطنها المُتكوّر يحول دونها ودون المجلى. تقطع الطماطم، والجزر، والفجل. ثم تنشغل بإعداد المائدة. تختار مفرشَيْن أبيضَيْن مُطرّزَيْن يدوياً، والمناديل المرافقة، وتُخرِج طقمَيْن من الفضيّات. تنسّق أزهار السوسن في مزهرية تتوسّط المائدة المستديرة، وتضع كأسَيْن، وسلّة الخبز، وصحوناً بيضاً مُذهّبةَ الحواف. تضع شمعداناً مُزوّداً بالشموع، ولكنها لا تلبث أن تنحّيه جانباً وهي تفكّر: «رومانسي أكثر مما ينبغي».

- «مَن ذا الذي دعَته على العشاء تلك الليلة؟».

تروح وتغدو من المطبخ إلى المائدة، حافية القدمَيْن، لأن الطبيب

t.me/qurssan

لم يتمكّن من علاج تورّم قدمَيها، وهي ما عادت تحتمل الحذاء. صارت سريعة الشعور بالإجهاد، وانحصر روتينها اليومي في الغزل، وإعداد مستلزمات المولود، ومشاهدة المسلسلات مساء والأفلام ليلاً على شاشة البيتاماكس، والتمشية لمسافات قصيرة، والاعتناء بالنباتات التي أصبحَت الآن تملأ شرفتها، وتزيين الشقة، والاستماع إلى أسطوانات الموسيقا، وتصفّح المجلّات.

تحضر دورات الاستعداد للولادة والأمومة ثلاث مرات أسبوعياً. ليسَت لها صداقات، ولا ترى أخواتها إلّا بين الحين والحين. طوال سنوات الزواج التي أمضَتها مع ماني، درجَت على الانعزال المفروض عليها بسبب الأنشطة غير المشروعة التي حالَت دونها ودون التعرّف على أصدقاء جدد وأبعدَت عنها الأصدقاء القدامى.

- «في تلك الليلة أعدّت ألينا المائدة من أجل شخصَيْن. مَن الذي كانت تعتزم مشاركته العشاء؟».

لم تعُد لها رفقة سوى إيلا العجوز، التي تعتني بها وتشملها برعايتها ليل نهار، والمحامي ميندیس، الذي يحلّ المشكلات العملية في حياتها (ابتداء من إصلاح قابس محترق وصولاً إلى إعداد الإقرار بالضريبة على الدخل). صار المحامي ناصحها وكاتم أسرارها، وبات حضوراً يشملها بالحماية، مُسلّياً، هادئاً، وسط عزلة كان من شأنها أن تسحقها وترغمها على العودة إلى جوار ماني لولاه. مرات كثيرة أوشكَت على فعلها. حتى إنها كانت تلتقط التليفون بيدها، في الثالثة صباحاً، أو السادسة مساء، وهي على أهبة الاتصال برقمه والإعلان عن استسلامها.

فقال لها ميندیس: «متى وجدتِ نفسكِ على وشك الاتصال بماني، اتصلي بي أنا حتى نناقش الأمر بهدوء بال. لا تسمحي لليأس أو الحزن بأن يدفعاكِ لاتخاذ خطوة قد تندمين عليها مدى الحياة».

وثقَت فيه ألينا إلى حدٍّ جعلها تسأله ما إن كان في وسعها إيقاظه أيضاً كلما انتابتها الكوابيس التي تظهر فيها الفرس السوداء، تلك

t.me/qurssan

التي ما زالت تطرقها في أحلامها، وهي تنتفض وتزبد، وسط هاويات من الكدر والخوف والشعور بالذنب. فقال لها المحامي: «في أيّ وقت، اتّصلي بي ودعينا نطرد ذلك الحيوان».

مع أنه يعيش في مدينة أخرى، يسافر ميندیس إلى المرفأ مرتين أسبوعيّاً، الأمر الذي يلائم ظروف عمله، ولكنه يسافر حتى يكون معها فوق كلّ شيء. يرافقها ليلتَي الأحد والثلاثاء من كلّ أسبوع، كمن يؤدّي طقوساً مُقدّسة.

- «إذاً، فميندیس هو المدعو على العشاء...».

في تمام الساعة الثامنة يقرع ميندیس باب الشقة. يظهر عليه أنه قد اغتسل منذ قليل، ويبدو مشرقاً، مُعطّراً. يرتدي قميصاً جديداً، فتحتفي به ألينا، إذ انتبهَت إلى الأمر. تستقبله في أبهى حلّة، بثوبٍ أرجوانيّ، وقد ضمّت شعرها إلى الوراء بشريط باللون نفسه.

- «على الرغم من الحمل، ما زالت ملكة جمال...».

يأتي صوت إيدي غورمي وفرقة لوس پانتشوس من مُشغّل الأسطوانات. يجلسان إلى المائدة. يجد اللحم يابساً ومع ذلك يقول إنه شهيّ المذاق. يأكل حصّته عن آخرها، ثم يتناول المزيد، ويتحدّثان، ويضحكان.

وفي وقت لاحق، بينما هما يتناولان القهوة في الصالة، تُطلِعه ألينا على مريول جديد تغزله من أجل المولود. ولكن المحامي مُتوتّر، في باله أمور أخرى. لا يرى المريول أمام عينَيْه، ويجيبها بشيء ما، فتسأله: «أيبدو لك صارخاً هذا الخيط الأخضر بلون النعنع؟».

لا ينتبه حتى إلى موضوع الفيلم الذي يشاهدانه. السبب في اضطرابه يكمن داخل حقيبته الخليقة بمدير تنفيذي: فهناك احتفظ بما قد يكون سرّ سعادته. القطعة الأخيرة في الأحجية التي ساقها الحظّ إلى طريقه شيئاً فشيئاً. كانت الحياة تبعد ألينا خيريكو عن مانى مونسالبيه، وتقرّبها إليه، فاستغلّ هو الريح

t.me/qurssan

المواتيـة لصالحه من أجل توثيق الوشائج الخفية بجرعاتٍ لامتناهية من الصبر، والتكتّم، والحنان، حتى لا يلوي ذراعها، أو يُهدِر كلّ شيء قبل الأوان. لم يسلك مسلك الخُطّاب يوماً. بل إنه لعب دوره بجرعات مُحدّدة بدقّة، دور صديق المرأة الحبلى الوحيدة، ذلك الذي لا يسعى إلى تحقيق أي مصلحة، وتجمعه بها صداقة غير مشروطة. إلى أن تحين اللحظة المناسبة، يجب ألّا تشعر ألينا حتى بمُجرّد الارتياب في رغبته المادية، وحبّه المستميت الذي يضمره لها، ولا استعداده للزواج بها، وحملها بعيداً، وتبنّي الطفل الذي تترقّب مجيئه كي يحبّه ويربّيه كما لو كان ابنه، والهيام بها والاعتناء بها حتى يفرّق الموت بينهما... الأمر الذي ربما وقع قريباً، إن اتّخذ ماني هذا القرار. ولكن ميندیس لا يأبه: فهو على أهبة المخاطرة.

- «لم يكن ميندیس قادراً على الاستعجال، ولا إهدار اللحظة...».

فالتمهّل والتعجّل في الخطورة سواء. وإن لم يحرّك ميندیس المياه الراكدة، فسيستمرّ الوضع الحالي إلى الأبد، ويظلّ يلعب دور السامريّ الصالح على الدوام. أو دور القديس يوسف.

- «بل دور التيس. فلسوف يرعاها ويدلّلها حتى يأتي من يفوقه حذقاً ويأخذها من بين يدَيْه. ولكن بمَ كان يحتفظ في الحقيبة؟».

يحتفظ المحامي في حقيبته بالعدد الأخير من مجلة كروموس، وقد ورد في باب الحوادث تقريرٌ كامل بعنوان «حرب آل بارّاغان على أبناء عمّهم آل مونسالبيه»، عن ليلة المذبحة التي قُتِل فيها المُظلِم وأصدقاؤه، مُرفقاً بصور ظهرَت فيها الجثامين متناثرة على الطريق، وآثار الدمار، والتخريب، والرعب المُخيّم بألوانه كافة، وبكلّ ما ينطوي عليه من هول. إنها تَذْكِرة وحشية من أجل ألينا، تحسّباً، لعلّها تنسى مذاق الدمّ، مذاق العالَم الذي تريد تركه ولا تريد في آن واحد.

ولكن هذا ليس كلّ شيء. إذ ورد في المجلة المزيد، وكأنه ملف أعدّه ميندیس بنفسه حتى يدفع مهمّته العنيدة إلى الأمام دفعةً

t.me/qurssan

أخيرة، مهمّة الإقناع والإغواء. فلقد ظهر على صفحات المجلة الاجتماعية تقرير مُصوّر عن حفل عيد ميلاد أُقيم في العاصمة.

- «وما صلة ذلك الحفل بأليا خيريكو؟».

أُقيم الحفل على شرف الآنسة مِلبا فوكون، التي أتمّت عامها الرابع والثلاثين، وفي جميع الصور يظهر برفقتها «رجل الأعمال الناجح، ابن الساحل»، ماني مونسالبيه. لا يدري مينديس ما إذا كان نشر المقالَيْن في العدد نفسه مغرضاً، أو عارضاً، أو إنه مُجرّد سهوٍ تحريري. في الصورة الأولى تظهر مِلبا وماني وهما يرقصان معاً، وفي الثانية يظهران مع باقي المدعوين، وفي الثالثة تُطفئ الشموع، وفي صورة أخرى يسلّمها ماني الهدية. أما في الصور الأخيرة فيتعانقان.

طبقاً لعادتهما كلّ ثلاثاء، يقوم المحامي ويغادر بمُجرّد انتهاء الفيلم، والليل يكاد ينتصف. ولكنّه لا يغادر في تلك المرّة. بل إنه يمدّ الزيارة، ويكسب الوقت ليحسم أمره: أيسلّم المجلة لأليا؟ أو تكون هذه قسوة لا طائل يُرتجَى من ورائها؟ يرجّح كفّة الـ«نعم»، فيطلب من أليا فنجاناً آخر من القهوة. ثم يرجّح كفّة الـ«لا»، فيتكلّم عن كرة القدم. الأفضل أن يطلعها... فيقول إنه مُجهَد ويتّكئ على الأريكة. الأفضل ألّا يفعل... فينهض ويستعدّ للذهاب.

وفي الدقيقة الأخيرة يستجمع شجاعته، ويُبرِز المجلة من الحقيبة بلفتة حاول أن يجعلها غير ملحوظة، غير أنها تبدو مسرحية. «أرأيتِ هذا؟»، يسألها بنبرة أرادها أن تكون عفوية، فجاءت خطيرة.

تلتقط أليا المجلة، تتصفّحها، وتقع عيناها على صورة المذبحة، ثم صور عيد الميلاد، فتغرورق عيناها الرماديتان بالدموع. في البدء تبكي على استحياء، ثم تطلق لدموعها العنان. تقول في استنكار: «لماذا تطلعني على هذا؟ والآن تذهب وتتركني مُحطّمة».

فيسارع بقوله، وهو يعانقها: «إن شئتِ فلن أذهب».

t.me/qurssan

يجلسان على أريكة من قماش الكريتون معاً. تذرف ألينا دموعاً غزيرة سخينة على كتفه، فتخضّل قميصه الجديد. بينما يتجرّأ هو ويداعب شعرها في تفانٍ يُلبِسه ثوب الأبوية، يجفّف وجهها بالمنديل، ثم يعيرها إياه كي تمسح أنفها، يضمّها إليه ويهدهدها في عذوبة، هي وابنها، ويشعر بأنهار من العسل تغمر روحه.

- «أفلحَت لعبته...».

يجري تيّارٌ من الحلوى والسكّر في عروق ميندیس عندما يحسّ بالجسد النابض للمرأة الحبلى وهو يضمّه إلى جسده. وهكذا يخفّ البكاء الغزير رويداً رويداً، وتستغرق ألينا في نشيج مُطوّل، ثم رجفات خفيفة تقطعها زفرات من آنٍ إلى آخر، وأخيراً تهبط على أرض النعاس الشجيّ، فيعود اللون الرمادي الهادئ إلى عينَيْها المُحمرّتين.

الآن يتسلّل إليها النعاس وهي ما زالت مُتّكئة على كتفه، فيبدو له إعجازاً أن تمرّ الدقائق من دون أن تنأى بنفسها عنه، وكأنها قرّرَت أن تتّخذ لنفسها عشّاً على جسد الرجل الأربعيني الضخم الرقيق. يقول في تهاون: «لقد عُرِض عليّ منصبٌ جيد جدّاً في المكسيك. أتروق لكِ المكسيك؟».

فتقول في استنكار: «والآن تذهب أنت أيضاً!».

وينذر البكاء بالعودة.

«ولكن إن شئتِ أخذتُكِ معي»، يوشك ميندیس أن يقولها، غير أنه يكبح جماح نفسه، وإلّا بدَت انتهازية مُنفّرة من جانبه. الأفضل أن ينتظر إلى الغد، أو بعد الغد. أما الآن فكل ما يجب عليه أن يحميها بين ذراعَيْه، ويحبّها حبّ عبادة من دون كلمات، ويداعب شعرها الكستنائي من دون ضغط ولا شهوة، حتى تقول إنها متعبة وتريد أن تنام.

- «بقيا على تلك الحال حتى أشارَت عقارب الساعة إلى الثانية صباحاً. خرج ميندیس من هناك مطمئنّاً إلى النصر الذي أحرزه. أخيراً، بعد كلّ الخيوط التي حاكها، ها هو ذا يصنع الغرزة

t.me/qurssan

الأخيرة. ما عاد ينقصه سوى العقدة المتينة، وإن بدا له من الملائم تأجيل الأمر إلى يومٍ لاحق».

- «وفي الشارع استقلّ سيارة أجرة وطلب من السائق أن يأخذه إلى الفندق. بلغ من السعادة حدّاً جعله يدفع الأجرة مضاعفة».

تشير عقارب الساعة إلى الرابعة صباحاً والمحامي يتقلّب في فراشه عاجزاً عن النوم من الانفعال. تعتمل في نفسه آمالٌ محمومة، تبثّ في صدغَيْه الحرارة. يستحضر في ذهنه المشهد الذي عاشه من فوره، حتى يتأكّد أنه قد جرى حقّاً، ويسجّله في ذاكرته. تتذكّر أصابعه ملمس خصلات ألينا، وتستحضر وأنفه رائحة الفراولة التي تركها الشامبو في شعرها، وما زال عنقه يحسّ رطوبة أنفاسها الدافئة، وما زال ظهره محتفظاً بأثر يدَيْها الطويلتين البديعتين.

وإذا جرس الهاتف يفزعه بغتة. يحدّثه شعوره بأنها ألينا.

- «هل كانت ألينا؟».

- «أجل، أجل، كانت ألينا».

يرفع مينديس سماعة الهاتف قائلاً «ألو»، فتأتي الكلمة مفعمة بالحبّ، مُتهدّجةً، من أعماق روحه، معربةً عن هيام خالص وامتنان بلا نهاية ووعد بالسعادة الأبدية. تقول له ألينا: «لقد اتّصلتُ بماني لتوّي، لأني أريد العودة إليه».

- «كيف؟!».

تكرّر عليه ألينا ما قالته من فورها.

- «أجننتِ؟ أتريدين لابنك أن يكبر وسط القتلة، وينتهي به الحال قتيلاً؟».

يرفع المحامي صوته، فاقداً السيطرة. لا يفهم شيئاً، ويتحدّث بلهجة غير مسبوقة. يحسّ ألماً رهيباً في صدره، وكأن نوبةً تحوم حول قلبه. يحاول أن يسترد رباطة الجأش، ثم يردف قائلاً:

t.me/qurssan

«مهلاً، لا تفعلي شيئاً، إن شئتِ سأذهب الآن إلى بيتكِ...».

يتردّد صوتها في سمعه مثلما يدوّي ناقوس المقابر: «لم يعُد هناك ما يمكن عمله. لقد اتّصلتُ به. أتمنّى أن تظلّ صديقي...».

«أتمنّى أن تظلّ صديقي»، تنساب الكلمات عَبْر سلك التليفون طنّانةً، وتنغرز في رأس ميندیس كالإبر المُسمّمة. بصعوبة يهمس، مُعذّباً: «لمَ فعلتِ ما فعلت؟».

- «مذبحة المُظلِم كانت بشعة، هي وكلّ المذابح التي ارتُكِبَت... ولكن ماني ليس هو مرتكبها. لم يعُد هو القاتل منذ وقت طويل. لقد تغيّر. أتفهمني؟ تغيّر من أجلي».

***

- «مسكين هو المحامي. حقّق عكس النتيجة المرجوّة. فلقد آتَت المجلّةُ ثمارها، ولكن بالعكس».

- «حين خرج ميندیس من الشقة، استلقَت ألينا على فراشها ممسكةً بالمجلّة. ظلّت تنظر إلى الصور طوال ساعتين، صور حفل عيد الميلاد، لا المذبحة. فرأت ماني وسيماً، ثريّاً، أنيقاً، راقياً، مختلفاً عن القاتل الذي كانه زوجها في ما سبق. رأت حوله لفيفاً مرموقاً من الناس. لا سلاح، ولا رماة، ولا حتى تين پويوا. رأت ماني كما حلمَت به دوماً، باستثناء تفصيلة واحدة: كان برفقة امرأة أخرى. لا بدّ أنها فكّرَت بينها وبين نفسها: "تحمّلتُ الصعاب كي تأتي هذه المرأة وتفوز بالملذّات!"».

- «كانت غيرتها أقوى من الخوف...».

- «كانت الكلمة الأخيرة للغيرة. وإن أغراها احتمال أن يكون زوجها قد صار صالحاً شريفاً، منذ الحفل الشهير في القصر الاستعماري الطراز، أن يكون قد تخلّى عن الحرب ونال صفح آل بارّاغان».

t.me/qurssan

- «كان غضب ناندو بارّاغان حين علم بمقتل المُظلِم مُروّعاً، ولكن دفيناً: فلم يبالغ في التأثّر ولا إظهار مشاعره. أمضى ناندو أياماً وليالي وهو لا يبارح مكانه أمام المرأب، حيث كان يترقّب ظهور فيرنيلي، وفي تلك الأثناء تمكّن فيرنيلي من تصفية أخيه. بدَت وكأنها مزحة».

- «ماذا فعل ناندو؟ هل قتل موتشو وأباه وابنه؟ هل عذّبهم قبل أن يقتلهم وفاءً بوعده؟».

- «كلا. ذلك ما أراده رجاله، أما هو فأبى. لم يُعمِ الغضب بصره. إذ فكّر بينه وبين نفسه أن ما وقع ليس من قبيل خيانة البشر، وإنما ألاعيب القدر. وهكذا ما برح يترقّب فيرنيلي في المكان نفسه، بقدرٍ أكبر من العند والمثابرة. لم يبارح مكانه ولا حتى لحضور الجنازة. غسلَت مونا جثمان راكا، وألبسَته ثيابه، ووضعَته في النعش. وحدها كانت قادرة على ذلك، إذ لم يحبّه أحد أكثر مما أحبّته مونا».

- «هل تألّم ناندو لمقتله؟».

- «غضب، ولم يتألّم».

تستحوذ عليه تماماً فكرةُ محو فيرنيلي من الخارطة، ولا تسمح له برفاهية التفكير في شيء آخر أو الإحساس به. لا يخرج من الشاحنة السلفرادو، المُموّهة جيداً، التي أوقفها على بعد مُربّعَيْن سكنيّيْن من المرأب المذكور. وعلاوة على ذلك، فقد وضع شبكة من المراقبين حتى يحذّروه بمُجرّد ظهور الضحية. في الشاحنة السلفرادو يدخّن ويأكل وينام. غير أنه لا ينام جيداً، بل ينطوي على نفسه فوق مقعده، مُتوتّراً، حذراً، والنظارة الرايبان مُثبّتة على أنفه الذي يليق بملاكم، مُدجّجاً بسلاحه، مُدلّياً رأسه، فاغراً فمه. تداهمه الكوابيس التي تنتزع منه صرخات غليظة وتُرجِف أجفانه المغمضة وحدقتَيْه تحت النظارة السوداء. في بعض الكوابيس يرى ميلينا الشقراء وهي تمضي مبتعدة: وتلك أكثر كوابيسه تكراراً. أما في كوابيسه الأكثر إثارة للاهتمام، فيتبدّى له العمّ، ناسك الصحراء، المستشار الروحي لآل بارّاغان وآل

t.me/qurssan

مونسالبيه، الهرِم الذي يذهب تصلّب الشرايين بعقله أحياناً، المهزول إلى حدٍّ جعله يكاد يكون هبّةً من الهواء، أو عدماً خالصاً، تلفّه تجاعيد الشعر الكثّ والأطمار البالية. يسأله ناندو، في سباته: «من هو أولمان فيرنيلي؟ وكيف تجب عليّ مواجهته؟».

فيجيبه العمّ بحقائق من الآخرة، وأنفاس كريهة من القبر: «إنه نكرة، عديم الأخلاق. أما أنت فناندو بارّاغان، الكبير، والعالَم يترقّب منك بطولاتٍ عظيمة».

تحين ساعة الصفر، ويدقّ جرس الإنذار. وعَبْر الهواتف اللاسلكية تنتقل الإشارات، تروح الرسائل وتأتي من ركن إلى آخر، من سيارة إلى أخرى. يسري تيار كهربائي في الهواء. يترجّل ناندو من الشاحنة السلفرادو ويطرد سرابات النوم بحركة واحدة. يحشو المُسدّس الكولت العتيق برصاصات من الفضة. يشدّ عضلاته، ويجمّد مشاعره، ويشلّ خفقات قلبه، وإذا هو محض أعصاب ومعدن، عصيّ على الاختراق، مقاتل.

يُسمَع دبيب الخفّ وئيداً، ضجراً، وكأنه لعجوز عائدة بعد شراء الخبز والخضراوات. يتجاوز الخفّ ذلك الركن ويظهر فوقه فيرنيلي، طويلاً، رثّ الهيئة، بشعره القذر الملتصق برأسه، وقميصه الباهت، وبشرته الشمعية، البيضاء، الشاحبة.

تنظر عيناه الملتهبتان يمنةً ويسرة، تتلفّتان إلى الخلف تحسّباً، لعلّ أحدهم يقتفي أثره. يتحقّق من الشارع المفضي إلى المرأب. فيجده وقد خلا إلّا من البعوض المتطاير فوق برك المياه والكلب الأصفر الذي يعترض طريقه دوماً. في هذه المرة أيضاً يلاحقه نابحاً على كاحلَيْه فيطرده بحجر.

على مدى شهور استخدم هذا الموضع حتى يخفي سيارته من دون مشاكل. يروقه المكان لأنه مندمج في حيّ بروليتاري من أحياء المدينة، بما لا يلفت الأنظار، في شارع خالٍ من السكّان ومن الجيران الذين قد يتلصّصون عليه. الشاحنة عتيقة، طلاؤها متساقط، لا تسترعي الانتباه. ليسَت بالمركبة التي تصلح للقتال، ولكنه يستعين بها في التنقّل من دون أن تقع عليه الأبصار.

t.me/qurssan

استخدم فيرنيلي اسماً زائفاً، وليس هناك ما يدلّ على ارتياب السائس في شيء. ليس لديه ما يدعو إلى الارتياب. إذ لا يسعه التعرّف على فيرنيلي، ولم تسبق له رؤيته قطّ. اليوم يبدو كلّ شيء كعهده دوماً. فلا شيء يجري. ينظم فيرنيلي كلامه الموزون: «لا جديد، بالتأكيد».

غير أنه على خطأ في هذه المرة، فوراء النوافذ مناظير فائقة الدقّة تحدّد موقعه وتقتفي أثره في الشارع، ماضياً نحو المرأب. كلّ ما خاضه من حروب عصابات وحروب مضادّة واغتيالات، وكلّ المرّات التي نجا فيها من السجون والجبال والعوالِم السفلية... كلّ هذا لم يسعف حاسة الشمّ لدى ذلك الثعلب العجوز في تلك اللحظة الغريرة حين دخل إلى عرين الذئب بقدمَيْه، وحيداً، أعزل، ساذجاً كالطفل يومَ المناولة الأولى.

تراقبه المناظير، وإن لم تُطلَق عليه النيران: إنها أوامر الزعيم. الكلّ يعرف أن طلقة واحدة، نظيفة، تنطلق مصحوبة بالأزيز، تنفذ عَبْر صدره وتخرج من ظهره، سوف تضع نهاية هذه الحلقة من دون أن يُضطَرّ أحدٌ إلى تجشّم المتاعب. وإلّا فيكفي إلقاء قنبلة واحدة في الشاحنة حتى يحلّق فيرنيلي عالياً في السماء. ولكن ناندو لا يقبل بذلك.

- «كان القتل عند ناندو فنّاً ورسالةً، كمصارعة الثيران عند المصارع، أو رفع شعائر القدّاس الإلهي عند الكاهن».

- «هكذا هم آل بارّاغان. من أصحاب الأفكار العتيقة».

- «يومذاك عفا ناندو ثلاث مرّات عن حياة فيرنيلي، قاتل أخوَيْه. ثلاث مرّات، ذاع خبرها في ناصية النار مثل كبوات المسيح الثلاث أو شعرات الشيطان الثلاث. كُنّا نعرفها عن ظهر قلب، المرة الأولى، والثانية، والثالثة، وعلى الرغم من ذلك فلم نملّ تلاوتها ولا سماعها».

- «ماذا عن المرة الأولى؟».

متوارياً عن الأعين خلف الجدار، جامداً كالحجر، يراقب ناندو

t.me/qurssan

ذلك الشخص الطويل الرمادي الذي يدخل إلى المرأب. أهو فيرنيلي حقّاً؟ أجل، إنه هو، مثلما رسمه في مخيّلته طوال نوبات هذيان الثأر، باستثناء الشعر، الذي كان أخفّ مما تصوّر، والنظرة، التي كانت أشدّ مرارة. إنه هو، بلا أدنى شك: الوشم الذي جاء فيه «الرّب والأم» يبدو على ذراعه وكأنه الختم الذي وسمه به مالك العبيد. يقف ناندو على مقربة منه إلى حدٍّ يسمح له بسماع أنفاسه الخشنة، وتنشّق لذوعة عرقه البائت. يتفحّصه بإمعان كالمُتخصّصين. ويمعن النظر إلى تفاصيل هزاله الذي يليق بالرهبان، ويرى القسوة في يدَيْه ذات المفاصل المُتورّمة، ويحدس بوهج عينَيْه اللتين نزل بهما عقاب الالتهاب المزمن. يتبيّن السلاح القصير في حزامه، تحت القميص القذر.

ومن دون أن يعرف شيئاً عن المراقبة التي كان يخضع لها في تلك اللحظة، يقترب فيرنيلي من السائس. يسأله: «كيف الحال، يا وجه البرتقال؟»، ثم يناوله ورقة مالية، يتلقّى منه المفاتيح، يمسح عينَيْه المريضتين بالمنديل، يركب الشاحنة الفورد، يفتح النافذة، يسخّن المُحرّك، يسير إلى الخلف، يدير مقود السيارة، يتّخذ الممر المؤدّي إلى الشارع، ثم يقول: «إلى اللقاء، يا أصدقاء».

- «منذ لحظة دخوله إلى المرأب حتى لحظة خروجه استغرق أولمان فيرنيلي سبع دقائق طوال. ولو أن ناندو بارّاغان لم يقتله في تلك الأثناء، فلقد أمسك عن ذلك مراعاةً للمعتقد القديم الذي ينهى عن نصب الشراك للعدو، ويوصي بتحذيره قبل إطلاق النار. كانت تلك أول مرة يعفو فيها عن حياته».

- «وماذا عن المرة الثانية؟».

ينطلق أولمان فيرنيلي عَبْر الشارع في الشاحنة الفورد بلونَيْها الأبيض والأحمر. فيخرج ناندو بارّاغان في أثره، وحيداً، في شاحنته السلفرادو بلونها الرمادي اللامع. أصدر أمره إلى پاخاريتو پوم پوم وسيمون بالاس وكاتشومبو بألّا يرافقوه، يقول: «يجب أن تدور الحرب رجلاً لرجل، فرداً لفرد».

t.me/qurssan

لمسافة مُربّع سكني ونصف لا يلاحظ فيرنيلي شيئاً. يمضي ببطء، ويوقف السيارة عند مفارق الطرقات، ولا يتوخّى الحذر. يكشف عنقه واضحاً، منتوفاً، وقد برزَت فقراته، كي تُطلَق عليه النيران من الخلف ويُبتَر عنقه كالدجاجة.

- «ولكن ناندو لم يفعلها لأنه لا يطعن في الظهر. وهكذا عفا عن حياته للمرة الثانية».

- «وماذا عن المرة الثالثة والأخيرة؟».

ينتبه فيرنيلي إلى سيارة تقتفي أثره، ينظر إلى المرآة العاكسة، ويميّز ناندو بارّاغان. تبدأ مطاردة من مطاردات الأفلام، تنعطف خلالها السيارتان يمنة ويسرة، وتتوقّفان بحدّة، وينطلق صرير الإطارات المحترقة، ويقدح الشرار، ويسطع الوميض، ويعلو هدير المُحرّكَيْن، ويجري تبادل إطلاق النار بين السيارتين، وهما تنطلقان بسرعة انتحارية. يتمكّن فيرنيلي من الخروج إلى الطريق السريع المُمتَدّ بحذاء الساحل، بَيْد أنه لا يتمكّن من الإفلات من ناندو الذي التصق به كالعَلَق، بلا هوادة، فلم يهادنه ولم يسمح له حتى بالتقاط أنفاسه. وإذا السلفرادو القوية تدرك الفورد، وتحاصرها في الأركان، وتنقضّ عليها في محاولة لدفعها خارج الطريق. تُكلَّل المحاولة الخامسة بالنجاح: فتسقط الفورد في وهدة، وتدور حول نفسها في الهواء دورةً باللونَيْن الأحمر والأبيض، ثم تهبط على سقف السيارة، وإطاراتها مرفوعة إلى فوق.

ومن مكانه بالأعلى يرمقه ناندو باحتقار، مستاءً، لأن الأمر برمّته خلا من الإثارة. لديه سببٌ جديد يدفعه إلى كراهية فيرنيلي: فلقد ثبت أنه غريم يبلغ من الوهن حدّاً أفسد عليه طعم النصر. يتثاءب في كدر، ويترقّب، ممسكاً بالمُسدّس الكولت المُطعّم بالصدف، لعلّ مظاهر الحياة تبدو على ذلك الوحش الضاري بعد أن ضيّق عليه الخناق.

بالأسفل ينفتح باب الفورد ويخرج فيرنيلي وسط سحابة من الغبار. بدَت عليه آثار الخدوش والرضوض، وتمزّقَت ثيابه. يمضي

t.me/qurssan

أعزل، رافعــاً ذراعَيْه. يصــرخ مُتــوسّلاً طـالباً الغـوث: «أعلـن استسلامي، ولكم سلامي!».

- «أمسك نواندو بارّاغان عن إطلاق النار. وعفا عن حياته للمرة الثالثة، لأنه لا يقتل المهزومين من الأعداء».

يمضي فيرنيلي من دون أن يُنزل ذراعَيْه، ويصعد وسط العشب، يكسب أرضية، يقترب حتى يكاد يصل، يستغلّ وجود شجيرة تغطّيه حتى يُبرِز قنبلة يدوية كان يخفيها في جيبه، ينتزع فتيلها بأسنانه ويهمّ بإلقائها على ذلك الذي يطارده، وفي اللحظة نفسها تنطلق من المُسدّس الكولت كابايّو رصاصةٌ من الفضة تحمل الحرفَيْن ن. ب.، وتصيبه في منتصف الجبهة تاركةً إياه جثة هامدة، من دون أن تمهله الوقت اللازم حتى يردّد مثلاً واحداً، أو يسمع الدويّ الهائل الذي ينسف طبلة أذنه، وعينَيْه المريضتين، ولسانه المُقتّر، ودون ذلك من أعضاء وأغشية جسده المُمزّقة أشلاؤه: إنه الدويّ المُتوهّج الذي أحدثَته القنبلة الحيّة التي كانت في يده ولم يتمكّن من إلقائها: «بوم!».

يقول ناندو: «نسفتَ ذاتك، مثلما فعلتَ بنارسيسو».

لا يشعر بالمفاجأة، بل ينظر باشمئزاز إلى تلك الكارثة، وأشلاء فيرنيلي التعيسة المُتفحّمة التي تصاعدَت منها الأبخرة.

ثم يستقلّ السلفرادو ويعود أدراجه إلى المدينة، وفي الطريق، كمن يمضغ علكة، يجترّ ذلك السأم الدفين، سأم الرجل الذي يعرف أن القتل أسهل مما ينبغي.

- «وصل الخبر إلى ناصية النار قبل أن يصل ناندو نفسه. "ناندو بارّاغان قتل أولمان فيرنيلي!"، راح الأطفال يهتفون في شوارع الحيّ. بدأ الناس يتغنّون ببطولته منذ تلك اللحظة، وما زالوا يتغنّون بها حتى الآن. ناندو، الأسطورة الحية، جعل من فيرنيلي أسطورة ميتة. في مساء ذلك اليوم وقفنا على الأرصفة لنرى المنتصر. أقبلَت الشاحنة السلفرادو تحمل آثار الرصاص والصدمات التي أحدثَتها المطاردة، زد على ذلك الوحل والغبار

t.me/qurssan

اللذين علقا بها في مسرح الجريمة. أما ناندو فلم نرَه: ذلك أن الزجاج الداكن العاكس قد واراه عن عيوننا».

يدخل ناندو إلى بيته بخطا ثقيلة تليق بمحارب قديم، ويمضي إلى المطبخ باحثاً عن أمه حتى يقدّم لها القتيلَ قرباناً. ها قد أخذ بثأر أخوَيْه ممن أجرم في حقّهما، ويتوقّع أن يُقابَل بحفاوة كالأبطال، بدموع سيبيرينا المُمتنّة، وجلبة النساء، وهتافات الإعجاب التي يطلقها الرجال، والموسيقا، وشراب الرَّمّ، والمفرقعات، والاحتفالات المُستمرّة على مدى أيام، كما هو دأب أسرته كلّما نجحوا في تصفية فرد من آل مونسالبيه. ولكن أحداً لا يخرج لاستقباله.

وعلى امتداد الرواق المرصوف بالبلاط، الذي يخيّم عليه الصمت، يقتصر موكبُ النصر على طيور القيق الحبيسة في أقفاصها، والببغاوات المُستقِرّة فوق مجاثمها، والخنزيرة التي وضعَت صغارها حديثاً، والقرد الذي يستمني، كلٌّ منها يأوي إلى وكره غير آبه، ويستعدّ لاستقبال الليل. أما ناندو بارّاغان، جليات الجبّار(********) المنتصر على الأقزام، فيدلف إلى المطبخ، ويتهاوى على الكرسي الذي يتحمّل كل هذه الكيلوغرامات بمعجزة. يخلع نظارته السوداء ويرفع إلى أمّه عينَيْه الحسيرتين، اللتين تغمرهما الوداعة فجأة. تقدّم له سيبيرينا فنجاناً من القهوة، تقدّمه من دون أن تنبس بحرف، تقف خلفه وتمسّد فروة رأسه بأناملها كي تهدّئ من روعه. يغمض ناندو أجفانه الثقيلة نصف إغماضة، ويتراخى جسده، مستسلماً، وإذا هو يغدو جسد طفل مفرط الضخامة. يسأل سيبيرينا بصوت مُطفأ من فرط الإعياء: «ألن يُقام حفلٌ من أجلي؟ ألن تقدّمي لي أكثر من القهوة؟».

- «وأيّ شيء تريد فوق ذلك؟ لم تقتل فرداً من آل مونسالبيه. وإنما قتلْتَ كلبهم، لا أكثر».

يغفو ناندو، مهزوماً في وجه الازدواجية التي شقي بها منذ الطفولة: قسوة كلمات أمه التي تلهب جروح فؤاده، والسحر

t.me/qurssan

المُهدّئ الكامن في ربتاتها التي تبرئه مُجدّداً.

***

خارج القبّة الزجاجية، في قيظ الليل الكثيف، تنطلق الزيزان في الغناء، وأشجار البرتقال تنشر مسكها العذب في الهواء، ونمر طريد يلوذ بالفرار في الجبل دافعاً ببغاوات الغواكامايا إلى الصراخ، وصيّاد في عزلته يضيء صفحة البحر السوداء بدائرة الضوء المنبعثة من مصباحه، بعيداً عن الشاطئ.

تحت القبّة، تنطلق الومضات المائجة وانبعاثات الكلور الفاترة من المياه الزرقاء الشفيفة في المسبح شبه الأوليمبي الذي تضيئه الكشّافات. وفي غمرة البخار الذي يملأ المكان تتردّد أصداء بعيدةٌ، فضائيةٌ، مصدرها ضحكة امرأة، وصوت أقدام تخوض الماء، وجسد يغطس في المسبح.

- «وما جدوى المسبح المُغطّى على الأرض الحارة؟».

- «هكذا كان يفضّله ماني، لأنه أعلى تكلفةً».

وعلى مقربة من الضفة، ترك الخادم الخفيّ منشفتين جافتين ودورقاً من كولا رومان بالثلج وكأسَيْن وصينية فاكهة طازجة: بطيخ، ومانجو، وبابايا، وفاكهة التنين، وبشملة، وأناناس. وفي الماء، على الجانب الضحل من المسبح، تجلس ألينا خيريكو على الدّرَج وترنو إلى أقصى الطرف المقابل، حيث يقفز ماني مونسالبيه رأساً من المِنَصّة الثالث.

تصفّق له وتضحك. رفعَت ألينا شعرها إلى أعلى بشريط لئلّا يبتلّ، في حين كشف البيكيني المُرقّط عن بطنها الكبير، وساقَيْها البديعتين على الرغم من الكيلوغرامات الزائدة. يُبرِز ماني رأسه فوق صفحة الماء ويقترب سابحاً. يضرب بذراعَيْه في همّة، ولكن من دون رشاقة: يُلاحَظ عليه أنه قد تعلّم السباحة في النهر، ولم يعرف المسبح إلّا في الكبر. في منتصف الطريق يتوقّف، ويبصق ماءً، ثم يفرك عينَيْه، ويراقب زوجته: يراها رائعة الجمال. ربما كان وجهها أكثر امتلاءً، وصدرها أكثر تكوّراً، ولكنّها ما زالت رائعة.

t.me/qurssan

الجمال كعهدها.

- «ظلّ بيتُ عذراء الريح مهجوراً، وزحف عليه الجبل، لكن فرقة من البنّائين والبستانيين والخادمات تركَت البيت على أكمل وجه نزولاً عند أوامر ماني، فعاد وكأن ألينا كانت تشمله بعنايتها حتى البارحة. أعادوا بناء ما تهدّم، وأصلحوا ما تعطّل، وطلوا الجدران، واجتثّوا الأعشاب، ونظّفوا المكان، بما فيه: قطع الأثاث، وملاعب التنس، والمسبح، ومذاود الخيل، والبساتين، والشاطئ، والدروب، والأسوجة. فبات كلّ شيء على ما يرام، كلّ شيء على أكمل وجه».

- «اتّصلَت به ألينا ليلة الثلاثاء لتطلب منه أن يمرّ بها ليأخذها يومَ السبت، فهي تودّ الحديث إليه. ثم اتفقا على تمضية أسبوع معاً. ما كاد يضع السماعة، في الرابعة صباحاً، حتى أيقظ تين پويوا وأمره بالذهاب فوراً إلى عذراء الريح مع كتيبة النظافة والصيانة. وفي نهار اليوم التالي اتّصل بمحافظ المقاطعة شخصيّاً ليطلب منه إصلاح الطريق المُؤدّية إلى هناك، إذ يخشى أن تؤثّر الحفر على حمل ألينا. فأرسل المحافظ اثنتي عشرة شاحنة مُحمّلة بالحصى لأداء المهمّة. فلا أحد يعصى لماني مونسالبيه أمراً».

- «حين علمَت الآنسة مِلبا فوكون بالهرج والمرج، ذهبَت إلى ماني وسألته عما إذا كانت ستشرف على أعمال الترميم في البيت. فحذّرها قائلاً إنه لا يريد أيّ تغيير، إذ يجب أن يبقى كلّ شيء مثلما رسمَت ألينا منذ شهور خلَت. وإن أراد أن يضيف شيئاً واحداً جديداً: حجرة من أجل المولود، مطليّة باللون الأزرق، ومُزوّدة بكلّ ما يلزم، وممتلئة بالألعاب حتى السقف».

- «هل كان ماني ومِلبا فوكون عشيقَين؟».

- «كلا. كانت تحلم بذلك، ولكن الأمر لم يخطر له على بال. كان وفاؤه لألينا صارماً، إلى حدّ الهوس، كالجندي المخلص للوطن. لم تتقرّب إليه فوكون وحدها، بل تقرّبَت إليه كثيرات غيرها، فقابلهنّ جميعاً بفتور».

t.me/qurssan

في عذراء الريح، تترامى جنّة أرضية بما حوَت من أطايب لم تمسسها يدٌ تحت قدمَيّ ألينا وكأنها حواء. تراقبها الأفاعي الخضر والقرود عن بعد، بينما تسير وهي تطوّق ماني بذراعها وسط الخيزران. يقطعان أنفاقاً رطبة من الأوركيد والسرخس، في صمت، وكأن الشهرَيْن اللذين مرّا عليهما وهما مفترقان جرحٌ أشدّ مما يمكن التطرّق إليه. في الفجر يمضيان صعوداً إلى غابة من السديم، حيث تتفجّر ستة جداول. تحت ظلال أشجار الجرومة، يتناولان الفطور المُؤلّف من ثمار فاكهة التشونتادورو والبوروخو التي يلتقطانها في الطريق. تقترب الأيائل وحيوانات التابير، الأليفة كالكلاب، لتأكل الطعام من بين أيديهما. يأخذان القيلولة على ضفة النهر الذي تكسو صفحته أوراق الزنابق المائية هائلة الأبعاد، ثم يفيقان فيسمعان زواحف السمندل وهي تغنّي كالطيور، ويريان النسور وهي تصطاد الحشرات في الهواء. يكرّسان المساء للخيول: فيمتطيها ماني، وتدرّبها ألينا ممسكة بالزمام، ثم يصفّفان شعرها بالفرشاة، ويكافئانها بقطع السكر الخام. وفي الليل، حين يهبط الضباب من الپارامو(********) بارداً، يدفّئان أيديهما قرب موقد على الشاطئ، مُضرَم بحطام السفن الغارقة العتيقة.

أمضيا ستة أيام وهما غائبان عن العالَم من دون أن يظهر كائنٌ بشريّ واحد لإزعاجهما. أيادٍ خفيّة تزوّد الخزانة بالمؤن، وتترك الطعام مُعَدّاً على المائدة، وترتّب الحجرات، وتسرج الخيول. ما عادت ألينا تفيق ليلاً مذعورة على صياح الرجال ولا نباح الكلاب، وما عاد دويّ المدافع الرشاشة يقاطع مباريات الداما الطويلة التي تلعبها مع زوجها على اللوحة الإلكترونية المضيئة.

- «لا يتحدّثان عن الماضي. ولكن ماذا عن المستقبل، ألا يتحدّثان عنه أيضاً؟».

- «قليلاً، وعلى استحياء. عَبْر الهاتف، ليلةَ الصلح، قالت ألينا لماني إنها سوف تمضي معه سبعة أيام على سبيل التجربة. والأسبوع الآن على وشك الانقضاء. يودّ لو اقترح عليها أن تمدّ المهلة، وألّا تعود إلى شقّتها. غير أنه لا يجرؤ، يخاف أن تجيبه

t.me/qurssan

بالرفض».

من مكانه في منتصف المسبح، ينظر ماني إلى ألينا فيراها جميلة، وسعيدة أيضاً. ما عاد يخاف، إذ يعرف أنها لن ترحل. يقول صارخاً: «سوف أسمّي المولود إنريكي».

وفي صوته المطفأ، صوت الرجل الذي لا غد له، يتذبذب ما يشبه الحماسة.

أما هي فتقترب منه ببطء، سابحةً على طريقة الكلاب، رافعةً رأسها فوق الماء. تمدّ ذراعَيْها وتتعلّق بعنقه. تسأله: «لماذا إنريكي؟ لا أحد في أسرتك يُدعَى بهذا الاسم».

- «لهذا السبب تحديداً».

وإذا بدويّ زجاج مُتهشّم يتردّد آتياً من خلفهما وكأن كارثة قد وقعَت. تنقطع أنفاسهما، ويلتفتان لرؤية ما يجري: كان أحدهم قد هشّم جزءاً من القبّة الزجاجية. ثم اقتحم سبعة رجال المكان عَبْر الثغرة. يميّز ماني الشعر الأشيب المُجعّد لشقيقه فريبي. يقول لألينا: «لا تقلقي، فهو فريبي مع حرّاسه، لا أكثر».

كانت قد انتبهَت إلى ذلك: إذ بلغَتها الرائحة التي لا يخطئها أنف، رائحة التبغ الرديء الأبدي التي تفوح من شقيق زوجها. تسأل بصوت خفيض، وهي ترتعد من الذعر والسخط: «ولماذا يقتحمون المكان بهذه الطريقة العنيفة؟».

- «وماذا دهى حرّاس ماني، لماذا لم يتدخّلوا ويعترضوا سبيل فريبي؟».

- «لأنه شقيق الزعيم: من الفريق نفسه. اقترحوا عليه الامتناع عن المرور، ولكنهم ما كانوا ليجرؤون على اعتراض سبيله عنوة، دع عنك أن يفعلوا في هذه المناسبة، بعد أن أمرهم ماني بالتزام أقصى قدر من التكتّم لئلّا ينغّصوا على ألينا خيريكو سلام نفسها. أصدر إليهم أمره قائلاً: "أريد منكم أن تتحرّكوا كالأشباح. فلا يبدو منكم شيء، ولا يُسمَع لكم صوت". تدخّلوا في لحظة تهشّم

t.me/qurssan

الزجاج، واستلّوا أسلحتهم فوراً، ولكن ماني قال إن شيئاً لم يقع، وأمرهم بالانسحاب».

- «إذاً فقتلة فريپي ورجال ماني كانوا على وشك الاشتباك في معركة ميدانية يومذاك؟».

- «صحيح. لو لم يتدخّل ماني في الوقت المناسب، فالأرجح أن أحداً ما كان ليخرج على قيد الحياة».

- «كانت تلك هي حياتهم: فقد يقع أيّ شيء في أيّ لحظة، وقد ينتهي أيّ شيء بتبادل إطلاق النيران».

كانت وجوه قتلة فريپي مُلطّخة بالأخضر الذي تخلّلته الخطوط السود، وقد ارتدوا سراويل مُموّهة وأقمصة زاهية تليق بسياح فلوريدا. بعضهم عصب جبينه بمنديل، وبعضهم اعتمر قبعة البيسبول. يتقدّمون في شؤم وسط الأبخرة، ويلتمع في عيونهم الجنون، كالمُهرّجين المطرودين من السيرك، أو كالمرتزقة الخارجين من المستنقع.

يصرخ فريپي في ماني من موقعه على الضفة: «بالأمس قتلوا فيرنيلي، ولم نتمكّن من تحذيرك، لأنك أمرتَ بألّا يقطع أحد شهر العسل. قتلوا اثنين من أشقائنا منذ اثني عشر يوماً، فلم تحضر الجنازة. أما عدتَ تريد لنا ذكراً؟».

يوجّه ماني أمره إلى ألينا: «ابقي هنا».

ثم يخرج من الماء في غير استعجال، ولا يبدو منشغلاً، بل منزعجاً كإمبراطور قاطعه العبيد وهو في المغطس. وحدها ألينا تلحظ التغيّر الذي طرأ عليه: إذ لمحَت ندبته تبرز مُروّعةً، كما لو كانت صاعقة شاحبة. يخاطب فريپي سائلاً: «لماذا جئتَ؟ ولماذا اقتحمتم المكان كاللصوص؟».

وفي تلك الأثناء يرتدي الروب فوق ثوب السباحة، في غير استعجال، ويمهل نفسه الوقت اللازم حتى يُظهِر عضلاته الخليقة برياضي، متباهياً بجسده الشاب، الذي يُعَدّ في حدّ ذاته انتصاراً

t.me/qurssan

معنوياً صغيراً على شقيقه الأكبر الذي تقدّم به العمر وبدا بمظهر يفتقر إلى الرشاقة.

- «جئتُ أحيطك علماً بما جرى، غير أنهم لم يسمحوا لنا بالمرور. لقد بلغتَ من الرقيّ حدّاً يجعلك تأبى سماع أيّ شيء عن المذابح، ولكن هكذا هي الحياة يا أخي، كومة من الخراء اللعين».

يسأل ماني، وكأنه لا يعلم: «من قتل فيرنيلي؟».

- «ناندو بارّاغان، ولعلّه الآن يحتفل مزهواً كالطاووس، ويشرب حتى الثمالة».

وبينما يتحدّث الأخوان، يفرض أصحاب الوجوه المطلية السبعة هيمنتهم على المكان. صاخبين، مُتصلّفين، مُهرّجين، يثيرون فوضى عارمة راحت ألينا تتأمّلها في رعب وهي تضرب بذراعَيْها لتظلّ طافيةً على وجه الماء لأن قدمَيْها لا تبلغان الأرض. أوّلهم يلتهم الفاكهة من الصينية ويبصق البقايا في الماء، بين تجشّؤ وضحكات مقتضبة. بينما الثاني يحتسي الشراب ويتفوّه بألفاظ نابية ويتحسّس خصيتَيْه بيده. أما الثالث فيشغّل أغنية «الكأس المكسورة» للمغني ألسي أكوستا بأعلى صوت على مُشغّل الأسطوانات في البار. أما الرابع فيشقّ قماش المظلّة بالخنجر على سبيل التسلية. بينما يعتلي الباقون منَطّ المسبح، فيتواثبون ويحدثون جلبة عارمة، ويقفزون في المسبح بالثياب والأحذية.

تحسّ بأحد الأوغاد يقترب منها، فتسبح ألينا حتى تصل إلى الحافة، منفعلةً، وكأنها تلوذ بالفرار من الطاعون، وتصيح في زوجها: «ماني، ساعدني كي أخرج! ماني، ناولني منشفة من فضلك!»، غير أنه لا يسمعها. تصيح فيه وقد اشتدّت عليها الهستيريا، محاولةً رفع صوتها أعلى من المُغنّي ألسي أكوستا، الذي يأتي صوته من مُشغّل الأسطوانات وهو يشرب نخب امرأة خائنة في كأس مكسورة. يشير فريبي إلى ألينا بإصبعه ويقول لماني: «ناولها منشفة، فالملكة لا تريد أن يراها أحد ببطنها الضخم».

يُخرِجها ماني من الماء، ويغطّيها بالمنشفة ويطلب منها انتظاره في البيت. ولكن فريبي يقول: «كلا، دعها تبقَ معنا، الأفضل أن تبقى معنا، ليكون الحديث شيّقاً...».

فيجيبه ماني مستعرضاً هدوءه: «لن يدور بيننا أيّ حديث ما لم تأمر رجالك بالانسحاب!».

- «ولكن لماذا، ما داموا مسرورين؟ هل يزعجون الملكة؟».

يراهن ماني على البقية الباقية من سلطته: «فليخرجوا، فريبي، وليخرسوا قبل كل شيء، فالضجيج يكاد يفجّر رأسي».

ينظر إليه فريبي مُتحدّياً، وتبدو على وجهه خطوط سود، وكأنه حمار مُخطّط عجوز يشبّ على قائمتَيه الخلفيتين. غير أنه لا يجرؤ على عصيان الأمر. ذلك أن مظهر أخيه الذي يشي بالتفوّق يرهبه ويكبح جماحه، رغماً عنه. فيدسّ اثنين من أصابعه في فمه مُصفّراً، ويأمر أتباعه الرعاع بالانتظار في الخارج.

يشير ماني إلى مقعد ويقول بوقار السادة: «يمكنك الجلوس».

ثم يوجّه حديثه إلى أليِنا بلهجة لا تقبل الرفض: «انتظريني في البيت، خذي دشّاً دافئاً وارتدي ثيابك في هذه الأثناء».

- «كلّا».

تقولها وهي تنتفض من فرط الانفعال، والاشمئزاز، والبرد. ثم تقف بجوار زوجها وتردف: «أفضّل البقاء هنا».

يتشبّع الجو بالدخان الزنخ الآتي من لفافة التبغ. وعلى صفحة المياه المضاءة تطفو قشور البطيخ وبذوره، مثيرة للنفور. يستعرض ماني سيطرته على الموقف، ويذهب إلى البار حتى يطفئ الأغنية التي تدور حول امرأة جاحدة رحلَت، وفي تلك الأثناء يدرك أنهم قد تعمّدوا اختيار تلك الأغنية لإثارة غيظه. غير أنه لا يستسلم للاستفزاز: بل يقدّم كأساً من الشراب لفريبي. يتكلّم الحمارُ الوحشي العجوز نافثاً سحائب من الدخان: «لم آتِ سوى لأطلب منك ألّا تشغل بالك. فلا مانع عندي من متابعة

t.me/qurssan

شؤوني بينما تظهر أنت في الصور برفقة الفنانين والوزراء. لقد ضحّى فيرنيلي بحياته، وما زال رجالي يضحّون بحياتهم، كي تقف أنت أمام الكاميرات كالسيد المرموق. لا مشكلة في ذلك، فهو جزء من الاتفاق. وأنا لا أضمر لك الضغينة لأنك تمنعني من الدخول إلى بيتك. بل إني سوف أصفح عنك إذا لم تحضر جنازتي يومَ يقتلونني. لا يهمّ، ولينشغل كلّ امرئ بأموره. أما في ما يتعلّق بنسبة الثلاثين في المئة التي تعطيني إياها، فهي لا تنفعني بشيء».

يضغط ماني على زوجته، بلهجة مُستبِدّة: «ألينا، اذهبي للاغتسال».

فتغمغم بصوت خائر: «ذلك التبغ...».

وفي تلك الأثناء يتسلّل الدخان الكريه إلى جسدها على هيئة إجهاد مطلق يبثّ الوهن في ساقَيْها، ويلبّد عينَيْها، ويطرد كريات الدم الحمراء من وجهها، ويطمس لون بشرتها. تحاول أن تقول: «سأعود سريعاً».

وتسير مبتعدة بآخر غرام تملكه من القوة، محتفظةً بتوازنها كلاعب الأكروبات، وهي تسعى جاهدة لئلّا يبدو عليها الوهن. تتمكّن من تجاوز الأبواب الزجاجية الجرّارة التي تفصل بين المسبح والصالة الرئيسية، ثم تنهار على أريكة مرتفعة للحظة قبل أن ترى العالَم بالأسود، وتطفئ حواسها، وتهجر ذاتها أخيراً على فراش اللاوعي المزغب.

- «كم من الوقت لبثَت ألينا خيريكو فاقدة الوعي؟».

- «ليس هناك من يعرف لأن أحداً لم ينتبه إليها، ولا حتى ماني، الذي لم يرَها في الصالة لأن مسند الأريكة كان يحجبها عنه، وظنّها قد ذهبَت للاغتسال. لا بدّ أنها لم تفقد الوعي لما يزيد على بضع دقائق. وحين عادَت إلى وعيها، بلغها الصوت المنفعل للأخوَيْن، طافياً من المسبح، إذ راحا يتجادلان، على شفا حفرة من الاشتباك، وإن تجنّبا الوقوع فيه صراحةً. سمعَت أموراً فهمَت

t.me/qurssan

منـها أنـهما يخطّطـان لاغتيـال نانـدو بـارّاغان. ومـن دون عمد أحـاطت بتفاصـيل أكثر مما ينبغي. سمعَت كلمة كوكايين عدّة مـرات، وهكـذا عـرفَت أن آل مونسـالبيه مُتـورّطون فـي تجـارة جديدة. ما كادت تقوى على الوقوف حتى وقفَت على قدمَيْها، ودخلَت إلى المطبخ، وتناولَت كوكاكولا ردّت روحها إلى جسدها، ثـم ذهـبَت إلـى حجرتـها كـي ترتـدي الثيـاب. وحـين عـادَت إلـى المسبح كانت قد أصلحَت هندامها واستردّت لونها الطبيعي».

يراها فريبي تعاود الظهور فيقول: «لا بدّ أن تكوني مسرورة يا ملكتي، فزوجك سوف يصبح أثرى مما هو عليه بعشر مرّات. بمئة مرّة. بل إنه سيكون رئيس الجمهورية، وأنتِ السيدة الأولى... على كلّ حال، من دون أن أطيل عليكِ، أنا ذاهب. وداعاً يا ملكتي، سـعدتُ كثيراً بلقائك. اعتني بنفسك، اتفقنا؟ واعتني بالمولود. فالحال سوف يتعقّد بشدة، لا تقولي إني لم أحذّركِ. خصومتنا مع آل بـارّاغان كـانت لعبـة أطفـال: لأنـها فـي النـهاية خصـومة بـين أشقاء. مسائل عائلية. الآن حان وقت الحرب الجادّة، والأعداء الحقيقيين. فكلّما زادَت النقود اشتدّ الرصاص، أتدرين؟ حسناً، وداعـاً... اتّفقنـا علـى نسـبة خمسـين فـي المئـة، ألـيس كـذلك يـا ماني؟».

***

- «هـل تمكّن موتشـو جوميس من تسلّم الأراضي والنقود التـي وعده بها ناندو مقابل الوشاية بفيرنيلي؟».

- «بل إنه تسلّم أجره مضاعفاً. إذ دفع له ناندو وهو لا يدري أنه تلقّى مكافأة من ماني هو الآخر».

- «ماني مونسالبيه؟ ولماذا؟».

- «الأمر واضح: لأن ماني هو الذي أخبر موتشو بأمر المرأب، ودفع لـه كـي يبلـغ نانـدو بـارّاغان، وكأنه هـو مصدر المعلومة. لجأ إلـى الاحتيـال، فتمـكّن مـن إزاحـة فـيرنيلي عـن طريقـه مـن دون أن يضغط على الزناد، وتجنّب اندلاع الحرب بينه وبين أخيه فريبي،

t.me/qurssan

الذي فرض عليه ذلك الشخص. اضطُرّ ماني إلى احتمال عباراته المقفّاة المائعة، ووقْعَ خفّه الذي يليق بامرأة طاعنة في السنّ، وعينَيْه الدامعتين دوماً. وإن لم يطُل احتماله. وحدهم أولئك الذين لا يعرفون ماني ظنّوا أنه قد يسمح بتسجيل ذلك الهدف في مرماه. وظلّت «الوداع يا سيّدي!» التي ألقاها عليه فيرنيلي ذات يوم تتردّد في مسمعَيْه، باستهزاءٍ وتحدٍّ، فلم يذُق طعم الراحة حتى عثر على الصيغة النظيفة، التي لن تجرّ عليه عواقب وخيمة، للتخلّص من ذلك الداهية».

- «هل صحيح أن ماني، في ليلة المسبح، أعطى فريبي الضوء الأخضر لاغتيال ناندو بارّاغان؟ ألم يكُن ماني نادماً على ماضيه الإجرامي؟».

- «كان يودّ ذلك، ولكن الماضي لا يسهل خداعه. مهما أبعدتَه عنك ركلاً بالقدم يعود ليتتبّع خطاك، مثل الكلب الوفي».

- «وماذا عن سعيه الدؤوب لاسترجاع أليانا؟ ألم يرِد أن ينصلح حاله بأيّ ثمن لتبقى بجواره؟».

- «قلتُ لك إن الطيور تحنّ إلى أوكارها. وقد جرى لماني ما يجري لكثيرين غيره: كان يودّ لو انصلح حاله، ولكنه لم يستطِع. إذ كان شريراً، حاذقاً، ماكراً، أكثر من فريبي كثيراً. هكذا كان ماني مونسالبيه. الذي لم يصبح زعيماً من فراغ».

***

تفرم سيبيرينا البصل على مائدة المطبخ. أعوام من الخبرة علّمَت يدها اليمنى المناورة بالسكين بسرعة تجعل الصفير يدوّي في الآذان، بسرعة لا تدركها العيون، وعلّمَت أصابع يدها اليسرى أن تنسحب بمسافة ميليمتر واحد في اللحظة المناسبة، ما تقضي به الضرورة حتى يلامس حدّ السكين أظفارها لدى مروره ثم يهوي على حبّات البصل، ويقطعها بلا رحمة.

ينظر إليها ناندو وهي تعمل، جالساً أمامها، تاركاً الغاز الحارق المنبعث من البصل ينتزع الدموع من عينَيْه الجاحظتين وكأنهما

t.me/qurssan

عينا بقرة وديعة. ثم يقول، وعقدان من الذكريات المريرة يلتمعان أمام أنفه: «اليوم رأيتُ سوليداد براتشو. التقيتُ بها مصادفةً، في كنيسة المسيح الملك».

- «ماذا كنتَ تفعل في كنيسة المسيح الملك؟».

- «ذهبتُ أصلّي من أجل أدريانو، لأني قتلتُه في مثل هذا اليوم منذ واحد وعشرين عاماً. أما هي فكانت تضرم الشموع من أجل ماركو براتشو، الذي مضى على موته اثنان وعشرون عاماً».

- «إذاً فلم يكُن لقاؤك بها مصادفةً. لا شيء يجري مصادفةً، أبداً».

وقع الأمر قرب الثانية عشرة ظهراً، بينما كانت المدينة تتحمّل الشمس في وقار، وقد بلغَت درجة الحرارة أربعين درجة مئوية، وفي داخل الكنيسة الخالية، تحت قناطر عالية من الأحجار العتيقة، كان الليل مُخيّماً لم يزَل، ودرجة الحرارة تحت الصفر. في حين غشيَت المؤمنين سحائبُ لبنيّة من البخور، باردةً، خارقةً للطبيعة، كأبخرة المُبرّدات.

جاثياً على ركبتَيه، فاتحاً ذراعَيه على شكل صليب، مُتّضعاً أمام القدير، كان ناندو بارّاغان المخيف يحاول أن يستحضر شذرات من الصلاة الربانية حين اقتربَت منه عجوزٌ مُتّشحة بالسواد، ممسكةً بسوسنة، وقطعَت صلاته.

كانت عجوزاً، هرمة، مطفأة الشعر، مهترئة البشرة. لعلّها تريد صدقةً، هكذا دار في خلد ناندو، فأبرز من جيبه بضع عملات معدنية ليبعدها عنه. أما كاتشومبو وسيمون بالاس، اللذان كانا يراقبانه من مكانهما في الخلف، فاقتربا في حذر خشية أن تكون سيدة السوسنة قاتلاً مُتخفّياً. نحّت المرأة النقود جانباً، مُعتزّة بكرامتها، وقال: «هذه أنا، سوليداد براتشو، أرملة ماركو».

خلع ناندو الرايبان عن عينَيه وفرك عينَيه، غير مُصدّق في البدء، ثم واجماً إزاء وضوح الأمر: تعرّفها خلف قناع التجاعيد والمرارة.

- «ماذا كان من أمركِ، سوليداد؟».

t.me/qurssan

- «كما ترى. بعد أن قتلتَ أدريانو، أضرم آل مونسالبيه النيران في بيتي. لملمتُ حوائجي التي نجَت من الحريق ورحتُ أتعثّر في تلك الأنحاء، أقاوم الحياة، ولكن الفقر الذي عشتُه كان طاحناً. تحسّنَت الأمور بمضيِ الأعوام. الآن أدركَتني الشيخوخة، المُبكّرة وإن كانت هادئة».

وعلى ضوء المطبخ الخافت يميّز ناندو شرار الغضب الذي يتّقد في عينَيِ سيبيرينا. تفلت سكين البصل وتواجه ابنها الأكبر: «هادئة؟ سوليداد براتشو؟ ألم تذكّرها بالموتى الذين تساقطوا بسببها؟».

- «لم يكُن ذلك بسببها، لا هي ولا غيرها. لقد وقعَت في ذكرى وفاة ماركو براتشو أمور ما كان يجب أن تقع، ونغّصت عيشنا جميعاً، جيلاً بعد جيل».

- «وماذا لو أن شيئاً آخر قد وقع؟».

- «صمتاً يا أمي. وتذكّري العمّ إيتو مونسالبيه، الذي فكّر مثلما تفكّرين وانتهَت به الحال بأن غرز مفكّاً في رأسه. مثل هذا الشكَ يفضي بالناس إلى الجنون».

***

- «ما كان أحد ليكشف سرّ العريف غييرمو ويلي كينيونيس لو لم يغفُ مساء ذلك اليوم في بيت آل بارّاغان».

- «ماذا جرى؟».

- «ذات ظهيرة، في منتصف الأسبوع، والعالَم رطب، دبق، تناول غييرمو ويلي كينيونيس على الغداء صحنَيْن من حساء دسم ساخن، تبدو عليه حلقات الزبد الأصفر، فتركه الطعام مُمدّداً على أحد الكراسي المتأرجحة في الرواق. بعد قليل أفاق مختنقاً ولم يتمكّن من تذكّر أحلامه، شاعراً بأن أحدهم مسح لوح ذاكرته بالممحاة، لوح ذاكرته الذي كُتِبَت عليه الأحلام بالطبشور، ولم يتبقّ له سوى لطخة مبهمة تشبه السحابة. كان لديه سببٌ وجيه

t.me/qurssan

يـدفعه إلـى ذلك الشعور. ذلك أن الخرساء قد اغتنمَت الفرصة لتجلس إلى جواره وتتأمّل أحلامه، الصامتة، بالأبيض والأسود، كالسينما قديماً. أفزعها ما رأت بشدّة، حتى إن غريزتها دفعَتها أول ما دفعَتها إلى إصدار أمر بقتله، في المكان نفسه، وهو نائم على تلك الحال، وليذهب من السبات إلى الجحيم رأساً، من دون أن يُعطَى فرصةً للندم أو طلب المغفرة».

- «ماذا رأت؟».

- «خيانة».

- «وهل حكمَت عليه بالموت؟».

- «كلّا. بل خطرَت لها فكرة أفضل».

***

- «يـومَ جنـازة أركانخِل بارّاغان وقعَت أمـور عجيبـة، متناقضـة. بعضها في جوف الأرض، وبعضها فوق سطح الأرض».

- «لـم يـدرِ أحـد بمـا جـرى فـي سـراديب بـيت آل بـارّاغان خـلال الجنازة، في اللحظة نفسها عندما كان التراب يُهال بالمجرفة على نعش الصغير. كان كلّ شيء معروفاً في ناصية النار، ولكن ذلك السرّ ظلّ مجهولاً على مدى أعوام، وما زال كثيرون مرتابين في ما جرى».

قـرع الأجـراس الجنائزيـة يكفّن المدينة. بينما سيبيرينا تتقدّم النعش المُغلّف بالغطاء الأسود، وحدادها الأبدي المُضرّج بالدماء للمرة العاشرة يزلزل أركان الأبنية.

تفسـح النـادبات الطـريق مـن أجلها وسـط جمـوع المحزونـين والفضوليين بصرخات هادرة تشقّ الهواء المحترق في المقابر: «رفقاً بألمها! قتلوا أصغر أولادها!».

تمضـي قـدماً بخطـا وئيـدة، سيدة الآلام، التي ثكلَت عشرة من أبنائها، قرب جثمان بنيامينها(********). يرتسم على وجهها تعبير

t.me/qurssan

كـئيب وشـفتاها المنـذرتان تتمتمـان بلعنـة قاسـية: «سُفِك دم صغيري. ولسوف يُؤخَذ بدمه».

ألسنة الجموع المُتأثّرة تتناقل الكلام، وهمهمة ناقمة تعمّ الحضور: «قتله أعزّ أصدقائه غدراً». يدور اسم القاتل على الألسنة: «العريف غييرمو ويلي كينيونيس، عسى أن يأخذه الشيطان إلى غياهب الظلمة».

- «بمَ قتله؟».

- «بسلاح الفقيد نفسه، مُسدّس والتر P38 ملعون، حلّت به اللعنة منذ عهد الأسلاف، إذ سبق لمجرم حرب أن استخدمه في ارتكاب مذبحة في حقّ اليهود».

ما عاد الحديث يدور عن غير ذلك لا في المدينة، ولا في البلد. فها هـي ذي الصحف اليومية تغطّي الواقعة الدامية على الصفحة الأولـى، وتزخـر صـفحات المجـلّات بالافتراضـات واللقـاءات والتقارير. بينما تسأل جريدة صفراء: «أين القاتل؟ ماذا كان من أمر العريف كينيونيس؟».

لا أحد يعرف له مُستقرّاً. ولّى هارباً بعد الجريمة ولا أحد يعرف أين هو. وكما جرَت العادة، فالجهات القضائية والسلطات ليس لديها أدلّة ولا شهود ولا إثباتات، ولا حتى اهتمام بالقضية. ولكن النـاس يعـرفون. النـاس يعرفون دوماً. لم يفلح كينيونيس في الـهرب، بـل تمـكّن آل بـارّاغان مـن تصفيته، انتقاماً منه على ما اقترف.

- «وماذا كان من أمر الجثمان الذي لم يظهر؟».

- «أُلقِي به للكلاب، فالتهمَته. لا تفتّشوا عنه، لأنكم لن تعثروا على شيء. لم يبقَ منه أدنى أثر ولا ذكرى. قد لا يكون ما تبقّى منه إلّا عظمٌ خالٍ من اللحم، في خلفية الباحة الأخيرة».

- «لم تُرَ الخرساء في أثناء الجنازة...».

- «لم تُرَ لأنها لم تحضر. ولكن ما لم يعلمه أحد، ولا يعلمه حتى

t.me/qurssan

الآن سوى قلة قليلة، أن أركانخِل بارّاغان، الفقيد، لم يحضر هو الآخر».

- «غير ممكن. لقد رأينا نعشه جميعاً».

- «لم يكُن أركانخِل في النعش. ولا حتى كان ميتاً. دفنَت سيبيرينا النعش خاوياً، عن عمد».

- «أكان الأمر برمّته تمثيلية؟».

- «أجل».

- «إذاً، فأين كان أركانخِل؟».

- «مختبئاً في ركن من أركان السراديب، مع الخرساء، ومع صديقه العريف غيبيرمو ويلي، الذي كان على قيد الحياة هو الآخر».

مساء ذلك اليوم، حين غفا غيبيرمو ويلي في بيت آل بارّاغان، أمسكَت به الخرساء، التي كانت تراقب أحلامه الغادرة، وأنشبَت أظفارها في ذراعه حتى جعلَته ينزف. جرجرَته إلى القسم الخلفي في البيت، وأقفلَت باب مخزن المؤن خلفهما، وليس في المكان أحد سواهما، ثم انهالَت على وجهه صفعاً، مرة تلو أخرى. أما هو فلا حرّك ساكناً ولا دافع عن نفسه، بل إنه أجهش بالبكاء مثل الأطفال وحكى لها كلّ شيء.

- «ماذا حكى لها؟».

اعترف بأن آل مونسالبيه أعطوه نقوداً حتى يتقرّب من أركانخِل ويفوز بثقته وصداقته، ثم يغتاله. كما اعترف بأن الفرصة قد سنحَت له مرّات كثيرة: «ولكنّي لم أرغب في ذلك، لأن أركانخل صار أخي بحقّ!».

شعر آل مونسالبيه بالقلق لأن الوقت مضى ولم يُنفّذ الأمر، فمارسوا عليه الضغوط مُتوعّدينه بالشرّ. أمهلوه أسبوعاً. فانقضى الأسبوع. قال العريف غيبيرمو ويلي: «والآن صار فريپي مونسالبيه يرتاب في أمري. وأصبحَت أيامي معدودة».

t.me/qurssan

فرنَت الخرساء إلى خواطره حتى الأعماق، وتفحّصَت مشاعره، وعرفَت معرفة اليقين القاطع أن تلك هي الحقيقة.

عند ذاك تفتّق ذهنها عن المُخطّط كاملاً وشرعَت في تنفيذه. جاءت بأركانخِل، وبلغة الإشارة حملَت العريف على تكرار الاعتراف أمامه. واتّخذَت من سيبيرينا ومونا وآنا سانتانا شريكات لها، دون غيرهن، فأقسمن يميناً مُقدّسة على التزام الصمت الأبدي. وبالتواصل معهن كتابةً، اختلقَت الخرساء تلك الجرائم المزعومة، وأخفَت الشابَّيْن في السراديب، وأذاعت خبر موتهما الزائف، وأقامت الجنازة الصورية.

- «هل اعترفن بالحقيقة لناندو؟».

- «أخبرنه أن موت أركانخِل كذبة حتى يجنّبنه الألم، وإلّا انفطر قلبه. ولكّنهن لم يبُحن إليه بشيء عن الهروب، ولم يخبرنه بمخبأ الشابَّيْن، مخافة أن يجهز ناندو على العريف في ثورة من الحنق، لأنه لا يعرف الرفق بالخونة، ولا حتى التائبين منهم».

نقّبَت الخرساء عن مُدّخراتها من الدولارات التي احتفظَت بها خلسةً في أعوام الرخاء، وسلّمَتها لأركانخِل. كان المبلغ كافياً للسفر بعيداً والنجاة بلا عناء في أيّ مكان في العالَم. رتّبَت حقائب الثياب وجهّزَت السيارة الجيب من أجل الهرب، وزوّدَتها ببضعة أسلحة وبنزين ودلاء مياه وسلّة الطعام.

بينما يتوجّه الباقون إلى المقابر تاركين البيت خاوياً، والمُربّع السكني بأسره، وبينما يستأثر خبر الجريمة وصدمة الجنازة بانتباه عموم الناس، تقود الخرساء ابن أختها وصديقه عَبْر ممرّات معتمة وسرّية في السراديب، تمتدّ في جوف الأرض، حتى تفضي بهم إلى الخارج. يتتبّعون مسار مياه الصرف، ويعجّلون بالهرب عَبْر أحشاء المدينة.

يُطمَرون وهم على قيد الحياة في عالَم سفلي من الفوّهات والمصارف، ويمضون كالزومبي في أثر ضوء الكشّاف. فتغشاهم أبخرة جيولوجية وحرارة آتية من مركز الأرض، وتلامس

t.me/qurssan

وجوههم الوطاويط الخفيّة المُحلّقة. فوق رؤوسهم يُسمَع نهر من دبيب الأقدام والصلوات، يتدفّق موازياً لهم فوق سطح الأرض، وتتردّد أصداؤه كئيبة. يميّز أركانخِل العويل الآتي من جنازته مُتحيّراً.

على أطراف أصابعه، يمضي الصغير في أثر خالته. ينصاع لها صامتاً، وادعاً، وإن كان يعرف أن ذلك النفق الذي يقطعه -ألا وهو نفق الزمن- يحمله بعيداً عن الماضي الذي يشدّ وثاقه إلى خالته، ويدفعه خطوة تلو أخرى. تتسارع ضربات قلبه في غير تناغم، بسرعتين متعارضتين: ينقبض قلبه فيتعذّب لفراقها، وينبسط فينشرح مفعماً بالمشاعر في وجه العالَم بأسره، العالَم المُروّع المدهش في آن، الذي ينتظره.

- «بلغوا نهاية المتاهة المُمتدّة تحت الأرض في اللحظة نفسها عندما كان التراب يُهال بالمجرفة على قبر أركانخِل...».

وأمامهم ظهر دَرَج صاعد مُؤلّف من ثلاث عشرة سلّمة يؤدّي إلى باب. يتسلّل من تحت الباب خيطٌ أبيض من ضوء النهار الذي يضيء وجوههم. وبحركات سريعة، بلا توانٍ ولا تأخير، تتحقّق الخرساء من وجود صليب كاراباكا المُدلّى من عنق أركانخِل، وتسلّمه مفاتيح السيارة الجيب التي صُفّت في الخارج، وتفتح الأقفال الصدئة، وتزيح المزاليج والسلاسل، وتدفع الباب الذي يصرّ أولاً، ثم يذعن لها وينفتح على مصراعَيْه. يتساقط عليهم مستطيل من الضوء الذي يغمر أجسادهم كاملة. يفركون عيونهم، المنبهرة، ويضيّعون بضع ثوانٍ ريثما يستردّون أبصارهم.

يعانق أركانخِل الخرساء. لا يقول لها شيئاً، ولكنها تحسّ على صدرها بخفقات الطبول المجنونة المُدوّية داخل صدره. عند ذاك، ومن دون أن تبذل أيّ جهد، تقول الكلمات التي لن تتفوّه بغيرها مدى الحياة، صافيةً، رنّانة: «ارحلا بعيداً، وانسيا».

يهرع الفتَيان إلى السيارة الجيب عَبْر الطريق الترابية، أما الخرساء فتتخلّف عنهما، مُتّكئة على حافة الباب. تنصت إلى آخر أصداء المَوكب الجنائزي الآخذ في التفرّق، وتضع يدَيْها في

t.me/qurssan

جيبَي تنّورتها السوداء، وترنو بعينَيْن لا أثر فيهما للدموع إلى ابن أختها المُذهّب، المعشوق، الذي يمضي مبتعداً إلى الأبد، أركانخِل المجيد الذي قام لتوّه من الموت الزائف.

***

مرة أخرى يصطبغ عالَم ناندو بارّاغان بالهلاوس والأخضر. أخضر بلـون النعنـع، أخضـر بلـون العـيون، أخضـر بلـون بـالطو الجرّاح. موجات أليمة من اليقظة تليها موجات غير أليمة من السبات. موجات متعاقبة، تشقّ بحيرة رأسه المضطربة. يبتعد المُخدّر بلا هوادة، ويتركه وحيداً، يتركه لذلك الألم الحارق الذي يعتمل في صدره.

- «لماذا عاد إلى المستشفى، هل أصابوه مرة أخرى؟».

- «كـلا. أو بـالأحرى كـلا ونعـم. انتـهى نانـدو في المستشفى إثر سلسلة من الأحداث غير المُتوقّعة التي انطلقَت في التاسعة من صباح يوم كغيره من الأيام».

في تمام التاسعة صباحاً، تدخّل الجيش الوطني في شؤون ناندو بارّاغان وفتّش بيته لأول مرة في التاريخ. وصلَت ثماني سيارات جـيب، وثـلاث دراجـات بخاريـة، ودبابـة مُصفّحة. جـاء ثلاثـة وستون جندياً بقيادة كولونيل يُدعَى پينيّا، وفتّشوا البيت حتى آخـر ركـن مـن أركانـه بحثـاً عـن سلاح، ومُتفجّرات، ومُخدّرات، وبصـــمات رقميـــة، وكتـــب مثـيرة للشـبهات، وعمـلات أجنبيـــة، ومنشورات تحريضية، وخرائط كوبيّة، وأيّ شيء من شأنه أن يضع ناندو بارّاغان تحت الشبهات، أيّاً كان.

- «ظنّوا أنهم قد فتّشوا البيت حتى الركن الأخير، فلم يصدق ظنّهم. إذ كانت الأسلحة مخفيّة في مخبأ داخل السراديب التي لم يتمكّنوا من اكتشافها. ولكنهم لم يلقوا للأمر بالاً. وألقوا القبض على ناندو بأيّ حال».

- «كيف وهم لم يعثروا على شيء؟».

t.me/qurssan

- «زعموا أنهم قد عثروا على خمس رصاصات أسفل الفراش، فوضعوا الأصفاد في يدَيْه وأخذوه. لم يقدر على عمل أيّ شيء لا پاخاريتو بوم بوم ولا تيخيراس ولا الآخرون، إذ لم يجدوا مُتّسعاً من الوقت ليفتحوا أفواههم. لم يسبق لهم قطّ أن وقفوا في وجه دبّابة مُدجّجة بالمدافع، أو نصف كتيبة. حتى ناندو نفسه، بلغ شعوره بالمفاجأة حدّاً جعله لا يُبدي أدنى اعتراض. كان يتوجّس من خيانة الجميع إلّا السلطات، التي لم يسبق لها الوقوف ضده قطّ».

- «إذاً فلقد حُبِس بسبب خمس رصاصات؟».

- «صحيح. أودِع في الزنزانة وهو لا يزال في حالة من التشوّش التام، تلك الحالة التي تسبق ثورة الغضب المميت، كالنمر الذي وقع أسيراً لتوّه في قلب الغابة وخُدّر قبل إطلاقه في حديقة الحيوان. وفيما هو على تلك الحال تلقّى زيارة من المحامي ميندیس، الذي جاء ممتقعاً، مضطرباً، رثّ الهيئة، يفتقر إلى الهندام، على غير عادته. ظهر عليه الاضطراب والقلق العارم، إلى حدٍّ لفت انتباه ناندو على الفور إلى ما به».

سأله: «ماذا يجري؟».

- «لقد اشترى آل مونسالبيه پينيّا، الكولونيل الذي ألقى القبض عليك. وطلبوا حبسك هنا حتى يتمكّنوا من قتلك».

- «هل وطّنوا النية على تصفية ناندو في ذلك المكان تحديداً، في الزنزانة؟».

- «كان ذلك هو المُخطّط. ولكن ميندیس سارع بالتحرّك وجاء حاملاً شهادةً طبّية مختومة بجميع الأختام والتأشيرات اللازمة، تنصّ على ضرورة نقل ناندو إلى المستشفى على وجه السرعة».

قال المحامي: «هيّا بنا نغادر هذا المكان، لأنك سوف تخضع لعملية جراحية».

- «سأخضع لعملية جراحية؟ هل لي أن أعرف ما هذه العملية؟».

t.me/qurssan

كان مينديس قد جذبه من ذراعه ومضى به نحو الباب حين أجابه قائلاً: «أيّ عملية، لا يهمّ، ولكن لا بدّ من إجرائها الآن».

- «وما العملية التي أُجريت له؟».

- «نُقِل ناندو من السجن إلى المستشفى حيث وافق جرّاح موضع ثقة على تشخيص الحالة بوصفها مشكلة في القلب. عمد الجرّاحُ إلى تخدير ناندو وفتح صدره في الموضع نفسه حيث كانت الندبة القديمة، ثم عاود خياطة الجرح بعد قليل، من دون أن يمسّ أي عضو داخلي».

في قاعة المستشفى الخضراء، يعود ناندو بارّاغان إلى الواقع آتياً من بعيد جدّاً، كرائد يعود من الفضاء الخارجي. فكان أول تواصل بينه وبين الأرض هو ذلك الألم الحارق في صدره. أما الثاني فكان يقينه بحضور امرأة، وهو مغمض العينَين. يسأل ناندو وصوته لا يزال مخموراً بمُخدّر ثيوبنتال: «ميلينا، أهذه أنتِ؟».

- «كلا. بل إني آنا سانتانا».

- «تعالي، لا تبتعدي. آنا، ناوليني ماء. كانت ميلينا بجواري حين أفقتُ من المُخدّر آخر مرة. وكانت بجواري قبل ذاك، خلال تبادل إطلاق النيران، حين أصابني ماني مونسالبيه في ركبتي. لم أحسّ ألماً، ولكني عرفتُ أنه قد أتلفها. انكفأتُ على وجهي، وسقطتُ في بركة من دمي، ومن موقعي على الأرض لم أتمكّن من الدفاع عن نفسي. عند ذاك أقامَتني ميلينا ودعّمَتني لأتمكّن من إطلاق النار. بجسدها دافعَت عن جسدي وهي تساندني. إنها امرأة قوية. لم تكُن تلك هي المرة الوحيدة التي خاطرَت فيها بحياتها من أجلي».

- «أنت مُحقّ في حبّك لها».

- «آنا، تعالي، اقتربي».

تخطو آنا سانتانا خطوة إلى الأمام وتقف بجواره. يقول لها ناندو: «اخلعي ثيابك».

t.me/qurssan

وإذا بالدهشة الجارفة تزمّ شفتَيْها وتضيّق عينَيْها.

- «قلتُ لكِ أن تخلعي ثيابك».

تتلفّت آنا سانتانا حولها للتأكّد من خلوّ المكان من الشهود، وهي على وشك أن ترتكب انتهاكاً عظيماً. لا ترى أحداً. لم يكُن أيٌّ من الأطباء الذين يتابعون الحالة حاضراً آنذاك. أما الحرّاس الذين يراقبون المُعتقَل فهم على الجانب الآخر من الباب. آنا وحدها برفقة زوجها في قاعة العناية بعد الجراحة. تستعدّ للنزول عند طلبه، وقد ترك الخجل في حلقها غصّة. تحلّ أزرار البلوزة، زرّاً تلو الآخر، في تردّد. تغمض عينَيْها وتحبس أنفاسها، وكأنها على وشك أن تُحقَن بالإبرة. تستجمع شجاعتها، وتنزع البلوزة بحركة واحدة. تبقى هناك واقفة، بصدرية من طراز ليونيسا، مُنهَكةً، بطلةً، مثلها كمثل جان دارك في المحرقة. يأمرها ناندو: «تعرّي».

تبلغ صدرية ليونيسا من العرض والمتانة حدّاً يجعلها تبدو وكأنها مضادة للرصاص، بحمالتَيْها المطّاطيّتين الضيقتين أكثر مما ينبغي، إلى حدٍّ يجعلهما تنغرزان في بشرتها البيضاء الطاهرة. تمتدّ يداها إلى ظهرها وتعبثان بالمشابك الصلبة على عمى، فتحلّها. تنحلّ نوابض حمّالة الصدر فيظهر نهدا آنا مُشرَبَيْن بالضوء الأخضر، وسط أجهزة جراحية قديمة عاجية اللون، في حجرة الإفاقة بالمستشفى. ينظر إليها ناندو حيناً ثم يأمرها بأن تخلع ما تبقّى من ثيابها وتصعد إلى الفراش.

- «رأتهما مُمرّضتان مرّتا بالحجرة ثم خرجَتا لترويا ما جرى. قالتا عن آنا سانتانا إنها قد تجرّدَت من الثياب تماماً، وامتطَت ناندو كالحصان، وراحت تطارحه الغرام».

- «كيف استطاع ولم يمضِ على خياطة الجرح الذي في صدره إلّا وقتٌ قصير؟».

- «لم يستطِع. كان واهناً، مُتألّماً، فلم تتجاوب الحمامة. لم تنتصب. وفي تلك اللحظة تحقّقَت النبوءة».

- «أيّ نبوءة؟».

t.me/qurssan

- «نبوءة روبِرتا كاراكولا الأولى».

في لحظة خروج آنا سانتانا من قاعة الطوارئ بشعرها الأشعث، ووجنتَيْها المضرّجتين، وبينما هي تسوّي البلوزة، تلتقي بالمحامي مينديس الذي جاء لرؤية ناندو برفقة پاخاريتو بوم بوم وسيمون بالاس وكاتشومبو.

يجده المحامي مستيقظاً. يخبره بأن قنبلة قد انفجرَت في رواق السجن بعد خروجه بدقائق، فنسفَت السجناء الأحد عشر الذين كانوا في الزنازين المجاورة. يؤكّد پاخاريتو بوم بوم وآخرون صحّة كلامه، لأنهم شهدوا الانفجار الذي يُذاع خبره في الراديو الآن.

يقول ناندو للمحامي الذي انتحل شخصية مُمرّض: «لقد أنقذتَ حياتي. كيف عرفتَ أنهم قد وطّنوا النيّة على قتلي؟».

- «أخبرَتني ألينا خيريكو».

- «صرتُ أدين لك بمعروف جديد. ألن تسمح لي بمكافأتك هذه المرة أيضاً؟».

- «بلى يا ناندو. أسمح لك بأن تكافئني هذه المرة».

***

- «تأمّل مصادفات الحياة! خلال الأيام التي أمضاها ناندو في مستشفى المدينة المركزي، كان أمهر جرّاح تجميل في المرفأ يُجري لماني جراحة لإزالة الندبة الظاهرة على وجهه».

- «صحيح. ولكن تأمّل الفارق بينهما. فُتِح جرح ناندو القديم، بينما أُزيل جرح ماني إلى الأبد».

- «هل زار أحدهم ناندو خلال فترة تعافيه المزعومة؟».

- «أجل، كانت آنا سانتانا تزور المستشفى فجر كلّ يوم، حاملةً إليه سجائر پيليروخا وفاصولياء مطهوّة في البيت. كان يعاملها

t.me/qurssan

بعذوبة، كما لم يفعل في أيّ وقت مضى، غير أنه ما عاد يناديها باسم آنا، بل ميلينا. صار الخلط بين الاسمَيْن دائماً، حتى محا ناندو اسم زوجته الحقيقي من قاموسه نهائيّاً».

- «وماذا عن آنا، ألم تستنكر منه ذلك؟».

- «لم تستنكر. بل إنها تقبّلَت اسمها الجديد وهويتها الجديدة في هدوء، وبامتنان قبلَت الحنوّ الذي بدأ زوجها يغمرها به والذي ما كان ليخطر لها على بال قبل ذلك الحين. ذات يوم استجمعَت شجاعتها واشتكَت إليه من أمه. حكَت له أن سيبيرينا باعت فراش الزوجية الذي أهداهما إياه نارسيسو، باعته لفندق فخم اقتناه بغرض ترويج عروض شهر العسل للعرسان، شاملة الخصومات والهدايا. فقال ناندو: "لا يهمّ. هكذا أفضل. كان سخيفاً"».

فاحتجّت آنا بقولها: «ولكن، أين أنام الآن؟».

- «تنامين معي يا ميلينا، على السرير المُعلّق».

***

الجنرال ذو الشارب الوطني المهيب، والبشرة التي انتشرَت عليها بقع العفن، يراقب من لوحته ماني مونسالبيه وهو منخرط في حديث سرّي يدور بينه وبين تين پويوا في قاعة القصر الرئيسية، أمام الموقد المُطفأ.

- «أزال ماني الندبة عن وجهه، وبدأ يشبه جنرال اللوحة الأخضر قليلاً. أو على الأقل، كانت تلك هي القصة التي روّجَتها الآنسة مِلبا فوكون، ونسبَت الفضل إلى نفسها، مفعمة بالزهو».

وعلى الرغم من ذلك، يبدو ماني اليوم بوجه قاتم، يليق بضواري الجبال، وجه كانت الآنسة فوكون تفزع منه لو رأته. في حين يبدو تين پويوا مرة أخرى مُغترّاً بنفسه، على راحته تماماً، بكامل طاقته، سيد قراره، لأول مرة منذ شهور. استردّ مكانه الضائع في قلب الزعيم بين عشية وضحاها، وبات يهمس إليه في سمعه مع

t.me/qurssan

أنهما في تلك المساحة الشاسعة وحدهما، وقد اقتربا أحدهما من الآخر إلى حدٍّ يسمح لذراعَيْهما بالتلامس.

- «ألا يمقت ماني ملامسة الناس؟».

- «بلى، غير أنه كان في حاجة إلى الشعور بدعم تين يومذاك».

تتدفّق بينهما تلك الحميمية الأخوية التي جمعَتهما في ما مضى، في زمن الأخطار المشتركة. ومرة أخرى ينظران ويتشمّمان بالطريقة نفسها، ويردّدان الكلمات نفسها، ويلتقطان أنفاسهما على إيقاع واحد، ويأتيان بردود فعل متطابقة، كعهدهما حين كانا شريكَيْن في الدم، ورفيقَيْن حتى النهاية، أيّاً كانت العواقب. على الخير، ولا سيما على الشرّ.

- «وما الذي ربط بينهما إلى هذا الحدّ؟».

- «معلومة أبلغهما بها ضابط».

يسترجعان آخر الأحداث، ويقلّبان تلك المعلومة على مختلف الأوجه، فيخلصان إلى الاستنتاج الممكن الوحيد، وينطلق بريقٌ مشؤوم من عينَيْ ماني: ألينا خيريكو أخبرَت ناندو بارّاغان بمُخطّط اغتياله. لم يكُن أحدٌ سواها قادراً على ذلك: لا بدّ أنها سمعَت فريبي وهو يرسم المُخطّط قرب مسبح عذراء الريح. عندئذٍ حذّرَت العصفور الصغير، فحلّق في الهواء ونجا بحياته. كان المحامي مينديس هو الذي حذّره في السجن، كما استخرج تصريحاً خاصّاً من أجله، وخرج به من هناك، وحمله إلى المستشفى قبَيْل نسفه مباشرةً. لا مفرّ من الخلوص إلى نتيجة واحدة: أن مينديس عرف من خلال ألينا. وعلى الرغم من ذلك، كانت فكرة خيانة زوجته أشدّ الآلام التي عرفها ماني مونسالبيه مدى حياته القاسية.

يمرّر تين لسانه على شفتَيْه، ويتذوّق طعم الرضا برؤية ما سبق له أن توجّسه بعدما صار حقيقة. لطالما شعر بالغيرة من ألينا، ولم يقدر على مداراة انزعاجه منها قطّ. لم يرغب في نكء جراح ماني، ولهذا السبب دون غيره أمسك تين عن تبكيته على ضعف

t.me/qurssan

حاسة الشمّ لديه، ولومه قائلاً: «ألم أقُل لك!». حسبه أن يعرف أنه قد استعاد مكانته السابقة، ومرة أخرى بات هو الكائن المُقرّب الوحيد، بعدما أزاح غريمته عن طريقه من دون أن يحرّك إصبعاً.

- «ارتكبَت ألينا خيانة عظمى حين أبلغَت آل بارّاغان بمعلومة مفتاحية، ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك، فهي على أعتاب خيانة ثانية، أشدّ من الأولى كثيراً».

- «أيّ خيانة؟».

- «كان أحد ضبّاط الشرطة قد حذّر ماني مونسالبيه من الرحلة رقم 716 على خطوط الطيران أبيانكا، الرحلة المسافرة إلى مدينة مكسيكو، المزمع إقلاعها في الساعة 2.15 فجراً وعلى متنها المحامي مينديس وألينا خيريكو معاً».

يتلقّى ماني المعلومة مطرقاً في صمت: فيلقي بتلك العظمة المسمومة في مرجل روحه ويطهوها على نار هادئة في حساء دسم من الغيرة والغضب والألم، ويتبّله بملح الجنون وقطرات الغيظ المريرة ونكهة وريقات الألم، تلك النكهة الحامضة الحلوة في آن. بينما يؤجّج تين پويوا النيران، ويقلّب الحساء بالمغرفة مضيفاً إليه توابل الانتقام الحريفة الشهية. ثم يقدّمه لماني في صحون عميقة ويجلس برفقته ليتناولاه بالملعقة، تاركَيْن الحساء يلهب جوفيهما، والأبخرة تتصاعد منه.

- «إن ذلك الرجل يريد أن يسلبني زوجتي وابني إلى الأبد».

يقولها ماني مخموراً بالحساء المختمر، بصوت رجلٍ آليّ يتحدّى الكون المعادي من أجل الحفاظ على سلالته، في بدء الزمان المُتَّقد.

يذكّره تين بقوله: «ألينا مخادعة وخائنة».

يطلق عليه الكلمات عن قرب، وهو يعلم أن ماني عاجز عن تفنيدها. يريد منع سيده من العفو عن تلك الآثمة ومحاولة إنقاذها، مهما كان الثمن. يتجرّأ على التقدّم خطوة أخرى، ويقضي

t.me/qurssan

بحكمه الآتي: «لا بدّ من إنزال العقاب بثلاثتهم».

فيصرخ أب المستقبل قائلاً: «إيّاك والطفل! فهو لم يقترف ذنباً. أحذّرك: مهما يكُن من شيء، يجب ألّا يلحق بالطفل أذى».

يتّفقان على تصنيف المسألة بوصفها شخصية بحتة، والامتناع عن إبلاغ باقي آل مونسالبيه، والتحرّك وحدهما، على أن يتحمّلا المسؤولية والعواقب، وهما لا يملكان مُخطّطاً سوى إلهام اللحظة الأخيرة واندفاعة الغريزة الحرة.

يعود تين إلى المرأب لتجهيز السيارة الجيب والسلاح، ملقياً بخصلة من شعره الناعم إلى الوراء، مرتعشاً من فرط الانفعال. في حين يصعد ماني إلى حجرته، ويقف تحت الدشّ عارياً، ثم يغمر جسده بخيوط الماء الرائعة: يسمح للماء المندفع سيولاً بأن يلطّف تلك الحرارة العنيفة التي تهدّد بصهر مخّه وتفجير قلبه كالبركان. يكرّر على نفسه أن ساعة الحمّى قد مرّت، ولا بدّ له من إحكام السيطرة على الحمم المُتفجّرة من جوفه. وليتعامل مع كلّ ما يطرأ من الآن فصاعداً بدم بارد، مسيطراً على زمام الأمور. يحسّ بالأبخرة وهي تتخلّله وتشقّه نصفَين: فهذا ماني الأول، المُتفحّم تحت وطأة الألم، الذي ينهار وينسلّ عَبْر فتحة الصرف. وذاك ماني الآخر، الذي يغلبه الإيمان بالثأر والانبهار بالمغامرة، فيتقوّى ويستردّ عافيته ويصير هو ودفقة الماء واحداً، ويتشرّب الطاقة اللازمة للتصرّف، ويبقى على تلك الحال، من دون أن يستعجل أو ينظر إلى ساعته، بل إنه يستغرق كل الوقت الذي يطلبه الجسد، وتقتضيه الروح.

يخرج من الحمّام ويتوجّه إلى الحجرة بحركاتٍ مرنة ومظهر يشي بالتعافي ويليق بقطٍّ فتِيّ مشاغب. يرفض فكرة التأنّق بالثياب الفاخرة المحافظة، ثياب الطامحين إلى بلوغ الطبقة الراقية التي حملَته على التنكّر بها الآنسة فوكون. كما أنه لا يعود إلى المظهر الذي لجأ إليه حين بدأ ينأى بنفسه عن ماضيه، مظهر المحتال الجشع.

يُخرِج الجينز القديم من الجارور الأخير، حيث أخفاه عن خبيرة

t.me/qurssan

المظـاهر، الجـينز السـقيم المـرن وكأنـه بشـرة ثانيـة، والحـذاء الرياضـي الـذي يلـيق برجـال العصـابات، والقمـيص القطنـي الفضفاض الباهت، الخالي من الأزرار، الذي تنسّلَت خيوطه من فرط الغسيل. يرتدي ثيابه في تروٍّ، ويربّت على كلّ قطعة من ملابسه بحنان شعائري، كالمقاتل الذي ينفض الغبار عن دروعه التي امتحنها في مئة معركة.

- «عاد إلى الشخص الذي كانه في ما مضى...».

- «أجل، هو بعينه. ولكن كلا. إذ تنقصه تفصيلة واحدة ليعود إلى الشخص الذي كانه: الندبة. لم تعُد الندبة على وجهه، ولم يعُد في وسعه أن يكون هو نفسه».

يلتقط ماني مونسالبيه المُسدّس الذي اتّفق له العثور عليه، ثم ينزل إلى المرأب، وبقفزة واحدة يستقلّ السيارة الجيب جالساً بجـوار تين پويوا، الجالس خلف المقود، عازماً ومُستعدّاً، يكاد يطير مدفوعاً بنفاد الصبر.

يُصدِر ماني أمره: «إلى المطار، يا أخي».

ويشجّعه بربتة متواطئة على كتفه.

***

يحصـي المحـامي عـدد الحقائب، فيجـدها إحـدى عشـرة حقيبـة، ويعجز عن التصديق. يعاود إحصاء عددها: وبالفعل، تكتظّ الصالة الصغيرة في شقة ألينا خيريكو بإحدى عشرة حقيبة. تقول له ألينا مُفسّرة، في غير ندم: «إنها حوائجنا أنا وإيلا والطفل. لقد أمضينا يومنا كاملاً في حزم الحقائب».

فيسألها، بصوت ثلّجَته المفاجأة: «وإيلا أيضاً؟».

- «بالطبع، لن أذهب من دونها».

- «هذا غير ممكن، ألينا، لم أشترِ تذكرة من أجلها...».

- «سنشتريها في المطار».

t.me/qurssan

- «لم تفهمي قصدي، وما العمل لو لم تتبقَّ مقاعد شاغرة؟».

- «الشيء الوحيد الذي أعرفه أني لن أذهب من دون إيلا».

- «ولكن، كيف تفكّرين في أمر كهذا؟ وماذا عن جواز السفر؟».

- «إيلا تحمل جواز سفر، منذ سافرَت إلى الإكوادور ذات مرة لزيارة شقيقها الذي توفّي لاحقاً».

لم يحظَ المحامي مينديس بأكثر من سبعٍ وعشرين ساعة حتى يستعدّ للرحلة إلى المكسيك، سبعٍ وعشرين ساعة لم تزِد دقيقة واحدة: أعدّ خلالها جوازات السفر، وتذاكر الطيران، والدولارات، وإذن العمل، وخطابات التوصية من أجل مستخدمه الجديد، فارتجل كلّ شيء في اللحظة الأخيرة، وأنجز ألفاً من الإجراءات الأخرى. تحرّك بأكبر قدر ممكن من السرّية لئلّا يثير الشكوك. كان هدفه أن يغادر المرفأ سرّاً، في تكتّم، ومن دون أن يلفت الأنظار. يدرك تمام الإدراك أن ماني مونسالبيه سيقتلهما بمُجرّد أن يقف على ما يجري، وأخبر ألينا بذلك، وإن لطّف من وقع كلماته لئلّا يفزعها أكثر مما كانت مفزوعة.

والآن اتّضح أنه مُضطَرّ إلى إنجاز تلك المهمة السرية فائقة الخطورة، لا مع امرأة حبلى في الشهر الثامن فحسب، بل وكذلك مع امرأة عجوز مريضة القلب، وإحدى عشرة حقيبة. وعلى الرغم من ذلك لا ينبس بكلمة واحدة، إذ يرى في كلام ألينا وأفعالها غير المبالية، التي تكاد تبلغ حدّ الطيش، قناعاً يحجب القلق الجارف الذي استحوذ عليها. ويرى طبقةً من طلاء لامع تضيفها ألينا بضربات الفرشاة الضخمة، تودّ لو أنها لوّنَت الحزن الذي تملّكها بسبب قرار اتّخذَته بعقلها رغماً عن أهواء القلب.

ونظراً لخطورة استعمال هاتف ألينا المُختَرَق، يهرع مينديس إلى الهاتف العمومي على الناصية ويجري اتّصالاً في محاولة لحجز مقعد على الطائرة من أجل إيلا. يُجاب طلبه من دون مشكلة: فالطائرة تكاد تكون خاوية من حسن الحظ.

t.me/qurssan

يعود إلى الشقة. الساعة الآن الحادية عشرة ليلاً، ويجب عليهم أن يكونوا في المطار في الثانية عشرة وخمسٍ وأربعين دقيقة على أقصى تقدير. الطريق إلى هناك يستغرق نصف ساعة، ولكن أليـنا مـا زالـت حافيـة القدمَيْن، بشعرها الملفوف بالبكرات. وما زالت تحزم الصحون. تغلّف كل صحن بورق الجرائد في حنان، قبل أن تودعه في صندوق من الكرتون، في حين يفكّر المحامي أنها لن تفرغ مما هي فاعلة أبداً بتلك الوتيرة.

- «أليـنا، يؤسفني هذا، ولكن ليس لدينا مُتّسع من الوقت...».

- «سـاعِدني يـا أسـتاذ، وسـترى أننا سرعان ما ننتهي. إن تركتُ حوائجي مبعثرة، فسأجدها تالفة لدى عودتي».

- «قد تمرّ أعوام كثيرة للغاية قبل أن تتمكّني من العودة...».

- «ذلك سببٌ أدعى لحفظ الأشياء جيداً».

لا يرغب ميـنديس في الضغط عليها. لن يضيف قطرة واحدة من التوتّر إلى أعصابها المشدودة كوتر الغيتار. يعرف أن كلمة زائدة قد تؤدّي إلى انفجار حمولة المرارة والمشقّة التي ناءت بها، لأنها مُضطرّة إلى دفن شطر من حياتها، غير مرغوب، ولكنه ما زال حيّاً بعنف.

يجثو على ركبتَيْه بجوار أليـنا ويشرع في تغليف الصحون بيدَيْن مضطربتين وتفانٍ لامتناهٍ، وكأن لم تسبق له يوماً تأدية عمل على هذا القدر من الأهمية، أو في لحظة أكثر ملاءمةً. يعرف جيداً أن فرصته الوحيدة معها تتوقّف الآن على سلسلة طويلة من أعمال متواضعة من هذا القبيل، ترمي إلى نسف قناعتها الراسخة رويداً رويـداً، قناعـة امـرأة فـي ريعـان الشـباب وإن كانت مقتنعة بأن الوقت قد تأخّر أكثر مما ينبغي للبدء من جديد.

وفيمـا هو يتفصّد عرقاً، مُحمّلاً بالأكياس والحقائب التي غرق فيـها حتـى أذنَيْه، يـنزل المحـامي فـي المصـعد بكلّ الأمتعة ثم يضعها داخل السيارات المنتظرة في المرأب. وحين يصعد مرة أخـرى يجـد أليـنا تغلّف فناجين القهوة الأخيرة. ومع أن هموم

t.me/qurssan

الآونة الأخيرة جعلَتها تفقد بضعة كيلوغرامات حتى صارَت تبدو حبلى في الشهر السادس لا في الثامن، يخشى مينديس أن تواجهه مشكلة في الصعود إلى متن الطائرة، لأن خطوط الطيران ترفض السماح بالسفر للحوامل اللاتي على وشك الولادة. يقول لها مقترحاً: «لا بدّ من مداراة هذا البطن».

- «وكيف؟».

كان مينديس قد استعَدّ لذلك، إذ احتفظ في متناول اليد بمعطف عتيق، من عهد سفره للدراسة في أوروبا، فضفاض جدّاً، مع الأخذ في الاعتبار أن ألينا فارعة القوام، ويمكن تشمير الأكمام. تصرخ ألينا بأعلى صوت: ذلك المعطف سوف يقتلها من شدّة الحرارة، يبدو لها سخيفاً، والحرارة المرتفعة لا تروقها، ولكنها في النهاية تنزل عند طلبه. يتأخّر الوقت إلى حدٍّ خطير. ها قد انتعلَت ألينا حذاءها وصفّفَت شعرها، وكلّ شيء يبدو مُعدّاً، والمحامي يفتح باب الشقة للخروج، غير أنها تستوقفه، فعليها أن تتحدّث إليه على انفراد أولاً.

- «كانا قد تحدّثا بالفعل حين تسارعَت وتيرة الأحداث واتّضح أن الهرب هو الخيار الوحيد من أجل البقاء على قيد الحياة. اعترف المحامي بحبّه العظيم لألينا، وقد زوّدَته الخطورة بالشجاعة اللازمة، فأجابته هي بنظرة رمادية هادئة أفهمَته بها أنها قد أدركَت منذ البدء. عند ذاك دعاها إلى العيش معه في المكسيك، فقبلَت دعوته».

تنطلق إيلا مسرعة في أرجاء الصالة، معتمرةً قبعتها، حاملةً دورق مياه، وتشرع في ريّ النباتات للمرة الأخيرة، بينما هما يقفلان باب المخدع.

- «يا أستاذ، أودّ أن أوضح لك أني ذاهبة معك إلى المكسيك لأني أقدّرك عظيم التقدير، ولأنك تجازف بحياتك من أجل ابني، ولكني ما زلتُ أعشق ماني مونساليبه».

- «لا تقلقي. فلسوف أحبّ ابنكِ إلى حدٍّ لن يترك لكِ خياراً سوى

t.me/qurssan

الوقوع في حبّي».

كانت الساعة قد تجاوزَت الواحدة صباحاً عندما دخل المحامي مينديس إلى المطار مرتبكاً، مُحمّلاً بإحدى عشرة حقيبة (اثنتي عشرة إن أضيفَت إليها حقيبته)، برفقة العجوز ذات القبّعة، والمرأة الحبلى ذات المعطف الشتوي.

تهيم قلّة قليلة من المسرنمين في المساحات الواسعة، الذين يتأمّلون في الواجهات سلعاً لن يشتروها، ويتحرّكون في غير استعجال، وكأنهم يترقّبون طائرات تأخّر إقلاعها إلى أجل غير مُسمّى. تلتقط ألينا الوحشة الكامنة في ذلك الضوء البارد المتساقط من أنابيب النيون، ورائحة أعقاب السجائر البائتة التي طفحَت بها المنافض، وإذا هي تدرك فجأةً أن ساعة السفر قد حانَت، سفر أولئك الذاهبين إلى غير عودة، أولئك الذين ليس لهم مَن يودّعهم.

يتولّى ميديس الانتهاء من الإجراءات اللازمة أمام شباك خطوط أبيانكا للطيران (التذاكر، وجوازات السفر، وضرائب السفر، كما يدفع مبلغاً طائلاً مقابل وزن الحقائب الزائدة). ينتهي من كلّ إجراء وهو يتنفّس الصعداء، وكأنما قد تخطّى عائقاً منيعاً، أو شركاً مميتاً أوشك أن يفوّت عليهم الطائرة. يدخلون فوراً إلى صالة السفر، حيث المكان أشدّ عزلة، وأسهل على السيطرة، وأقلّ خطورة طبقاً لحسابات المحامي.

الهواء أشدّ سكوناً مما ينبغي، والأصوات القليلة المسموعة في المكان مكتومة ونائية. يستلقي بعض المسافرين على كراسيهم، مُسلّمين أمرهم، مُتشبّثين بحقائبهم وكأن اللصوص يتربّصون بهم، يحلّون كلماتٍ متقاطعة مستحيلة، من دون إلهام، ويبدو على وجوههم أنهم لا يملكون مكاناً واحداً للعيش في هذا العالَم. أما ألينا، الشاحبة، فتهدّئ من توجّسها بمطالعة العطور في السوق الحرة. يراقبها المحامي: يبدو أن الشحوب والمعطف معاً قد حبساها في مكان غير المكان، في زمن غير الزمن، وكأنها مُمثّلة مساعدة في فيلمٍ منسيّ.

t.me/qurssan

- «لم أفهم بعض الأمور. كيف وصل ميندیس وألينا إلى صالة السفر وهما على قيد الحياة؟».

- «بمحض المصادفة. كان ميندیس قد اتّخذ تدابير الأمان بصنوفها كافة، ولكنها في ساعة الجدّ خذلَته جميعاً. كانا قد أذاعا أنها سوف تنتقل إلى بيت واحدة من أخواتها، لتيسير خروج ألينا من الشقة مُحمّلة بأغراضها وكلّ شيء من دون إثارة الشبهات، ولكن الأخت وزوجها لم يحضرا ذلك الانتقال المزعوم، حسب الاتفاق، لأن الخوف قد تملّكهما. ولقد استطاع ميندیس إقناع صديق يشغل منصباً في الحكومة بأن يقرضه سيارة مُصفّحة، تحسّباً لأي هجوم أو إطلاق نيرانٍ مُحتمَل. فحدث ما قُيّض له أن يحدث: إذ اتّضح أن السيارة المُصفّحة ثقيلة إلى حدٍّ جعلها تعلق في الطرق الصاعدة، فتعيّن عليهم العودة إلى الخلف والدوران لمسافات هائلة من أجل العثور على طرقات أقل صعوداً. ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك. إذ كان ميندیس قد اتّفق وضابط أمن في المطار على تيسير الإجراءات، والسماح لهم بالدخول إلى صالة السفر في الحال. كان الرجل حاضراً، وأدّى مهمته، ثم اختفى عن الأنظار. أما الشيء الذي لم يعرفه ميندیس فهو أن ذلك الضابط هو نفسه الذي وشى به عند ماني مونسالبيه. وهكذا، بقوا على قيد الحياة بفضل القرار الذي اتّخذه ماني بالتدخّل شخصيّاً، والأمر الذي أصدره إلى رجاله بعدم التدخّل في الأمر. وها نحن نعود إلى النتيجة نفسها دوماً: كانوا على قيد الحياة بمحض المصادفة. كلّ ما هنالك أن ساعتهم لم تحِن، ولا أحد يموت قبل ساعته بدقيقة، ولا بعدها بدقيقة».

يلامس الهواء عنق ميندیس برقّة فيفجّر توتّره. في البدء شعر بأنّ كلّ شيء يسير على ما يرام، ولكن شعوراً جليّاً يطارده ويحدّثه بأن العدو خلفهم. كان قد اختبر ذلك الشعور في مرات سابقة: وهو إنذار لا يخيب أنقذ حياته غير مرّة، مُطلقاً في سمعه طنيناً حادّاً كذلك الذي يسمعه الآن.

يحاول الضغط على المضيفات من أجل السماح لهم بالصعود إلى متن الطائرة قبل الأوان، فيجبنه بالرفض. يقلن إن عمّال النظافة

t.me/qurssan

في الداخل. ويردفن: «لا تقلق، فسرعان ما نعلن عن فتح أبواب الطائرة».

ولكن مينديس لا يسمع سوى الإنذار الداخلي، الذي يعلو ويعلو حتى يبلغ درجة تصمّ الآذان. ومن دون المزيد من التفكير، يجذب ألينا وإيلا، كلّاً من ذراعها، فتستنكران لأنه لم يترك لهما مُتّسعاً من الوقت لالتقاط حقائب اليد. يحملهما على الهرولة، ويكاد يرفعهما في الهواء، يدفعهما نحو الممرّ المُؤدّي إلى الطائرة، رغماً عن مُوظّفي شركة الطيران الذين يحاولون اعتراض سبيلهم.

الممرّ يشبه دودة طويلة، قاتم، تتخلّله دفقات من الريح العاتية. يقطع ثلاثتهم الممرّ وهم متعانقون، كما لو كانوا حشرة عبثية خرقاء تمشي على ستّ أرجل، تتحرّك في غير تناغم، وتهرب من حصار النيران. تبذل المرأتان جهداً شديداً وهما تركضان، فيدركهما الإعياء، وتصير الحمولة أثقل وزناً، أثقل مما تحتمله ذراعا مينديس، الذي يمدّ البصر إلى الباب المفتوح المضيء الذي يترقّب وصولهم في النهاية، على بعد خمسين خطوة (الخمسين خطوة الفاصلة بين ما قبل وما بعد)، ويحاول استجماع الزخم الكافي لسحبهما صوب مخرج النفق: يبتهل طالباً معجزة تلفظهم على الجانب الآخر من الضوء.

- «وفي تلك اللحظة، انشقّت الأرض عن ماني مونسالبيه وتين پويوا، اللذين أقبلا مسرعَيْن، صامتين، يقدحان شراراً، وصوّبا أسلحتهما إليهم، من الخلف. تعثّرَت إيلا العجوز، فسقطَت وأخذَت معها كلّاً من ألينا وميندیس. تشابكَت أقدامهم في ارتباك، ولم يروا كيف تردّد ماني مونسالبيه ثانيةً قبل أن يطلق النار، وكيف اعترض سبيل تين پويوا لئلّا يفعلها الأخير، وكيف حاول العثور على زاوية أفضل لإصابة المحامي من دون أن يجرح ألينا».

- «لم يكُن مينديس هدفاً يسيراً في نظر ماني، إذ هرب ومعه رهينتين، المرأة والطفل، حتى وإن لم يكُن قد وطّن النيّة على ذلك».

- «في تلك اللحظة تجمّد المشهد لجزءٍ متناهي الصغر من الزمن.

t.me/qurssan

إذ وقع الطرائد على الأرض متشابكين مثلما تتشابك أطراف العقدة، وهم يراقبون الابتسامة المرتسمة على وجه الموت. أما الرجلان اللذان كانا يطاردانهم، فقد أهدرا تلك اللحظة الثمينة، التي لم تتكرّر، اللحظة التي سمحَت لكل من پاخاريتو بوم بوم، وتيخيراس، وسيمون بالاس، وكاتشومبو، أن يفرغوا خزانات مُسدّساتهم في ماني وتين».

- «ومن أين جاء سيمون بالاس وباقي قتلة ناندو بارّاغان؟».

- «كانوا هناك منذ البدء نزولاً عند أوامر الزعيم، الذي ما زال حبيس المستشفى. رافقوا ميندیس وألينا من الشقة وصولاً إلى المطار، وما برحوا يشملونهما بالحماية لحظة بلحظة».

- «ولماذا؟».

- «عندما نجح ميندیس في إخراج ناندو من السجن وإنقاذ حياته، عرض ناندو مكافأته عن المعروف الذي أسداه إليه، عند ذاك طلب منه ميندیس الشيء الذي تأمّله طويلاً: إذ طلب حمايته من أجل مغادرة البلد، برفقة ألينا خيريكو وابن ماني الذي لم يُولَد بعد».

- «لقد ضحّى ماني بحياته دفاعاً عن ألينا والطفل...».

- «أجل، أفترض أن ذلك صحيح، فهكذا جرَت الأمور، على وجه التقريب».

***

- «ليلةَ قضى ماني مونسالبيه نحبه على الأرضية السوداء المصنوعة من الفينيل، في صالة الرحلات الدولية بالمطار، وُلِد ابنه إنريكي في قلب السماء على متن رحلة أبيانكا 716 المُتّجهة إلى مدينة مكسيكو. ساعدَت المضيفات المضطربات ألينا خيريكو في الولادة قبل الأوان، ثم نظّفن المولود، ولففنه بغطاء، وسلّمنه إلى أمه التي كانت تتعافى من الانفعال الجارف والجهد الهائل، بينما هي تراقب من النافذة سرباً من السحائب المُتورّدة التي

t.me/qurssan

راحت ترعى في مروج الفجر اللامتناهية. تسلّمت ألينا المولود، وإذا هي تُفاجأ بأنه، في نزوة جينيّة، لم يرث بشرة آل مونسالبيه الخضراء، وإنما ورث البشرة الصفراء، كأبناء العمّ الأشقاء، آل بارّاغان».

- «إنريكي؟ هل سُمّي ذلك الطفل إنريكي؟».

- «إنريكي مينديس، ليجمع بذلك بين الاسم الذي اختاره أبوه الحقيقي واللقب الذي منحه إيّاه أبوه بالتبنّي، المحامي».

***

- «قرب الثالثة من مساء ذلك اليوم، الذي صادف الاحتفالات بالكرنڤال، راح أهل ناصية النار جميعاً يطرحون على أنفسهم السؤال نفسه: ماذا يفعلناندو بارّاغان وحيداً، جالساً على باب بيته؟».

- «أُطلِق سراحه منذ أسابيع، أو ربما شهور، غير أننا لم نعرف عنه شيئاً. فلقد حان زمن العنف المطبق، ووقعَت حياتنا في حبال الموت والقتل. ولكن آل بارّاغان لم يعودوا هم محور الأحداث، لا هم ولا آل مونسالبيه. فبين عشية وضحاها برز أبطال أكثر منهم إثارة للذهول، وأشدّ ضراوة، وأشدّ بأساً، وتكاثروا كالفطر عقب تساقط الأمطار، في كلّ أرجاء البلد. دعونا نقُل إن وجود آل بارّاغان وآل مونسالبيه بات مقتصراً على الفولكلور المحلّي، في يوم من الأيام، على حين غرّة. فبدأنا نراهم تجسيداً لحقبة ما قبل تاريخنا العنيف بحقّ: فهم لم يكونوا سوى بداية النهاية. جلس ناندو مساء ذلك اليوم على باب بيته وقد اختُزِل إلى ظلّ نفسه. لا بدّ أنه هو نفسه قد انتبه إلى ذلك، إذ كانت تصرّفاته جديرة بالفضول، تليق بالظلال أكثر مما تليق بالرجال، طبقاً لأولئك الذين رأوه».

- «يومذاك، في ثالث أيام الكرنڤال وآخرها، استحوذَت الهلاوس على ناندو بارّاغان منذ أفاق من نومه. لاحظَت النساء عليه خمولاً يمنعه من القيام، فحملن إليه القهوة وشرائح الموز الناضج

t.me/qurssan

المقليّة، وهو لا يزال مُستلقياً على السرير المُعلّق. وطوال الوقت الذي استغرقه الفطور أخذ يجترّ فكرة جنونية مؤداها أنه يودّ الموت في سلام».

دخلَت آنا سانتانا إلى حجرته لتأخذ الصينية فقال لها: «لا أعرف أحداً مات على فراشه عجوزاً».

ترى آنا سانتانا في قوله ضرباً من الحنين يتناقض وهذا الزمن الذي صار الموت فيه يحوم أشدّ وضوحاً وصخباً من الحياة نفسها، وما عاد أحد يقول «مات فلان»، بل «قتلوا فلاناً». بَيْد أنها لا تحير جواباً، وتكتفي بوضع يدها على جبينه للتأكّد من عدم إصابته بالحمّى، ثم تسأله عما إذا كان يرغب في المزيد من القهوة.

- «في ساعات النهار، أحسّ به الآخرون هائماً على غير هدى داخل البيت، وقد نوّمَته بالإيحاء موسيقا المزامير الزاعقة، وتركَته في سباتٍ روائحُ النفايات العالقة في الهواء خلال الكرنفال».

تشير عقارب الساعة إلى الحادية عشرة، بينما يجلس ناندو في الباحة ويحتسي شراب الرمّ الأبيض بالملح والليمون. يرونه وقد تجرّع القارورة الأولى كاملة، فيسري الهدوء إلى النساء، ويقلن في ما بينهن: «ها هو ذا قد عاد إلى طبيعته».

وإن لم يكُن قولهن صحيحاً كلّ الصحة، فالشراب لا يترك فيه الأثر المعهود: نوبة الفحولة المُتوحّشة التي تدفعه إلى الشارع بحثاً عن ضحية، وإنما يُغرِقه في كآبة ناعسة ساكنة، يتميّز بها أهل الصحراء، كآبة يجدر بالمرء الحذر منها، فالغارق فيها لا يعود، أي إنها متى أوقعَت بالمرء أوقعَت به إلى الأبد، وحتى النهاية.

يشرع في احتساء القارورة الثانية قرب الساعة الثالثة مساءً، جالساً على باب بيته، وهو يراقب الأجساد شبه العارية تمرّ من أمامه، أجساد الراقصين وملكات الجمال المطليّة بالأسود من قمة الرأس إلى أخمص القدمَيْن، بمزيج من الفحم المطحون ودهن

t.me/qurssan

الخنزير يلتمع وتفوح رائحته تحت غضب الشمس الساطعة، ويسيل في خيوط مع قطرات العرق الغزير.

- «ألم يكُن الحرّاس يراقبون المكان لمنع الموكب من المرور أمام البيت؟».

- «ما عاد أحد يكترث. نسي كاتشومبو وسيمون بالاس والآخرون أمر الحرب الدائرة حيناً، واغتنموا الفرصة للتسلّي والاختلاط بجموع الناس، مُتنكّرين في ثياب تائبين يعتمرون القلانس على رؤوسهم. حتى ناندو نفسه بدا غير مكترث البتّة. لأن الحرب قد انتهَت بالنسبة إليه بعد موت ماني مونسالبيه، والأرجح أن الحياة نفسها قد انتهَت، فلطالما كانت الكراهية حبّه الأعظم، على الرغم من كلّ شيء».

- «وهل تهنّأ بالنصر؟».

- «كلا. فالنصر الحاسم على عدوه الدائم لم يترك في حلق ناندو أكثر من مذاق الملح الكريه».

بانفعالٍ طفوليّ يحسّ باقتراب موكب موسيقا الكومبيامبا الفولكلورية مُتوهّجاً، وفي ذهول يسمع الأصوات الجنونية آتية من المزمار وخشخيشة الماراكا. يأخذه الدوار من تأثير الكحول، وكالحالم يرى الحيوانات المفعمة بالبهجة تمرّ من أمامه، يرى المُتنكّرين في أزياء الأرنب والحمارة والرجل التمساح وهم ينثرون الطحين ويتراقصون كالممسوسين. وهناك، وحيداً، جالساً على دَرَج حجري، وقد انخفضَت مُعدّلات التأهّب لديه، وطعن في العمر فجأة، يبالغ ناندو في الشطط: إذ يترك تنهيدة سعادة تنسلّ من بين شفتَيْه، تنهيدة تكاد لا تُدرَك.

يمضي الموكبُ الصاخب، الذي لا ينتظر أولئك المُتخلّفين عنه قطّ، بينما يبقى ناندو راسياً عند باب بيته، وكأن هاجساً قد حدّثه بقدوم ضيف شرف.

يلفت بريقُ الخرز انتباه النظارة الرايبان. فيرى محفّةً مُذهّبة ستائرها متسدلة لإخفاء الراكب، يحملها على كواهلهم أربعة

t.me/qurssan

رجال مُتنكّرين في زيّ الشيطان الصغير، وتمضي في أثرها فرقة من العازفين المساكين، الذين تناثر عليهم الطحين خلال حرب فرق الكرنڤال التي اندلعَت في المدينة. تمرّ المحفّة من أمام بيت آل بارّاغان، فتُزاح الستائر ذات الهُداب، مُحمّلةً بالتلميحات، ويرى ناندو ملكة شعبية وعلى وجهها ابتسامة تليق بإعلان معجون أسنان «پيپسودِنت»، يراها مُتربّعة على عرشٍ محمول، وعلى رأسها تاج يفوق تاج إيزابيل ملكة إنجلترا، ثم إنها تقترب منه بخطاً رشيقة وتميل عليه خافقةً بأهداب مستعارة، وشلال من شعر مُموّج مستعار جامد بفعل طلاء اللّك. يغمض ناندو عينَيْه نصف إغماضة ويترقّب أن تقبّله تلك الرؤيا المُذهّبة قبلة حبّ، أو تهمس إليه بسرٍّ مفعم بالدلال، ولكن جلالة الملكة، الماكرة، تأخذ بيدها حفنة من الطحين وتنثرها على وجهه، فلا يتصدّى لها: بل إنه يتلقّى حمّام الطحين وقد ارتسمَت على وجهه أمارات بلادة وامتنان، تليق بعملاقٍ مخمور هدأ تحت وطأة الشيخوخة المفاجئة.

- «هل ظلّ جالساً هناك، ووجهه مُلطّخ بالأبيض؟».

- «ظلّ جالساً هناك، مُلطّخاً بالطحين مثل الكعك الذي يُنثَر عليه السكر، وما عاد لديه عقل يتذكّر النبوءة».

- «ألم يفكّر في تحذير روبِرتا كاراكولا؟».

- «لم يفكّر حتى في ذلك. ببساطة لم يسجّل عقله الواقعة، وكأنه طحين من جوال آخر».

تدور كرة الكرنڤال المُلوّنة الصارخة، وتمضي صوب وسط المدينة، وتترك خلفها الحيّ غارقاً في نثارة الأوراق والمهملات. وإذا رجل مُتنكّر في زي الشخصية الفولكلورية المعروفة باسم پاپا أويبوس القزم يتخلّف عن فرقته، مُثقّلاً بقناعه المصنوع من الكارتون، ويجلس بجوار ناندو بارّاغان طالباً إليه كأساً من شراب الرمّ. تصل إلى ناندو العفونة المريرة الخارجة من فمه المتواري خلف القناع، كالغاز المُتسرّب. يختلس النظر إلى ما وراء القناع، من خلال تجويفَي العينَيْن، فيلتقط نظرة مُتملّصة، صفراويّة،

t.me/qurssan

نافرة بتأثير من البيرة والقيظ.

يسير القزم في الشارع مبتعداً بخطاً مُتعرّجة، أما ناندو فيبقى مستغرقاً في نثار الأوراق المُلوّنة وأشرطة الزينة التي دهسَتها الأقدام، كالغارق في بركة من الوحل، ورأسه دبِق مُثقَل بعصيدة من أفكار بلا نظام ولا شكل ولا لون.

وفي الشارع يمضي «الموت» راقصاً، وحيداً. لم يكُن موتاً مهيباً، يبثّ الرهبة في النفوس بحضوره، ويرتدي زيّاً تنكّريّاً فاخراً، بل كان هيكلاً عظميّاً متواضعاً، مُرتجَلاً، هزيلاً، جمجمته من الخشب، ورداؤه من الملاءات العتيقة، وقد أمسك بيده عظمة حيوان ضخمة. يتملّص منه الجيران، ويحبسون أنفسهم في بيوتهم حتى يمضي الموت في سبيله، يتلصّصون عليه من النوافذ المُوارَبة ويقولون إنهم لم يروا في حياتهم موتاً هزيلاً تافهاً مُنفّراً إلى هذا الحدّ: إنه موت لعين، غادِر، يفتقر إلى الجلال، وجه الشبه بينه وبين الموت الحقيقي أقرب مما ينبغي. يستحوذ الموت على الشارع المهجور ويقذف بالونات المياه في الخواء. يضرب الهواء بغِلٍّ، ولكن بلا قوة، كيفما اتّفق.

- «وهل اكتشف الموتُ ناندو، الذي جلس منزوياً على نفسه فوق الدّرَج؟».

- «كلا، لم يرَه، أو تظاهر بأنه لم يرَه. بل إن الموت شرع يصفر على أنغام أغنية أجنبية، بصوت نشاز. أما ناندو فنظر إليه وجهاً لوجه، نظرة العارف. فلقد التقى بالموت مرّاتٍ بلغَت من الكثرة حدّاً سمح له بتمييز الموت الزائف من الحقيقي فوراً. قال في نفسه: "إنه لا يستحقّ العناء"، وسمح له بالمرور».

وبالأسفل، على مستوى الأرض، تتردّد أصداء قديمة آتية من طبول إفريقية تنادي بتمرّد الرقيق. وفي الأعالي، تتلوّن السماء الغاربة بالخطوط الحمر والصفر، صارخةً، استعراضية، وتتزيّن بفوضى من البريق والضوء المُتفجّر. يحلّ ناندو بارّاغان أزرار القميص الكاريبي، ويبقى في مكانه لا يبرحه، فاتحاً صدره، على الدّرَج نفسه: غير آبهٍ لبهرج السماء، غريباً عن قدره، وقد شرب

t.me/qurssan

إلى حدّ التخمة، وسرى الخدر إلى ساقَيه. يُقبِل الليل مُسدِلاً حجابه، متواطئاً، ويلقي عليه بضعة ظلال أرجوانية اللون. يتدثّر بها ناندو فيغدو والعتمة واحداً، ويتحوّل إلى شبح ساكن، خفيّ، لا اسم له ولا شخص.

- «إذاً، فهل كان ناندو مُتخفّياً حين مرّت بشارعه فرقة الماريموندا الغادرة؟».

بعد النظرة الأولى بدا السواد مطبقاً. ولكن بعد النظرة الثانية، وبإمعان النظر، يتبدّى وجهه أبيض بلون الجبن الطازج، بريئاً، عبثياً، تحت لطخ الطحين، حالماً بمباهج لم ينعم بها، ذاهلاً إلى حدّ الوهن، مُتأثّراً برسالة مبهمة، تكاد تكون غير مفهومة، يحاول إرسالها إليه قلبه المخمور: تلميح باعث على الجنون يقول إنه كان في المستطاع أن تكون الحياة أفضل حالاً.

- «ألم تكن جذوة سيجارته بادية أيضاً؟».

- «بلى، كانت بادية للعيان. إذ توهّج طرف السيجارة في قلب العتمة جليّاً، أحمر، فاضحاً، وكأنه لافتة متناهية الصغر من النيون، تُضاء وتُطفأ، وتقول: "هأنذا، هأنذا، هنا"».

- «ومتى مرّت فرقة الماريموندا بشارع ناندو بارّاغان؟».

- «في غير أوانها، بعد أن ابتعدَت باقي الفرق وكاد ينطفئ الكرنڤال على أنغام موسيقا الكومبيا الأخيرة، في حفل الختام. كان كلّ ما في تلك الماريموندا غريباً، على الرغم من زيّها التنكري التقليدي، المُؤلّف من وجه ذكر قرد، وجسدٍ شبه أنثويّ. غير أنها لا رقصَت ولا تسلّت. كان جليّاً أنها في عجلة من أمرها. وحده ناندو لم يرتَب فيها، ولا أحسّ بشيء لمّا تحلّقَت الماريموندا حوله وطعنَته بالسكاكين، ربما كان ميتاً عندما حانَت لحظة الموت».

- «وما معنى هذا؟».

- «طبقاً لما جاء في تقرير الطبيب الشرعي الذي شرّح الجثمان، قضى ناندو بارّاغان نحبه فجراً».

t.me/qurssan

- «إذاً، فذلك الحزن الجارف الذي شُوهِد مُرتسِماً على وجهه طوال اليوم كان هو الموت...».

- «كان هو الموت، وإن لم يتعرّفه أحد. ولكن ما جرى في تلك الليلة، في وقت لاحق، يُعَدّ هرطقة وانتهاكاً. ذلك أن فرقة الماريموندا الزائفة لم تكتفِ بقتله، وإنما سحلَت جثمانه في شوارع الحي، على سبيل الازدراء والاحتفال. هرع الناس لرؤيته: وعبثوا بجثمانه، وانتزعوا ثيابه، وتعرّفوا عليه. لم يرتَب أحد في ذلك: كان هو، قطعاً. وإذا اليقين بموته ثقيلٌ، عارٍ، مثل جثمانه».

- «هل رقّ أحدهم لحال الميت؟».

- «لم يتضامن وإيّاه أحد، وربما لم يأسف له أحد. لو كان هناك من أشفق عليه، فلقد آثر التزام الصمت لئلّا يتحدّى النفوس المُتّقدة لجموع الجيران، الذين انتقموا أخيراً، بأفضل ما يمكن، انتقاماً جماعياً جرى تدبيره من دون وعي طوال كلّ ليلة من الليالي التي اضطررنا إلى قضائها محبوسين في بيوتنا، بالأقفال والمزاليج، والأطفال ساهرون، يتملّكهم الرعب، بينما في الشارع، يفتح آل بارّاغان النار فتنطلق أسلحتهم مدوّية. ولذا كانت ساعة الموت هي ساعة الثأر، وحكمَت شريعة العين بالعين. فتبدّل الخوف الذي كنّا نضمره له في حياته، وبات عدوانيةً، بقدر متناسب: فأولئك الذين كانوا هم الأشدّ خضوعاً، صاروا هم الأكثر تنكيلاً به. وددنا لو ننتزع منه شعرة عن كلّ خوف من المخاوف الذي بثّها في نفوسنا، وسِنّاً عن كل همٍّ من الهموم التي أغرقنا فيها، وإصبعاً عن كل قتيل من القتلى، وددنا لو نفقأ عينَيْه جزاءً له عن الدماء التي سفكها، ونبتر رأسه جزاءً له عن السلام المفقود، وننتزع أحشاءه جزاءً له عن الخزي الذي جرّعنا إياه. وددنا لو ننتزع حياته التي ما عادَت ملكاً له، وقايضنا بها المستقبل الخرائي الذي أورثنا إيّاه. كرهناه إلى الأبد، لأنه وسم وجوهنا بوسم الموت».

- «إذاً، ألم يكُن هناك من خفَ لنجدته؟».

- «بل إنهم استغلّوه. إذ لمح رجلٌ مُتنكّر في زيّ الساحر ماندريك صليبَ كاراباكا فانتزعه بالسلسلة وبكلّ شيء، ثم ذهب مُحمّلاً

t.me/qurssan

بالغنيمة. أما الساعة الرولكس المُرصّعة بالاثنتين والأربعين ماسة فنجَت، أو كادَت تنجو، إذ عرضها آل بارّاغان للبيع في مزاد علني بينما كان ناندو لا يزال راقداً في المستشفى، مفتوح الصدر. فاتّضح أن صاحب العرض الأفضل هو إلياس مانسو، الرجل الذي أثبَت أنه على استعداد لأكل الخراء مقابل الحصول على الساعة في زفاف ناندو».

- «وكيف تسنّى لذلك المدعو مانسو شراء الساعة، ما دام معدماً؟».

- «لم يعُد معدماً. بل إنه صار مليونيراً بفضل التجارة غير المشروعة».

وإذا مشهد الطاغية القديم ساقطاً سببٌ يدعو إلى البهجة ويفجّر حمّى الكرنفال من جديد. أما فرقة الماريموندا، المُتوحّشة، المنتصرة، فتسحله وتمثّل به عارياً، وكأنه غنيمة الصيد. ثم تملّ التباهي بالغنيمة، فتجرّده من آخر ما تبقّى له من الممتلكات، النظارة الرايبان، وبعد ذلك تلقي به في ركن من الأركان، وتغيب عن الأعين وسط جموع الناس، مُفلتةً من العقاب، بوجوهها المُقنّعة بأقنعة القرود، ونهودها الصناعية، وضحكاتها المجنونة الخليقة بالضباع السعيدة. «سيهرب آل مونسالبيه!»، يقول الناس وهم يشيرون إليهم، ويسمحون لهم بالهرب.

- «كيف عرفتم أنهم آل مونسالبيه؟».

- «لم نرَ وجوههم قطّ، ولكن تعرّفنا عليهم بما لا يدع مجالاً للخلط. إما هم وإما أتباعهم من القتلة، سيّان».

ترحل الماريموندا، وإذا أنهار من الجموع تستحوذ على الجثمان، وتتنازعه يمنةً ويسرة، وكأنه دمية من القماش، وتمضي في أثره راقصةً، في موكب جنوني من الهول والبهجة، أكثر المواكب التي شهدَتها المدينة حيويةً ووحشيةً. يحملون الميت فوق عربة حمراء يجرّها حمار على رأسه قبعة بحّار، ويطوفون به رافعين لافتة ورد فيها قول معروف: «من مات، فات». أما الرعاع الذين

t.me/qurssan

يسوقونه فينثرون عليه الطحين حتى يغدو أبيض من الأمام ومن الخلف، ويتحوّل إلى رجل ثلج عملاق في القيظ الحارق. أما طرزان والرجل القرد فيلوّنان أنفه بالأسود، بقطعة من الفحم. «ها قد لقيتَ حتفك يا ناندو!»، تصيح فيه الفرق المُتنكّرة، ومن حوله يدور الكرنفال كالزوبعة، نابضاً بالحياة.

- «متى أبلغوا باكان بالخبر؟».

يلعب باكان وجماعته مباراة في دور الثمانية من بطولة الدومينو الأبدية، جالساً على كرسيّه المُتأرجِح المصنوع من الخيزران، على الرصيف المقابل لبيته. وخلفه، على الجدار المصنوع من الألواح الخشبية، آثار سبع رصاصات تُقدّم شهادة صامتة ومجهولة عن سبع محاولات للقضاء عليه، باءت كلّها بالفشل.

في حدقتَيْه المُلوّنتين بلون السماء المُلبّدة بالغيوم يحلّق سنونو العمى، بينما أصابعه المبصرة تقرأ النقاط البيض على فيشات الدومينو السود المُرتّبة فوق الطاولة على هيئة خطوط السكة الحديد المُتقاطِعة. يصبّ تركيزه على اللعبة، في صمت أشدّ من صمت القدّاس الإلهي، مُترقّباً اللعبة التالية، ولا يسمح لجلبة الكرنفال البعيدة بأن تزعجه، كما لم يزعجه دويّ المدافع الرشاشة ولا صرير إطارات الجيب في ليالٍ أخرى أشدّ عتمةً.

وفي خضمّ البلبلة والفوضى والصياح يصل جمعٌ في ثياب تنكّرية بأنفاس مُتهدّجة: «لقد قتلوا ناندو بارّاغان، وسحلوا جثمانه عارياً في الشوارع».

فلا يحير باكان جواباً، كما هو دأبه في اللحظات الحرجة من حياته. يزيح الطاولة وفيشات الدومينو ويهبّ واقفاً، مهيباً: يفرد قامته الهائلة، قامة العملاق الأسود الأعمى، ويعتمر قبعة أنيقة من القشّ، ويمسك عصا من خشب السنديان، ورثها عن أبيه الذي وصل إلى الشيخوخة أعمىً هو الآخر. يتعلّق بذراع زوجته الخلاسية ويتلمّس الخطا عبر الشارع، صوب منبع البحر المائج من حيث تأتي الأصوات. يمضي بخطا وئيدة، مراسمية، هائمة: يميل برأسه إلى الخلف، ونظرته الضاربة إلى الزرقة شاخصة إلى

t.me/qurssan

كَوْن من النجوم لا تسعه رؤيته.

في تقاطع شارع 26 وجادة 4، يتلاقى الموكبان، أولهما صغير، وثانيهما هائل الضخامة: فنجد باكان وزوجته السمراء وجماعته من ناحية، ومن ناحية أخرى ناندو بارّاغان وقد تحلّقَت حوله حشود عدوانية، مُسلّحة بالعصي والمشاعل. يتوقّف الموكبان على مسافة عشرين متراً، وجهاً لوجه، وكلٌّ منهما يقدّر قوة الآخر. أما الرذاذ، الذي يبدأ في التساقط على استحياء، فيثير تلك الرائحة العذبة، رائحة الصوف الرطب، ويزيل أصباغ زينة الكرنڤال الأخيرة.

يخاطر باكان بمجابهتهم، وحيداً، رافضاً اليد التي تمدّها له زوجته. يمضي قدماً وهو يتلمّس الطريق بعصاه على عمى، حتى يبلغ الفريق المقابل، فيشقّ طريقه وسط الأقنعة التي تفسح له الطريق، مطيعةً، لتشكّل بذلك ممرّاً على جانبَيْه. تماسيح، وهنود حمر، وصيادو نمور، وشياطين كبار وصغار: كلٌّ يعود إلى الوراء خطوة، مُبدياً آيات الاحترام للأعمى العجوز، وقد سرى إليهم الجمود تحت المطر البطيء الذي يطفئ المشاعل ويهدّئ النفوس. يتكاثف صمتٌ مطبق في المكان، يتردّد خلاله وقع الخطا المُتمهّلة الكهنوتية التي يخطوها باكان.

تصطدم عصاه المصنوعة من خشب السنديان بجسم: هوذا جثمان ناندو بارّاغان الذي هوى على الأرض. مُتفسّخاً، عارياً، مُتفكّكاً، مثل الدمية. تغمره وحدة العالَم كلّها، ويثقل عليه تعب العالَم كله. يستلقي كسيراً مغلوباً عند أقدام الجموع المحتفلة، وقد بات جبلاً من الوحل، لطخة هائلة من الدماء والطحين. فيبدو رأسه المُهشّم الذاهل وكأنه يتوسّل طالباً دقيقة واحدة من السلام حتى يتمكّن من الوفاء بديونه المستحيلة للحياة الآخرة.

يشخص باكان إلى القتيل بعينَيْه الزاهيتين العمياوَيْن، وفي اللحظة نفسها تشقّ الليلَ صاعقةٌ بديعة، من أقصى الطرف إلى أقصاه، وتقسّمه إلى شظايا بجذورها المضيئة، وتبثّ في الأرض تياراً كهربائيّاً بكلّ ما لبريقها من هدير. وكما لو كانت تلك

t.me/qurssan

الصاعقة هي المفتاح، تنفتح أبواب السماء فتنهمر سيول شديدة على إيقاع واحد، وتتدفّق زحفاً على البشر الذين يهرولون مُشتّتين في الجهات الأربع، باحثين عن ملاذ لهم تحت الجسور وفي الحوانيت، ويقطعون النواصي مُتفرّقين، ويدلفون إلى البيوت، ويتلاشون تحت جنح الظلام.

وفي الشارع الذي تنهال عليه زخات المطر كالسياط يتبقّى خيالان، وحيدان، مصمتان، كلاهما هائل الجرم، أحدهما إلى جوار الآخر، يتحمّلان هبّات العاصفة في ثبات يليق بموانع الصواعق. أحدهما أسود، يقف في وضع رأسي، وهو باكان. أما الآخر فأبيض بلون الطحين، يتمدّد في وضع أفقي، وهو ناندو.

- «كم من الوقت لبث الاثنان وحدهما تحت الأمطار الغزيرة؟».

- «بصبر أعمى، انتظر باكان ريثما يغسل الماء المنهمر من السماء جثمانَ الآخر، وينظّف طبقةَ الوسخ والدم المُتخثّر العالق به، ويردّ له السكينة واللون الطبيعي. ثم حمله على كاهله الذي ما زال قويّاً وانطلق سائراً نحو بيته، في وجه الريح العاتية، التي هبّت بقوة متزايدة. كانت رفقته الوحيدة بخلاف القتيل هي الخلاسية الوفية، التي خاضَت المياه وكانت للأعمى دليلاً. كان موكباً شاقّاً، قاسياً، امتلأ طريقه بالعراقيل. ذلك أن الأمطار أغرقَت الجثمان وضاعفَت وزنه الثقيل من الأساس، وصفرَت الريح مُنذرةً بالإطاحة به. فلا العمى أعانه ولا سواد الليل الذي أعثر خطاه. ولكن باكان ظلَّ مثابراً، مبرهناً على قوته الهادئة، وكأن شيئاً لا يعنيه بقدر إنقاذ القتيل».

- «هل وصل إلى برّ الأمان في النهاية؟».

قبَيْل مطلع الفجر بقليل، والسماء لا تزال معتمة، يتمكّن من الوصول إلى بيته في الحيّ الفقير، والماء يتصبّب من جسده المُخضّل حتى النخاع. ثم إنه يمدّد ناندو على مائدة الطعام، فوق مفرش من المطاط الأبيض. يطلب من السمراء أن تجفّف الجثمان وتصفّف شعره: فتنزل عند طلبه، وفي مبادرة منها تزيّن وجه القتيل بمستحضرات التجميل، لمداراة الأذى الذى لحق به

t.me/qurssan

من جرّاء الليلة العصيبة، والآثار التي تركها الجدري على بشرته.

- «والآن، يجب عليكِ إحضار ثياب نظيفة».

فتُخرِج من الخزانة طقماً كاملاً من الثياب المكويّة حديثاً، وتناولها لزوجها. يتلمّس الأعمى طريقه، وفي طقوس بطيئة مظلمة يُلبِس الرجلَ ثيابه، الرجل الذي لم يضمر له الإعجاب ولا الحبّ قطّ. يُلبِسه ثيابه الخاصة، التي ما كانت تلائم قامة ناندو ثياب دونها في الحيّ بأسره: القميص، السروال، الجورب، الحذاء، ويضع المنديل الكتاني في جيبه.

يمدّ يده ليغمض أجفان القتيل، وفي تلك اللحظة يتصوّر بحدس الأعمى آخرَ الصور المنطبعة في الحدقتين المُتحجّرتين لناندو بارّاغان، مثل الأحفور. كانت لمحة من ذكرى أخيرة بقيَت حبيسة في حدقتَيْه: «صحراء صفراء، مُرقّطة بظلال الصخور، حيث الموت جاثمٌ كالفهد في الشمس».

وفقاً لما يعتقد باكان، لن يقبل نجارٌ واحد بصناعة نعشٍ ملائم غداً، لأنه يوم إجازة. ولذا يمدّد جثمان الراحل، على ظهره، مغمض العينَيْن، عاقد الذراعَيْن، داخل صندوق من خشب الصنوبر جيء فيه بالثلّاجة «الويستنغهاوس» المُهرّبة التي أهداها لزوجته بمناسبة عيد ميلادها. يضرم شمعتين، ويتلقّى من الخلاسية فنجان قهوة يبثّ الراحة في نفسه. تتصاعد من الفنجان الأبخرة، وتفوح منه الرائحة الذكية. يجلس باكان ليرتشف القهوة بجوار ناندو، ويترقّب أن تحضر أسرته للمطالبة بجثمانه. يحيط الفنجان المصنوع من البيوتر بيدَيْه كي يدفّئهما، ويلقي نظرة أخيرة، زرقاء، لا طائل يُرتجَى منها، على عدوّه القتيل، ثم يقول وهو لا يراه: «كلُّ امرئٍ يستحقّ ميتةً كريمة. حتى أنت».

تمّت

(*) درب الصليب: طبقاً للعقيدة المسيحية، هو الدرب الذي قطعه المسيح حاملاً الصليب. (المترجم).

t.me/qurssan

(**) كائن خرافي له رأس إنسان وجسم حصان. (المترجم).

(***) كفرناحوم: كانت بلدة تقع على مقربة من الجليل، واكتسبَت أهميتها في المسيحية لأن يسوع المسيح صنع فيها الكثير من المعجزات وألقى الموعظة على الجبل، طبقاً لما جاء في الكتاب المقدّس. (المترجم).

(****) مونا Mona: تعني «قردة» باللغة الإسبانية على وجه العموم، وإن كانت تُستخدَم بمعنى «شقراء» في كولومبيا. (المترجم).

(*****) خورخي إليسير غايتان Jorge Eliécer Gaitán (1903-1948): محامٍ وناشط وسياسي كولومبي، تولّى عدة مناصب رفيعة قبل اغتياله. (المترجم).

(******) كارلوس غارديل Carlos Gardel (1935-«؟»1890): مُغنٍّ ومُلحّن ومُمثّل أرجنتيني، يُعَدّ من أهم رموز التانغو. (المترجم).

(*******) طائفة عسكرية مسيحية ألمانية، تأسست عام 1190. (المترجم).

(********) إشارة إلى ما جاء في الكتاب المقدّس: «فإِنّي أَجتازُ في أرض مصر هذه الليلة، وأضرِبُ كلّ بِكْرٍ في أرض مصر من الناس والبهائم. وأصنعُ أحكاماً بكلّ آلهة المصريِّينَ. أنا الرّبُّ.» (سفر الخروج 12: 12). (المترجم).

(********) جليات: محارب جبّار انتصر عليه داود على الرغم من صغره طبقاً لما جاء في الكتاب المقدّس. (المترجم).

(********) الپارامو: منظومة بيئية متكاملة تُوصَف بأنها مرتفعة جبلية استوائية بوجه عام، وتتركّز بصفة أساسية في كولومبيا والإكوادور وفنزويلا وبيرو. ويُفضّل ذكر اللفظ الإسباني كما جاء في الأصل نظراً لعدم وجود ما يقابله في العربية. (المترجم).

(********) بنيامين: أصغر أبناء يعقوب طبقاً لما جاء في الكتاب المقدّس. (المترجم).

t.me/qurssan

شكر وتقدير

الأشخاص الآتي ذِكرُهم عاشوا كتابة هذا المُؤلَّف خطوةً بخطوة، بل إنهم يشكّلون جزءاً منه، مع الأخذ في الاعتبار ما قدّموه من مساهماتٍ جليلة بحماسة، ورفقة، ودعم، ومشاركات، ومقترحات، وتصويبات، أو جميع ما سبق:

Helena Casabianca de Restrepo, Carmen Restrepo, Andrea Marulanda, Pedro Saboulard, Ramón Marulanda, Mónica Marulanda, Mireya Fonseca, Fabiola Castaño, Javier Marulanda.

تقوم هذه الرواية الخياليّة على أحداثٍ واقعيّة تناولتُها بالبحث الذي ساهم فيه الأشخاص الآتي ذكرهم بمعلومات على قدرٍ كبير من الأهمية:

Ricardo Villa (فلترقد روحه في سلام!), Jorge Alí Triana, Hernando Corral, José Araújo, Armando —el Pato— Fuentes, Alfredo Daza, Hermel Daza, Alvaro Restrepo, Misael Guerra, Campo Cabello Barquero, Manzur Agustín Sierra, Rolland Pinedo Caza, Alcira Weber, Moisés Perea, Hernando Marín, Wilder Guerra Currelo, Francisco Pérez Van Leden, Franklin Gómez, Jorge Bruges Mejía, Alvaro Gómez, Alvaro Castillo Granada, Los Gambos: Enrique Delugen Brito (el Pachá), Serapio Faruteso, Cristóbal Redondo, José Amaya, Manuel Redondo.

وعندي أسبابٌ قديمة كي أُعرِب عن الامتنان لكلٍّ من Eduardo Camacho Guizado، لأنه كان يُعلِّم القراءة في جامعة الأنديز، وكذلك Plinio Apuleyo Mendoza، لأنه كان يُعلِّم الكتابة في مجلة Semana، وغابو Gabriel García Márquez، وكيف لا أعرب له عن الامتنان، وهو الذي ضيَّق علينا الخناق من جهة، وأضاء لنا من جهة أخرى، بما له من نبوغ!

t.me/qurssan

لاورا ريستريبو

روائية كولومبية، وُلدت في بوغوتا في عام 1950. وتُعتبر من أبرز الكاتبات الكولومبيات المعاصرات. تُرجمت رواياتها إلى أكثر من عشرين لغة، ومن هذه الروايات: «رفقة عذبة»، «العروس الداكنة»، «جنوب حار»، «هذيان»، «خطيئة».

حازت «ريستريبو» عدداً من الجوائز الأدبية، مثل جائزة «سور خوانا إينيس دي لا كروث» (1997)، جائزة ألفاغوارا للرواية (2004)، والجائزة الوطنية للآداب في كولومبيا (2007).

t.me/qurssan

مارك جمال

مترجم مصري، عمل مترجماً لدى سفارة البرازيل بالقاهرة لسنوات، قبل أن يتفرَّغ لترجمة الأعمال الأدبية عن الإسبانية والبرتغالية. من ترجماته: «خريف البطريرك» لغابرييل غارسيا ماركيز، و«خلية النحل» لكاميلو خوسيه ثيلا، و«النسيان» لإكتور آباد فاسيولينسي، و«بريد الذكريات» لإيمًا رييس، و«اعترافات شرسة» لميا كوتو، و«مُذكِّرات براس كوباس» لماشادو دي أسيس.

صدرت بترجمته لدى دارَي «سرد» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: رواية «روساريو» لخورخي فرانكو.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

t.me/qurssan